

أبو رجل مسلوخة

محمد مستجاب

محمد مستجاب

أبو رجل مسلوخة

أفيقي...
لستِ أول من ينام
على الطريق...
وبمجرد أن أفاقت...
داهمها..

فهرس

أبو رجل مسلوخة

ظهر أبو رجل مسلوخة أول ما ظهر في حياتي وقد تألق في السماء خلال تلك الليالي الباردة المزمجرة الممطرة، حيث خرج من فروج الغيوم قافزًا فوق الرعد وقد أمسك بالبرق في يده المرعبة النارية، واخترق الحجب والظلمات مندفعًا إلى بيتنا، ذلك البيت القائم وسط الحقول خارج البلد بمسافة صغيرة، والذي كان في أدق تفصيلاته – مجرد مجموعة من الحوائط التي لا تهتم بتقسيم البيت إلى فناء وحجرات، إذ لم يكن مسقوفاً سوى حجرة واحدة صغيرة تخزن فيها أمي الجبن والسمن، وتربي في جحورها الأرانب وعلى نافذتها الوحيدة الحمام، ولا أذكر أنني في تلك الأحقاب أكلت أرانب أو حمامًا، ولم يكن ثمة باب في البيت إلا لهذه الحجرة والباقي سداح مداح، نخيل ودواجن وكلاب، فوق الحوائط ووراء الفرن وتحت الزير، ولما كانت الشمس شديدة وملتهبة، فقد كنا ندور معها خلال الظهيرة لنحتمي بظل الحوائط..

لكن تعديلاً أو تطويرًا أصاب بيتنا، فقد تم عمل سقف مؤقت من البوص لجزء أعتقد أنه القاعة، وفي هذا الموقع

المحتمل أن يكون قاعة كنا ننام، وفي هذا المكان كــان أبــو رجل مسلوخة يداهمني وأنا أنتفض من الرعب تحت أغطية صوف الحيوانات والتي كان معظمها من زكائب غلال غفير أبو خميس، وكان سقف البيت لا يصمت أبدًا طــوال الليــل، فالكائنات الدقيقة أو الغليظة تهيم حبا ليليا في الســعي بــين تكوينات البوص الناشــف: الســحالي والبعــوض والــذباب والعصافير والعقارب والعفاريت والثعابين، ولا يخلو الأمــر من كلب يقوم من فوق الحائط فينبح نباحًا كسولا لا يقصد به إلا إثبات أنه هنا – يفعل ذلك كثيرون من قواد الأمم – لكنه يكفي لإيقاظي، ثم يأتيه مزاجه – هذا الكلب – فيســير دون حذر فوق سقف البوص ويســقط ذراتــه وحبيباتــه فوقنــا، فيصرخ أبي في الكلب ابن الكلب الذي يرتدع فيترك مساحة سقف البوص بشكل أكثر إقلاقًا وضجيجًا، فتتوقف الضــفادع المقيمة في البركة القديمة القريبة عن نقيقها الطريق العريض ذي الطبقات الصوتية المتعددة، وفور انصياع الكلــب عــن الحركة والنباح، وبعد أن يحس أبي بالرضا لقدرتــه الفائقــة على هيمنته على الكلاب بصفتها أخطر ما في الكون، تستعيد الضفادع ألحانها، وتتجاوب في قاعة عزف البركة بأصــداء

تفوق قدرات قاعات بكين وميلانو وبرلين وطوكيو – وأوبرا القاهرة أيضًا، وبين هذا الدسم الصوتي المتبادل من كل مخلوقاتنا الحميمة، يأتي البرد والمطر، ويندفع من بينها أبو رجل مسلوخة بالبرق اللامع.

لكني – بعد عدة رعود وبروق – بدأت ألف أبا رجل رجل مسلوخة وآنس إليه، تركت رعبي وخوفي كي يقعا في دائرة نباح الكلاب ونقيق الضفادع، وظللت أتجول بين السحب أحاول أن أجد أبا رجل مسلوخة في ركن السماوات، كنت واثقًا أنه يعاني من البطالة أيام الصحو وخلو السماء من القلق والسحب والمطر، ومن الرعود والبروق أيضًا، وظل بيتنا بوقوعه خارج القرية – يغذيني باللف والدوران بين أكمات المزارع وأجمات الشجر وغابات النخل خلال النهار، ثم بالصعود ليلاً إلى الطبقات العلى التي أعلم أن أبا رجل مسلوخة قد كمن فيها جائعًا متشردًا ذليلا كسيرًا، ينتظر فرصة عكارة السماء كي ينزل إلينا، إلى الأرض، ليطاردنا نحن الأطفال، ويقتنص عيلا منا، ويصحبه إلى الأعلى– أعلى الأعلى، ليقتله أو يذبحه أو يصادقه وكل عيل وحظه، فلا أحد مثل الآخر، والذين اقتنصهم أبو رجل مسلوخة

وصعد بهم السماء وأسعدهم برؤية مصادر المطر والبرق والرعد، ثم فتك بهم كثيرون، كنا – بين وقت وآخر– نجدهم جثثًا؛ الطافية فوق مياه الترعة، والموغلة في عمق السوق، والمصروعة تحت حجارة منهارة والواقعة في وحل القنوات، وكان آخرها فتحي ابن عمتي دولت الذي تركه أبو رجل مسلوخة لكلب السماء فنهش بطنه، وبعد واحد وعشرين حقنة بدأ الولد ينبح ويعوي ويهاجم المارة حتى مات.

غير أني عرفت من حكاية رواها عابر اسود ضاحك مرح يبيع الحناء أن أبا رجل مسلوخة طيب وحنون ويحب العيال الطيبين، ولا يؤذيهم، ويمكن لأي واحد منا أن يتآلف معه ويأنس إليه. فهو بدون الرعد والبرق يصبح أعزل مسكينًا يستحق الإحسان والكلمة الطيبة وعندما – في عز النهار – أخرج متعلقًا بيد أمي في طريقنا للسوق، كنت أفحص وجوه المزدحمين والجائلين والصائحين والصارخين، فقد تسربت لي معلومات من مصدر موثوق به أن أبا رجل مسلوخة ينزل سرًا إلى السواق كي يجد شيئا يأكله، ولذا فقد كنت أمعن في وجوه الناس الذين يرتدون الملابس الرثة.

ويحجبون وجوههم باللفائف والمزق والأغطية، وجوه غريبة مستكينة تكاد تكون هائمة أكثر من كونها جائلة.

ثم كنت أعود السوق معتقدًا أن أبا رجل مسلوخة قد يكون ينتظرني بجوار الحائط في مدخل البيت الذي لا باب له، أو أنه سوف يحضر آخر النهار في هذا الوقت الرائع الذي تكون فيه أمي تنهي آخر طقوس طبيخ يوم السوق، أي في هذا الوقت الذي تشع فيه رائحة قدحة الملوخية النافذة والتي تتأجج في أنوف الكون كله، إذ سوف يحضر أبو رجل مسلوخة كي يأخذ حقه من طبيخنا الأسبوعي الشهي، الذي تصوره أمي بالحق – مع اللحم – أو بالباطل– بدون لحم، وكل شحات ومتسول وصاحب حاجة لا يتحرك نحو حاجته إلا في هذا الوقت بالذات وكنت بعد أن أتحرى ملامح أبي رجل مسلوخة في وجوههم، أمعن في السيقان، كي أتأكد أن إحداها حمراء مسلوخة وقد تم تضميدها بلفافات ومزق يتصاعد منها الدخان، كنت أحاول أن أجده في النهار كي لا يداهمني في الليل، ذلك أن حكايات أمي وأختي الكبرى تؤكد أن أبا رجل مسلوخة يفقد شره وتوحشه تمامًا حينما ينجذب إلى الأرض من السماء وأصبح إنسًا – أي إنسانًا، وقد

راعني أنني كنت أبحث عنه وسط المتسولين، ولماذا المتسولون؟ وألا يمكن أن يكون تاجر بهائم أو سقاء أو مدرسًا أو جزارًا؟ ولماذا لا يكون أبو رجل مسلوخة أحد أقارب شياطين الزار التي تمتطي جسد زوجة خالي محمد عبد المجيد أو نديرة أم زكي، حتى ولو كانت شياطين الزار تعد من جبال البربر أو كردفان، ولا تمارس عملها إلا تحت وقع ضجيج الطبول، وظلت المسائل مع أبي رجل مسلوخة مستعصية ومغلقة ومقلقلة.

غير أن الأمر وصل إلى ذروته حينما كنت أسير متعلقًا بأذيال أمي لزيارة خالتها زينب وهي أيضًا ممن يمتطيهن، الجن فبينما كنت أحاول تبين بيت ستى زينب (نقول ستى عن جدتى) ووجدت أبا رجل مسلوخة جالسًا أمام البيت.

نعم، كان جالسًا أما البيت، وعلى الأرض، وقد أمسك بلقمة من رغيف أبيض يزدردها، بالصفات نفسها التي رأيته بها في تلافيف سحب السماء ذات البرق، الملابس الرثة القذرة والوجه المحجوب بغطاء كالمثلث الممزق، ثم ساقه الممتدة أمامه مسلوخة حمراء، وقد لف بعض أجزائها بأربطة ولفائف لا تخفي منها شيئًا كان كل شيء فيه قذرا

ومليئًا بالتراب حتى حمرة ساقه كانت حمرة موحلــة، ومــا كدت أحاذيه حتى أني تجمدت لحظات، ثم هرعت خلف أمي لأزداد تشبثًا وأصرخ: أبو رجل مسلوخة، وكــأن صــوتي، مسلوخًا متحشرجًا مزنوقًا، أبو رجل مسلوخة، وقبل أن تنتبه أمي لما يحدث خلفها، كان أبو رجل مسلوخة قد ابتسم، انفتح فمه مع بقايا لقمة الرغيف أولاً، ثم ازدادت شــروخ عيونــه فانفصل الجفن الأسفل عن الأعلى ليظهر فيها لون أحمر بالغ الشراسة، مع أنه كان يبتسم، تلك الابتسامة المتألقــة العذبــة مهما أحيطت بالحمم واللهب والشراســة، الابتســامة التــي أستطيع أن أميزها بين مئات الابتسامات، الابتســامة نفســها التي تخترق سقف البوص لتمسح عنى أجفال الرعد والبــرق والمطر، ووقفت أمامه أتبينه، وأتفحصــه، مــذهولاً، فبعــد صراخي مرتين ابتلعت صوتي، أو فقدت صوتي، فقد كــان الرجل لا يزال ممعنًا في وجهــي هــذا الإمعــان الأحمــر المشقوق الجفون، ثم إنه – وهــو يبتســم – ســحب ســاقه المسلوخة وارتكز على الحائط بظهره ووقف، كــان طــويلاً ماردًا. يمكن لك أن تكشفه ولو سار وسط النخيل.

وقبل أن أتحرك حركة واحدة، أية حركة، ابتلـــع أبـــو رجل مسلوخة ابتسامته، وانقض علـــى انقضاضـًـــا صـــاعقًا مروعًا، فسقطت على الأرض صارخًا مفزوعًا، وعادت أمي مسرعة في وجل: اسم الله عليك يا ابنـــي. ورفعتنـــي فـــي أحضانها من فوق الأرض، وقد انزلقت روحي منى.

ومنذ ذلك اليوم وأبو رجل مسلوخة لم يفارقني، رأيتـــه في زخمة سيدنا محمد عثمان، حينما كان يوثقـــون أقـــدامي بالفلكة لينهال عليها بالزخمة عقابًا لي على عدم حفظ الجزء المأمور بحفظه من القرآن الكريم، وفي أصابع خالي أحمـــد خميس وهو يقرص خدي في قسوة لاســـتحمامي فـــي ميـــاه الترعة، وفي عصا زكي أفندي مدرس الجغرافيا وهو يمزق ما رسمته من خرائط خاطئة، وفي العيون الحاقدة الكارهـــة من ابن عمتي لأني متفوق على ابنيه: واحد ينجح كل سنتين وواحد يتذيل صف الناجحين، وفي قلم صراف الحكومة وهو يحجز على بيتنا وفاء لعشرة جنيهات ضريبة حكومة، وفـــي عجلات قطار شركة السكر وهي تبتر قدمي أحد أقاربي، ثم – بعد ذلك بأربعين عامًا حينما دهس قطار آخر ابني الأكبر، وفي تفجير بعض الديناميت الخاطئ في صخور السد العالي،

وفي اليد الشرسة للضابط الذي قادني للسجن في هجمة عشوائية، وفي منديل المأذون وهو يضغط كفي في كف صهري ليلة فرحي الميمون، وفي صوت جمال عبد الناصر وهو يعلن الهزيمة ثم التنحي يوم ٩ يونيه، وفي مقال لناقد سخيف وهو يعلي من شأن كاتب محدود الموهبة على حساب يوسف إدريس، وفي عيون زوجتي حينما تطالبني بنقود- وهي تعلم أنني لا أملك نقودًا، وفي فوهة بندقية تفرق بين الهلال والصليب، وفي سن سكين تترصد أناسًا عابرين، وفي ذراع عم ضبع حينما كان يخرج كفه من بطن جاموستنا معلناً أنها ليست عشارًا – أي خاوية دون حمل – وفي وجه أنور السادات وهو يلف ويدور حول سيرة عبد الناصر، وفي اللحظات المرهقة السخيفة التي مضت شائكة أثناء توقيع أولى أوراق السلام في كامب دافيد، وفي كتاب تجربتي الذي صور فيه عثمان أحمد عثمان جمال عبد الناصر وقد انحني تقبيلاً ليده الجميلة، وفي وجه الذئب الجربان الذي ظلت قريتي تطارده دون جدوى – سنوات – وسط المقابر، ثم وجدته آخر الأمر جثماناً لكلب مسعور قضى نحبه في مياه آسنة، وفي اللجان الدستورية لصالح تركيز سلطة الحكومة،

وفي كف موظف مرتش يسلب أرملة بعض نقودها، وفي أصوات الضفادع الضاجة الشائهة في أغاني اليوم، وفي صوت صدام حسين وهو يعلن النصر لمداهمته الكويت ليصنع ورمًا أو خراجًا دمر توازن الرأس العربي كله، وفي الدب الذي سعى إليه الكاتب الأمريكي فولكنر – لكنه أقام منه عملاً من أجل أعماله الأدبية، وفي سكينة أو رصاصة تنغرز في رقبة ناطق يعبر عن هموم الناس، وفي عيون راسبوتين حينما كانت تداهمه قشعريرة اللذة، وفي اللمعة السريعة لعيون صديق خائن، وفي التصرف الذميم لمدير منهمك في امتصاص نقود من يعملون حوله أو معه، وفي قلم أهوج يصدر قرارًا أهوج وأحمق، وآخر الأمر الذي أرى أبو رجل مسلوخة في قصة أو رواية هابطة أو قصيدة رديئة، تحتل مكانًا طيبًا في جريدة واسعة الانتشار، والتوقيع: أبو رجل مسلوخة.

الغوازي والتنظيم العلني

١- الغوازي

حين استيقظت في ذاك الصباح، وقبل أن ترى عيوني النور، فوجئت بنوع من الإحساس الضاغط الملح: أن أذهب إلى بيوت الغوازي..

كنت خارجًا – في تلك الأحقاب – من تجربة مريرة، إذ أن الفتاة التي تابعتها في قنوات جمع الخيار، وحفريات استخراج جذور القلقاس، أبلغت واحدًا من أهلي بما يحدث مني، وبعد أن انهال عليّ هذا الواحد الذي من أهلي: توبيخًا، ولومًا، وشتائم، بدأ – في هدوء – يستدرجها إلى غابات القصب، وفي الظهيرة انشغلت –أنا– في سماع أخبار إطلاق محمود عبد اللطيف النار على جمال عبد الناصر في ميدان المنشية، وفي آخر النهار قلع أحمد عبد العزيز عين شحوت بالعصا، واقتادوه إلى النيابة، كان يركب فرسه ويتبختر بها لأول مرة مقلدًا أعيان البلد، وقبل حلول العشاء لدغت عقرب أختي الكبرى، وفي منتصف الليل كانت المباحث تطارد فلول جماعة الإخوان المسلمين، ولم أستطع أن أقاوم فاستغرقت في النوم العميق.

لابد من الذهاب إلى بيوت الغوازي.

الغوازي عندنا جميلات جمالاً أبيض يأخــذ بالألبــاب، وفي رقابهن كنوز من ذهب وألماظ، ولهن طريقة في السير تخلب الروح، وهن لسن من الغجر أو النور أو الحلب، كمــا أنهن يعشن (كيف بالله أتخلص من نون النسوة؟!) في بيــوت أكثر استقامة ورونقًا من بيوتنا، أي أنهن لا يعشن في الخيام، إنما هن كما سمعت من بقايا أهل الشــواطئ، الإســكندرية بالذات، والذين كانوا قد نزحوا من الشمال خلال الهجمــات الشرسة لطيارات المحــور -إيطاليــا وألمانيــا- فــي أول الأربعينات على هذه المدن، فقد داهم الصعيد الأوسط عــدد كبير منهم حيث قوبلوا – أول الأمر – بكرم الوفادة وحســن استقبال الضيوف، مع تسهيلات فــي الســكن، والحمايــة، والقوات، والزاد، وحرية الحركة، ومع مرور الأيــام فقــدوا نصيبهم من الكرم والأخــلاق الصــعيدية الحميمــة فبــدأوا يتوسلون إلى الحياة بوسائل التجارة في الحبــوب والقمــاش، وعيونهم مصوبة نحو الشواطئ، وبمجرد أن توقفت الحرب عادوا إلى بلادهم، عدا أفراد استطاعوا أن ينقلــوا نشــاطهم الإنساني من بلادهم إلى بلادنا، إنني أقر بأن وجود الغوازي

في قريتنا أعطاها امتيازًا جماليًا يفـوق مـااللقرى الأخـرى الواقعة بين نهر النيل شرقًا والجبل الدافئ غربًا، حيث لم يعد ثمة فرح أو مولد يقام إلا ورقصت فيه روحية وأنصاف.

لم يكن الأمر يتوقف عند الأفراح والموالـد، ذلـك أن أثرياء البلد كانوا قد فتنوا بهذا الجمال الأخـاذ الـوارد مـن الشمال، وكانت قصورهم تتألق– بين أسبوع وآخر– بحفـل استقبال يقيمونه احتفاء بضيوف، وعندما يصل الحفـل إلـى قمته من رقص وترنح ولهو ومهاترة، يصبح لزامًا على أي رجل أن تقوده واحدة من الراقصات إلى حيث يبدأ الفصـل الأكثر وهجًا، غير أن أناسًا شاعت لهم مقاديرهم بالمشـاركة في الخدمة – على وجه الخصوص– أشاروا بأن ألأمر فـي ظاهرة يدعو إلى الاندهاش والغيرة والحسرة العارمة لعـدم المشاركة، لكنه – في حقيقته أمر يدعو للمرح والضحك ، إذ أن قلة الأدب تنتهي في معظم الحالات عند المرح والـرقص والتقافز والقيام ببعض التصرفات البذيئة المخجلة، وعنـدما ينتقل الأمر إلى حجرات الفحيح والتلاقح، يتسـاقطون علـى الفراش لأسباب لا علاقة لها باللذة، إن عـددًا مـذهلاً مـن أثرياء قريتنا لم يكن منجبًا– مع الإقـرار بـأن الإنجـاب لا

علاقة له بصحة آلية العلاقة – حيوانيً، أي أن ميكانيزم اللذة لم يكن في قدرة الكثيرين، هكذا سمعنا، وهو ما توازي مع أمنيات الفقراء – أو غيرهم الأثرياء، والتي تصاعدت في حدة بعد أن بدأ جمال عبد الناصر في مشروعه القومي الذي أوقف هذه المباذل دون أن يقصد، إذ أن تحديد الإيجارات وحظر طرد مستأجر من الأرض، أو العين المؤجرة، فتح بابًا انتقاميًا – نفسيًا – مذهلاً لنا، فاضطربت قدرات الأثرياء، وبدأوا ينتبهون لما سوف يحيق بهم، فانفرط عقد الغوازي، ولم تعد قصور الأثرياء تقيم مهرجاناتهم إلا في حالات نادرة، وانهارت دخول الغوازي من هذه الليالي الفاجرة – أي التي تنتهي في الفجر – والتي كانوا يتعالون بسببها على حضور أفراح الفلاحين، وإن استجابوا فإن مساهمتهم تكون في حدود طويلات العمر، كما أن واحدا من الجمهور العادي لم يكن له فرصة لزيارة الغوازي – استجلابا للذة– في بيوتهم، كانوا – دون قرار – قد أصبحوا، كلهم، في دائرة نشاط الأثرياء راقصات وطبالين وموسيقيين.

لذلك، كان من الواجب أن يقوم الغوازي بتعديل نشاطهم ليساير نشاط الثورة، ليس فقط أن يستجيبوا لدعوة أفراح

القرية والقرى المجاورة بل وصل الأمر إلى حد الذهاب إلى أية أفراح دون دعوة سابقة، مع الحرص ألا تتسلل إلى البلدة أية جوقات أخرى من البلاد المجاورة، ثم أتضح لهم أن العائد من أفراح خلق الله لا يوازي جزءًا ولو يسيرًا من عائد ليلة واحدة في قصر من القصور، ولذا فقد أصبح طبيعيا أن يتم التعديل بدرجات أكبر، وهكذا رأينا كثيرين من شباب البلد، القادرين على استحواذ أموال تصلح لهذه المهام السرية، يتوجهون إلى بيوت الغوازي، وأصبح لائقًا أن يتهامس اثنان عن اتفاق مدبر يقومان قبله بالاستيلاء ليلاً، وبشكل لصوصي بحت على كميات من قطن أو قمح أو فول، أو حتى أحمال من تبن أو من برسيم، أو سرقة جدي أو حمل أو أكواز ذرة، ليمكن لهما الإغداق على ليلة اللذة، مرة كل فصل أو كل موسم أو كل عام، لكن المهم أن باب الغوازي أصبح مفتوحاً لأناس لم يفكروا في أمر الغوازي بأي شكل محتمل، وبدأت حكايات عن أبناء كان موعدهم بعد العشاء فاكتشفوا أن ما ينهي المتفق عليه في الحجرات المغلقة هم آباؤهم أو أعمامهم أو أخوالهم أو حتى أجدادهم، تفشى هذا الأمر حتى بدأت القرية ترتعد من هول ما يحدث.

لكن كان هذا الذي يحدث بدأ يتقلص لحساب تجار الحبوب (الحلبة بالذات) والأبقار والماعز، بقايا أثرياء لم يصلوا إلى حد اهتمام الثورة بهم من وكلاء شركات الشكر والكسب والأسمدة، كما أن الغوازي– أنفسهن– أصابتهن الكآبة والوخم، ففقدن التجديد الملازم لاهتمامهن بأجسادهن – نون النسوة مرة أخرى – ولم تعد تلك الجوقات مستقطبة لأنواع من البنات والنساء قادمات – أو هاربات – من مواقع بعيدة، كما أن انخفاض الدخول جعل الطبالين والعازفين يهجرون ارتباطهم بالغوازي ليقوموا منفردين بالعزف في السواق والتجمعات والطرقات عزفًا منفردًا يعني التسول مباشرة، وهو ما أدى إلى ندرة واضحة حيث أصبح التصفيق في الأفراح بديلاً عن العزف الموسيقي.

وقد حاولت الطبقة التي قامت بعد الفتك بالأثرياء أن ترث تقاليد وعادات الأثرياء، وركب بعضهم – وهم قليلون– الخيل فقلعوا العيون، ولعب بعضهم القمار فتماسكوا بالأيدي مع إبراز السكاكين والمطاوي، وذهب بعضهم إلى الغوازي– وبعد انتهاء العملية يفاصلون ويجادلون في المقابل، وبنى بعضهم مقابر بالأسمنت فظهرت فتوى تشير إلى أن الأسمنت

يخلو من المسام مما يحول بين الجثمان والتـــنفس، وارتـــدى بعضهم جلابيب ذات نصف ياقة، مع أن الملابس الداخليـــة تسح بما يظهر بقعًا على نصف الياقة، وظهر الألمونيوم في المدن ثم في قصور القرى بديلاً صحيًا للنحـــاس- فـــرفض بعض غير الأثرياء الدخول على عروسته ذات الألمونيـــوم، وبين شد وجذب وتمدد وتقلص وانتصارات وهـــزائم، مـــات عبد الناصر، ورحل ضابط عالم الشهادة إلى العالم الآخـــر، وجاء أنور السادات ليفك الضابط وكل الضوابط وليقلـــب - في بطء وسابق تعمد وترصد - الثورة على أصحابها، وعلى كل الذين استفادوا من عصر عبد الناصر، الأغلبية والأقلية، وظهر ورثة الأثرياء لينتقموا مما حاق بهم، وممن أحاق بهم، فاندفعت القدرات الشعبية كلها إلى بلاد النفط تســتعيد بمـــا تجلبه قدرات تعويضًا عن قدرات بدأت تنهرس في الأوضاع الجديدة، واضطرب التمدن مع التفسخ، والتطور مع التحلل، والتحديث مع المهاترات، والشجاعة مع الجليطة، والحـــوار مع السخافة وقلة الأدب، وافترش التليفزيون البيوت ليـــدمر عاداتها وتقاليدها، ويقدم فنا مزورًا يدعو إلى هبوط الهمـــة، حيث هجرت كل النساء القرويات تنقية الحبوب وتجهيزهـــا

للطاحون ثم تحويلها إلى دقيق مع إعداد الأفــران للخبيــز، وأصبحت النقود بديلا تشترى الجاهز من الخبز والخضــار والسمك المقلي واللحوم في أكياس، وفقدت المرأة القروية – في كل المستويات – إرادتها في تربية الأرانــب والــدواجن والبط والأوز والحمام المعمول في طواجن الفريك وظلت – المرأة القروية – تفتح فوهتها أو فمها اندهاشًا أمام التليفزيون وفي حجرها يلعب الوليد الخامس في بزها أو ثديها (كــي لا تغضبوا)، وبدأ الوسن والخمول يلفون الدماغ المصري الذكي الثاقب بلفافات النقود والرغبة العارمة في التكسب، وجفــت أوردة التراحم والتفاهم والهمــس الجميــل، وبدأــــ تــذبل، وتتساقط في المسافة بين الفيديو والاستريو.

وأخيرًا: حاولت أن أنصب حيلي كــي أنفــذ رغبتــي العارمة: أن أذهب إلى بيوت الغوازي.

وكان الصباح جميلاً، والسنوات قد انــدحرت للخلــف، وبنت ابني كامنة في أحضاني، كانت حفيدتي تضــحك فــي بكاء واضح، فأحسست بأن المر لم يعــد يخــص الغــوازي فقط..

٢- التنظيم العلني

فوجئت في الأسابيع الخيرة أنني لا أطيق النظـر فـي وجه زوجتي وأنني في مرات كثيرة أصبح عصـبيا عـالي الصوت دونما داع ملموس، قلت في نفسي: هذا عـذاب أن تخلو حياة الواحد من همسـة عاشـقة أو إغماضـة عيـون مناورة، أو التهاب فجائي يصيب الخدود، لذا فقد قـررت - وفقًا لهذه الكارثة - أن نفترق - أنا وزوجتي - بالمعروف، دونما ضجيج أو جلسات الساعين للصـلح، وقـد أحسسـت زوجتي بذلك فبدأت المسافة بيني وبينها تستطيل، كانـت - مثلاً- تنتظر حتى أجلس في الشرفة فتهرع إلى كوب الشاي لتحمله بكلتا يديها، وتناوله لي وتظل تنتظر حتى ألمس بوادر الشاي ببوادر لساني، نصف ملعقة سـكر، فتقـوم زوجتـي بالهجوم على نوع السكر الجديد المضطرب الحلاوة، والذي -بسببه - لا تنضبط أية مذاقات..، لكنها الآن، أي بعـد أن أضمرت ما أضمرت، فإنها قد اختصرت المسألة في حـدود وضع كوب الشاي أمامي على المائدة الصغيرة، فإذا طعنـت في انضباط حلاوة الشاي، وهمست: نصف ملعقـة سـكر، خرجت زوجتي من أحد الأركان وتوجهت إلى حيث تنهـي

مسألة نصف ملعقة السكر في صمت ودون أية تعليق على حلاوة السكر المراوغة، وهكذا تحمل أشياؤنا ومذاقات مأكولاتنا وحركة أبوابنا وشبابيكنا عبء قراري الذي لم أعلنه بعد، في انتظار الوقت الملائم.

وتمهيدًا للوقت الملائم لرفع هذا الحصار النفسي بدأت أفكر – مثلما تفكرون حتى ولو كنت أنا أذكي منكم – في البديل، بمعنى أن أكون مستعدًا لملء فراغ الفؤاد في الوقت المناسب، وأنا كاتب يحتاز شهرة واسعة في التجارب والتجريب وكشف ما يكون مستورًا، انظر موضوع مديرة الحسابات – مثلا – تلك التي تستقبلني مهللة الملامح دون أن تتحرك، ثم تهمس تحت وقع ابتسامة ساحرة: إزيك؟ ويكون شعرها قد تراجع لخلف ليسمح لباقي استدارة وجناتها في الظهور، ومن باب التسلل إلى حياتها بدأت أسألها على عيالها، فلما عرفت كل شيء عن عيالها، بدأت أتيح لأسئلة غامضة أن تتعلق في الفراغ الذي يفصل بيننا، لم أنم الليلة – هل نمت أنت؟؟!! فتنظر في وجهي قليلاً ثم تبتسم في تألق، وتفتح فمها ضاحكة، ثم تترك السؤال اللئيم معلقًا، بعدها تأمرني ضاحكة بقوة: اسكت يا واد أنت يا شقي..!!

وهكذا قررت – في هذه اللحظات الســاحرة الغامضــة الحساسة– أن أحتسي شاي الصباح مع مــديرة الحســابات، والتي ستفتح لي باب التوازن العاطفي المختل، حيث توجهت مباشرة إلى مكتبها قبل أن أدخل مكتبي، ورسمت الابتســامة السينمائية المناسبة، وتحركت كالنسيم إلى بابها..

كانت مديرة الحسابات قد أعطت ظهرها للباب منهمكة في الضغط على قرص طعمية من النوع"اللارج" الكبير وقد التفت حوله ذيول فجل أو جرجير، وكــان خــدها قــد فقــد استدارة الجمال وحلت محلها استدارة الالتهام، وبقايا مهروس فول الطعمية قد تناثرت حول شفتيها وكأنها تخشى التوغــل في منطقة (الروج) الحمراء: صباح الخير، فرفعت شــعرها بذراعها دون يدها المتشبثة بنصف رغيف وكأنها ستشــرع في مباراة رمي القرص، وتحركن شفتاها لتتولى الرد فانقذف منها فتات مختلط لأغذية سبق مضغها، كانــت الفتتــة قــد تناثرت ممزقة أمام مديرة الحسابات في مجموعة من الأكوام الصغيرة: باذنجان مقلي وباذنجان مخلل وأفراد مــن الفلفــل والليمون ووحدات من الطعمية واللقيمات التي لم يــأت دور التهامها بعد..

ووقفت مديرة الحسابات مشيرة بذراعها العارية (تفضل) كي أشاركها الإفطار، فاعتذرت لها بسرعة مع وعد بعودتي وأنا أحاول استيعاب المشهد كله، حيث انحرفت جانبا متوجها إلى مكتب المتابعة حيث تجلس مديرته وأمامها فنجان قهوة لم يمس، وكان وجهها مغروسًا في الفنجان كأنها تقرأ شيئًا، فلما انتبهت لي رفعت الفنجان – ناظرة لي في استطلاع – واحتسته في رشفة واحدة، قلت لها ضاحكًا: الفنجان كله؟؟ قالت: كله..!! وأشاحت بذراعها في مرح واستهانة، فوقفت قليلا كي أصارحها بأن فنجان القهوة يحب السمر الهادئ ويكره المباغتة الشرهة، فضحكت بطريقة أظهرت أسنانها الغامقة التي تداوم على تنظيفها يوميًا كي تتخلص من رواسب القهوة والتدخين، هل قلت التدخين؟؟ نعم، فمديرة المتابعة شديدة الشراهة في التدخين علنًا، وتعتبرها نوعًا من التحرر، كانت آثار عب القهوة واضحة في أركان التقاء شفتيها، فاعتذرت لها أنني سوف أعود إلى مكتبي، كانت لا تزال تضحك.. فور ولوجي مكتبي مددت يدي بسرعة كي أرد على التليفون، كانت سكرتيرة الرئيس، ألقت بصباحها الجميل المشاغب في أذني، ثم سألتني أين

كنت؟! وأضافت أن الرئيس يريد أن يراني فورًا، هبطت الأدوار الستة بالمصعد، التقيت بزملاء وزميلات فتبادلنا تحية الصباح المرحة، كانت أكثرهن جمالاً قد تركت الكحل في عيونها وقد فاض على جوانب الأهداب، أخرجت نظارتها ووضعتها على عيونها وبدأت تبتسم، أحسست بأن تشكيلاً من عصابات بدأ يحوطني، فتخلصت من هذا الإحساس الصعب وخرجت من المصعد إلى باب مكتب الرئيس، رأتني السكرتيرة فوقفت محيية وضاحكة، وقد رفعت ذراعها الذي رأيته ألف مرة دون أن أنتبه أنه مفعم بالأساور الذهبية، كانت يدها منجمًا ذهبيًا وكانت يدها رفيعة تذكرك فورًا بالمصابات بالأنيميا – فقر الدم – وما كدت أبتسم لها حتى كانت معظم أسنانها الأمامية قد غطت على شفتيها.

وفي حضرة الرئيس لم أستطع التركيز، كان يتكلم في هدوء، وكنت منهمكًا في تفسير هذا التنظيم الغريب الذي تأسس اليوم علناً ويعمل لصالح زوجتي، هذه التي عدت إليها قبل أن أكمل يوم عملي..، لكنها حين فتحت لي الباب – وكانت تمسح البلاط – سألتني متلهفة، ووضعت يدها – غير النظيفة – على جبهتي، وتناولت ما في يدي، إيه.. فيه إيه،

قلت وأنا أجلس على أول مقعد: اكتشفوا أكبر تنظيم، قالـــت مستطلعة ومضطربة: يا ساتر يارب. قلت لهـــا لا تخـــافي ، عاوز شوية شاي..، كانت جميلة بشكل لم أره من قبل أبـــدًا، تتضاءل معه كل الهمسات العاشقة المأمولة، وجاءت بالشاي ثم سألتني: أي تنظيم؟؟ قلت في وضوح: التنظيم الذي يعمل لصالحك، فاكتشفت أنني اسخر، فضربتني على كتفي عاتبة.

يوم للفكر الجانح

كان عبد الرحمن بدوي قد تــرجم"الوجــود والعــدم"، لشوبنهاور، وظهر أثره بعد ذلك في كتابات أنيس منصــور، وسيظل هذا الكاتب – أنيس منصور – من الكباري والجسور التي عبرت عليها الثقافات الأوروبية إلــى مصــر والعــالم العربي في الخمسين عامًا الأخيرة، هذا دون تفريط في حقي أن أضيق به لأسباب سأعلنها فور تنصيبي رئيسًا للتحريــر، فالموهبة التي منحها الله له: إنه – بأسلوبه المرن– لم ينقــل الفلسفة ويصوغها لنا بصفته فيلسوفًا، بل كان تلميذًا للفلســفة أصبح كاتبًا.

كاتبًا شعبيًا قام بدور هائل لم يستطع القيام به كثيــرون من أصحاب الذمة الفلسفية، حينئذ وقف الشيخ محمد فــوزي على المنبر وأعلن ضدنا حربا لمحاصرة العقــوق والشــذوذ والكفر الذي ملأ قلوبنا، فقد لمس الشــيخ الجليــل انبهارنــا بسيمون دى بوفوار التي اختارت – بــإرادة خالصــة – أن تعيش حرة مع جان بول سارتر الحــر، علاقــة لا تخضــع لمجموعة المساومات السابقة على الاقتران، ثــم اقتــران لا يخضع لمباحثات الأسرة والعائلــة وعــدد الأفدنــة ونســبة

الهاربين من السجون، وهي مسائل لها أهميتها بسبب وقوعنا جميعًا في حب بنات الذوات، واللاتي يمارسن الحب دون الولوج في عالم الزواج الذي لن يكون متكافئًا، عائلاتهن وعائلاتنا الفقيرة الغلبانة، التي قضت حياتها الممتدة دون تقويم (نتيجة) تعلق على الحائط، وكان ذلك سببًا أن يلعننا الإمام ويلعن معنا أنيس منصور أيضًا.

كنا قد أصبحنا كفرة خارجين على الدين الحنيف سعيًا وراء كيركجورد وسارتر وراسل و دى بوفوار وغابات طرزان التي يتقافز بين أشجارها السينمائية متشبثًا بحبل بدائي، ثم ينام – آخر الليل – في أحضان امرأة بيضاء تسيل رغبة وجمالاً، والتي جاءت مع فريق استكشاف علاج لأمراض ذبابة (تسي تسي) أو شيء من هذا القبيل.

لكن الشفافية الشاعرية التي قدم بها أنيس منصور فرانسواز ساجان في صباح الخير أيها الحزن، جعلتنا مجموعة من أبناء القرى الذين يحومون حول الحياة دون حياة، لم نكن نعرف ماذا نفعل، نقوم في الصباح المبكر لنلتقط البلح المتساقط عفويًا من النخيل المحيط بكل المنطقة، ثم عند فرزه صباحًا نكتشف أن عددًا قليلاً من البلحات صالح

للالتهام، والباقي ملوث أو مضـــمخ بـــالتراب والقـــاذورات والطين، ثم نظل هائمين نثرثر في توماس ستيرن إليوت.

هذا الذي كنا نتعمد أن ننطق اسمه كاملاً دون أن يكون ت. س. إليوت – تأكيدًا على دقة ثقافتنا، وهـــو مـــا يفعلـــه أصدقاء كثيرون الآن (واحد منهم سألني منذ أيام – في جلسة حاشدة– إن كنت أستطيع أن أعيره شـــريطًا مـــن موســـيقى ريمسكي؟؟ ولما اعتذرت له لأني لا أملـــك ذلـــك لأنـــي لا أعرف ريمسكي أصلا، نظر في وجهي وقال منبهًا: يا أخي ريمسكي كورساكوف..!! يقصد صاحب موسيقى شـــهر زاد الشهيرة، وخلال تلك الأيام البائسة، ومع ضمور ما يؤكل في الفم إزاء ما يلتهمه العقل، أصابتنا حالـــة مـــن التـــرنح، أو التطارح، أو عدم الاتزان، ولا ســـيما أن عمـــود القصـــيدة الراسية الواقف صلبا قويا قد انكسر، وظهرت أشعار صلاح عبد الصبور خيمة تسعى وسط ضجيج المقيمين تحت ســـقف القصيدة الموروثة.

– خد يا ولد، واقتربت مـــن خـــالي نـــاظر المدرســـة الإلزامية الذي يفخر بي لأني أطلـــع الأول فـــي المدرســـة الابتدائية الشامخة في البندر، وضع يده على كتفي فانتفضت

خشية أن يلطمني – قاسيًا – كما يفعل في بعض الأحيان، أمعن في وجهي وقال إنه لا يود أن يراني في الشارع، ولابد أن أترك العيال البايظين الذين يذهبون إلى السينما، وأمرني أن أعود إلى البيت لأن أبي يبحث عني، ولم أصدق أنني نجوت من خالي الناظر دون لطمي أو ضربي قلمين، وما كدت أتخلص منه حتى ناداني مرة أخرى وأمرني ألا أنسى أن أصلى في الجامع، وأشار لي أن أقترب، وأعاد وضع يد على كتفي، وقال في همس أن أقبل يد الشيخ محمد فوزي لأنه غاضب جدًا علينا بسبب سلوكنا غير المشرف.

كنت قد خرجت توا من قصة لمحمد عبد الحليم عبد الله عن حالة صبي تخرج زوجة أبية خلسة كي تلتقي بواحد أفندي يسكن في طابق آخر، لماذا زوجة أبيه؟ لأن هذا الكاتب الروماني شخص شريف لا يمكنه أن يترك الأمهات يفعلن ذلك، فعلها يوسف إدريس حينما ترك واحدة من الأمهات الجليلات. وقد بدأت تشتهي صبي المكوجي لكننا بعد سنوات فوجئنا بالسيد جان بول سارتر وقد وقفت أمه – خلسة – تودع مدرس الموسيقى خلف الباب، حينئذ فوجئت بأبي يمسكني بيده القوية، ويلعنني ضاحكًا، ويسحبني كي

أشاركه رحلة غرب الجسر، تلك التي كانت حين تحدث، تترك في النفس شجنًا مريحًا وحزنًا متواصلاً مع غيوم السماء، إنني أدين لرحلة غرب الجسر بكثير مما يداهم خيالات قلمي الآن.

كنا نملك سبعة قراريط – أكثر من ربع فدان– في تلك المنطقة والتي كانت تسمي حوض ظهر الجمل الواقع بين قريتي ساو – وكودية الإسلام، وهذا الحقل الموروث بعيد عن قريتنا ديروط الشريف بمسافة طويلة، أميال ممتدة بعد غرب البلد حتى ترعة البدرمانية، ثم إلى ترعة بحر يوسف، ثم نظل نزحف غربا حتى حوض ظهر الجمل، الذي بعده بمسافة محدودة تبدأ تلال الصحراء الغربية، وكانت هذه المسافة الطويلة قد أفادت الحاج يونس الجاحر، الذي خرج من ديروط الشريف ذاتها وابتني منزلاً في نقطة قريبة من حقل ظهر الجمل، وبأخلاقه الهادئة وطول باله ولسانه الحلو، استأمنه المرهقون من المشوار ليؤجروا له هذه المساحات الضيقة، ثم رأوا أن يتخلوا عنها له بالبيع تمهيدًا لأن يستعيضوا بأثمانها أرضًا قريبة لقريتنا، لكن المسألة انتهت عند البيع فقط حيث ضاعت النقود في اللحم والخضار

والملابس والسينما والمدارس دون امتلاك الأرض القريبـــة، ولم نكن نحن قد فعلنا هذا حتى ذلك الوقت، فعلناها بعد ذلك بسنوات قليلة.

كان أبي قد استطاع الحصول على كيس سماد بالأجل – أي بالتقسيط – بسعر مضاعف، ورفع أبي – بمساعدة أمي– كيس السماد ووضعناه على ظهر الجحش ثم رفعنـــي أبـــي فركبت فوق كيس السماد، وبعدها قفز أبي خلفـــي، وانـــدفع الجحش – أعتقد أنه كان جحشـــة أنثـــى – فـــي الطريـــق الزراعي، لكنني طلبت من أبي أن يسمح لـــي باصـــطحاب الورق، وكان مصطلح الورق يعني بقايا مجـــلات أو كتـــب أهيم فيها قراءة عندما يتركني أبي على رأس أي حقل، وأبي نفسه كان طيبًا (ليس أنه أبي) حافظًا للسيرة الهلالية بما فيها الريادة، وقد أعفى من الخدمة العسكرية لأنه كان – أيامهـــا– حافظًا للقرآن الكريم، كما أنه كان ذا خط جميل لايبارى، ولا أعرف حتى الآن لماذا لم يعمل في مجال التعليم الذي جـــذب إليه كثيرين أقل جودة في تحسين خطوطهم من أبـــي، هـــذا الذي كان صاحب مزاج يزن في صـــوت خفـــيض ليغنـــي بالمواويل الناعمة، وكان هذا الفلاح ولوعًا بالنسوان، وسيرته

في هذا الخصوص لم تكن نقية، آخر امرأة كان يتسلل إليها زوجة شريك له في غيط قريب، يترك زوجها موحولا في طين الري ويستأذنه ليعود للقرية في أمر مهم ، وعندما مات أبي كان ثمة امرأتان غريبتان من العزب الهاربة المتناثرة بعيدًا عن بلدنا، فسألتهما أمي – في الجنازة الباكية– إن كانتا فلانة، وفلانة؟ وكان وجه أمي غاضبًا ليس بسبب رحيل أبي، بل بسب هاتين الفاجرتين، ولا أضيف كثيرًا أن عددا كبيرا من رجال قريتنا كانوا يمارسون هذه المسائل، وأكثرها شيوعًا كان التسلل – في أي وقت – إلى بيوت الغوازي الواقفة في كبرياء وسط القرية ذاتها، لكن عمي (محمد) كان أكثر الرجال تجبرًا، فاجرًا، حيث ظهرت ولائد في عائلات متفرقة من البلد وقد شملها اللون الأسود الغطيس والجمجمة الضخمة والعيون الكليلة، صفات عمي التي لا تتوفر بالمرة في آباء وأمهات الولائد، وخصوصا بعد أن كبروا وظهرت الملامح واضحة، مات عمي محمد في المستشفى قعيدًا وفي يديه الكلبشات.

أبي الطيب عاد بنا سريعًا إلى البيت لأصحب الأوراق؛ مجلات قديمة للكواكب والرسالة الجديدة (يوسف السباعي

وليس الزيات) وكانت تعج بالأدب الوجودي والقصائد المحطمة العمود، والجيل (التي كان يرأس تحريرها أنيس منصور وتعج بالوجودية) وبعض صفحات من كتاب مسامرات الجيب يقوم فيها أرسين لوبين بمداهمة حرامي اقتنص بعض الحلي الذهبية من راكبة مترو أنفاق، وعدنا إلى الطريق حيث ظلت الحمارة تسعى بنا في اتجاه الغرب، وكلما خطت قناة مائية أو صعدت بروزًا في الطريق تشبثت بأبي، الذي كان منهمكا في التعاطف مع أحد أبناء أخت أبو زيد الهلالي في مواجهة دياب بن غانم، والجو هادئ رقيق حتى وصلنا بحر يوسف.

أوسع الترع التي رأيتها خلال تلك العصور كان بحر يوسف، والذي كنا ومازلنا – نعبره على ظهر مركب (ثم بعد ذلك لنش) من شاطئ لشاطئ، ذلك لأن الكوبري الموصل بين الضفتين بعيد جدًا نحو الجنوب، ولذا، وما كدنا نصل إلى وسط بحر يوسف حتى فوجئت –أنا – بأن السدة الشتوية قد خفضت عمق المياه مما يحول بين المركب وطفوها، كانت المركب مركونة في الوحل القريب من الشاطئ، والناس قد خلعوا ملابسهم ورفعوها بأذرعهم لأعلى، وأخذوا

يخوضون في المياه الضحلة متحسسين العمق بأقدامهم حتى لا يفاجأوا بمنطقة ذات غور أسفل المياه الضحلة، وكان المشهد رائعا وقويًا: كثيرون متناثرون بين خلجان الماء يتلمسون أسراب السمك الصغير، ويطاردون أفرادًا من بط (الشرشير) الذي ما يكاد يلامس الماء الساخن عند الطمي – حتي يصبح كالغراب، كما أن عددًا من نساء عزبة شلقامي تدرج إلى بطن الماء ساعيًا لغسيل الملابس، أو حزم الفجل، أو البصل، أو الرجلة، ومن بعيد يظهر كوبري المعاهدة الاستراتيجي الذي يعد نقطة مرور رئيسية للسيارات القادمة من مدن الشمال – وبالذات العاصمة – إلي مدن الجنوب حتى أسيوط، فلم يكن هذا الطريق البري مسفلتًا وممهدًا – بعد أسيوط إلى أسوان – بما يسمح بالمرونة في استخدامه.

ونظر أبي إلى المركب الجانحة وسط نباتات وحل الشاطئ، ثم نظر إلى كوبري المعاهدة البعيدة الواضح المعالم، ثم التفت إلى خلفه وقال: أنا عارف إنك عاوز تعدي يا كعلون، ولا أعرف معنى كلعون حتى اليوم، لكنها مصطلحات تربط بين الناس في احتكاكات الأمور التي تحير.

وكان أنيس منصور قد احتضن كير كجورد والبير كامي وأرسين لوبين تحت تعريشة أعناب صلاح عبد الصبور التي تسلقت الجدران دون أعمدة، وظل نسيم الشتاء البارد يضاغط عبد الرحمن بدوي اللائذ في صدر خاو من الوجود تحت حنجرة شوبنهاور مباشرة، فقلت لأبي: أخلع هدومي؟ فقفز أبي من فوق شوال الكيماوي إلى الأرض وأمرني أن أتشبث بالجوال وأتشبث على الجحشة.

وبدأ أبي يسحب الحمارة في حرص ليشدها للنزول خلفه في الطرق المطروقة في الشاطئ نحو مياه وأوحال الترعة، وناداه واحد من معارفه أن يذهب إلى الكوبري أفضل فلم يهتم أبي بالرد عليه، وظل يشد الحمارة من مقودها فتكاد رأسها تنخلع من الرقبة العريضة محاولة المقاومة، بعدها استجابت الحمارة لتسير الهوينى وراء أبي الذي لم يلبث أن خلع ملابسه كلها – ما عدا اللباس – وألقاها أبي فقمت بلف الحركة الفلسفية الحديثة في الجلباب والصديري والفانلة البنية، وكان الحرص من الاثنين واضحًا: أبي في المقدمة، والحمارة المشدودة خلفه، وكل خطوة اضطرب، حتى استوى الركب على الماء، كنت قد أيقنت أن

أبي– في هذه اللحظة– يشبه يوسف النجار الذي سحب الحمارة الشهيرة وفوقها مريم العذراء وسيدنا اليسوع عيسى، والذي كان طفلا (الآن في عام ١٩٩٧ – اشتريت فيلم فيديو عبد المسيح مدبلجًا باللغة العربية – اللهجة المصرية – ومعمولا في الخارج– ولم يرد فيه شيء عن رحلة سيدنا عيسى ابن مريم من الناصرة في فلسطين إلى دير المحرق في القوصية إلى جبل مريم القريب من أسيوط، ثم عودتها، وكانت الرحلة بسبب بحث اليهود عن هذا الطفل النبوي، لكن ركب حمارة يوسف النجار مع الطفل عيسى وأمه مريم لم يواجه – بالقطع – مجرى مائيًا يجبر على اختراقه مثل هذا الذي نواجهه الآن.

بحر يوسف عريض في هذه المنطقة، وله ضحاياه من الغرقى، لكن أبي كان قد صمم ، وبدأ يتحسس الماء بقدميه، والحمارة – تحمل السماد ثم أنا فوق السماد – تستجيب، وتسير خلفه، وفي كل بقعة ماء يقفان لتحسس العمق، وأنا واجف القلب، أخشى أن أقع في الماء الموحل فأضيع شهيدًا مما يفسر موتي بأن السماء قد لبت دعوة الشيخ محمد فوزي علي منبر جامع الأمير سنان.

بعد إرهاق مقلق مرعب، اقتربنا، مـــن الشـــط الآخـــر الغربي، وكان الناس واقفين مبسوطين من هـــذه المغـــامرة، والتي، وقبل الشاطئ بأقل من أربع خطوات، لم أجـــد أبـــي، نعم، لم أجد أبي، رأيت فقط رأسه وقد انفك إلى لبدة وتلفيحة، وقبل أن أصرخ كانت الحمارة المخلصة قد غاصـــت خلـــف أبي، وتضاحك الناس فوق الشاطئ ،وقفـــز شـــاب ورجـــل، وعادت الحمارة مكافحة بسيقانها لتصعد خطوة الوحل التالية، وعاد أبي يعوم في الماء الموحل مستخدمًا ذراعيه، وطفـــت لفافه ملابس أبي، وقد انفكت تاركة البيـــر كـــامي وســـارتر وبرتراند رسل وأنيس منصور وأرسين لوبين مجـــرد أوراق ما تكاد تبتل حتى تستريح على وجه الماء، وتلقفني أبي مـــن فوق الحمارة على كتفه، وتحرك الخطوة الباقية إلى الشاطئ ،حيث وقفت الحمارة تقطر ماء ثقيلاً، وحيـــث جلـــس أبـــي عاريًا يمعن في حفرة الماء، وحيث جلست بجواره، ليهمس:

– أجيب منين كيس كيمـــاوي تـــاني.. وظللنـــا كلنـــا صامتين، أو جانحين، أيهما أنسب..

حكمة الأرض المحتلة

خذ الحكمة من أفواه المجانين، وبعد أن أخذتها لم أعرف ماذا أفعل بها، وظللت أحملها – هذه الحكمة – في صدري حتى كادت الشمس تجحفها، فتوجهت ذات ظهيرة إلى مكتب الدكتور فتحي سرور رئيس مجلس الشعب الجميل، والجميل صفة لأحدهما دون الثاني، وطلبت منه استفسارًا عما يعنيه من حكمة بتعليقه على أحكام محكمة النقض الصادرة في حق صحة عضوية عدد وافر من أعضاء المجلس الموقر، بأن نظرة محكمة النقض قانونية أما المجلس فإن نظرته سياسية؟؟ فرفض التعليق، كما صمم ألا يسمعني أردد – في صوت جميل – ثلاثة أبيات لا يليق لنا أن نفرشها على هذه الصفحة، وبالتالي ذهبت إلى المجلس الأعلى للثقافة في الزمالك، فأحسست بالحكمة تتورد وتتألق وتضغط على كتفي كما يضغط الطفل الوحيد على كتف أبيه بعد طول انتظار الإنجاب، فاستقبلني الأمين العام الدكتور جابر عصفور في حب وود، سألته سؤالا ورجوته ألا يجيب عنه، والمقصود بالسؤال هو تخفيف أحمال الحكمة، هل منحتم الدكتورين عاطف صدقي وفتحي سرور جائزتي

الدولة التقديريتين (في العام الماضي) من وجهة نظر سياسية أم قانونية؟ فإذا كان الأمر كما صرح الدكتور فتحي سرور نفسه. فإن النتيجة سوف تنسحب من العصر الديمقراطي إلى العصر الناصري الذي قامت أعماله وأفعاله وقوانينه ومشروعاته على وجهة النظر السياسية، دون اهتمام بأي زاوية أخرى والتي سوف تعيد للحكمة القائمة اضطرابها، وتجعل كثيرًا من التصرفات الحديثة تتراجع للخلف باحثة عن إجابة في غير عصر الديمقراطية، حينئذ أحسست بأن هذه الحكمة – التي أرفعها على كتفي – سوف تؤدي بي في المهالك، مالي أنا وفتحي وسرور وجابر عصفور، وأليس من المناسب توجيه مثل هذه الاستفسارات لواحد مثل عبد الغفور البرعي الذي قام بدوره نور الشريف، والذي كان أكبر إنجاز قام به هو الزواج من بائعة الكشري عبلة كامل، في مسلسل"أنا لا أعيش في جلباب أبي" أو شيء من هذا القبيل؟.

قلت لنفسي – وقد ناءت أكتافي بالحكمة – أحسن حل لكثير من المشاكل ألا يوجد أي حل، ومن ثم فقد بحثت عن المجنون صاحب الحكمة كي أردها إليه، فهمست لي القوي

الوطنية الضاحكة: احتفظ بها لنفسك. لكنني قررت أن أزرعها وأبيع محصولها لأوروبا، قالوا إن أوروبا تستورد حكمتها الآن من اليابان – وفي حدود ضيقة لأن الكل بلد حكمته الخاصة، مما يعني أن أحسن موقع لتسويق هذه الحكمة التي أصبحت جافة باردة عتيقة: شبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا، وكان واضحًا أن طريقي لتنشيط تصدير الحكمة ليس سهلاً، فقررت أن أتريث، وأن أبقى قليلاً داخل هذا الوطن الجميل.. والحكيم أيضًا..

والأمر – كما اتضح لي فيما بعد – أن نمور آسيا وأفيالهم ونظم حكمها لا تزال تشك في هذا النوع من الحكمة التي أمتلكها، كما أن قانون الاستيراد والتصدير يشترط – في الحكمة بالتراث – أن يكون لك شريك من عندهم، فاضطررت أن ابحث عن عالم آخر، ولما كنت لا أحب إفريقيا، وأخاف من رطوبتها العالية، وحرارتها العالية، وجبالها العالية، فقد استبعدتها – هذه القارة السوداء – من مجال تسويق حكمتي أيضًا، لكن تاجرًا جوالاً يستخدم طائرة ليست من طراز حديث في تجواله، نصحني أن أهدى بعضًا من حكمتي لحكومة بوروندي، التي انقسم شعبها إلى قبيلتين

متناحرتين، وأثناء كتابة هذه السطور هرب رئيسها ولجأ إلى السفارة الأمريكية، ربما لأن السفارة الأمريكية هي أوسع السفارات وبها حديقة – دون أن يكون في اللجوء أمر آخر – كما اكتشفت أن الطريق إلى بوروندي يمر من جنوب السودان، وجنوب السودان بالذات كارثة لطيفة تتصل أسبابها بأمريكا أيضًا، وبيني وبين أمريكا مشكلة قديمة ومزمنة لا أود إثارتها الآن، كما أن بعض أصدقائي رأى أن بوروندي أو جنوب السودان أو ليبيا أو الصومال مجال طيب لنمو الحكمة الأمريكية، فلماذا أذهب إلى هناك بحكمتي؟ ولا سيما أن المواصفات التي تطالب بها هذه الدول أية حكمة مهداة إليها أن تكون مجانية، أو تبدو وكأنها مجانية، وأن تغلف بأنواع من التصريحات القصديرية القابلة للانصهار السريع. ولم يكن ذلك – أو تلك المواصفات متاحة لحكمتي، وليس من الشيم الكريمة أن أتحلى بها، بالإضافة إلى أني عرفت من مصدر موثوق به أن الصومال – مثلا – بلد عربي له مقعد في جامعة الدول العربية، وأن انخفاض عروبتها الآن راجع في المقام الأول لانتشار هذا النوع من الحكمة بالذات، والذي تعودنا استعارته من أفواه المجانين، ورأيت أن أستشير ذوى

الدراية لا ذوى الثقة، فاكتشفت أن الجميع يستورد حكمته من العالم الغربي، أقوال في الأدب، وفي الاقتصاد، وفي العلاقات الجنسية، وفي تقاليد الاستقبال، وفي آليات فرش الموكيت، وفي حفظ الصداقة واللحوم والأسماك وأقوال السلف، وفي ابتسامات العداء، وفي إعلان العصيان، وفي الشعر الحديث، وفي نوع ورق الصحف، وفي رعاية الكلاب، وفي صيد الثعالب، وفي ارتداء القفازات، وفي قيادة الأوركسترا، وفي ميكانيزم الانقلابات، وفي فن الاحتواء الشتوي، والافتراش الصيفي، وفي استصدار القرارات ذات الشبهة الدولية، وفي قواعد تناول المشروبات، وفي طرق تسريب الزوجات، وفي إحداث التوازنات المصطنعة. وفي قيام الاحتفاليات، ثم في فن الإعلان.

ذلك أن واحدًا من أخطر الذين استشرتهم في حياتي نبهني إلى أهمية الإعلان المبكر لاستثارة الجماهير كي يطلبوا الحكمة من عندي، فإذا لم يكن متاحًا الإعلان المصور والمكتوب على الجدران وأعمدة الكهرباء وبطن السحب ووجه القمر وشاشات التليفزيون فيكفي انتشار الخبر – بصفة مبدئية– في مجالس النساء وعلى المصاطب وجلسات انتظار

المسلسلات التليفزيونية، وضرب لي مثلا: موضـــوع زيــت حب البركة الذي أشاع تاجر ذكي أنه يقوى الأعصاب، جميع أنواع الأعصاب، سواء ما كان منهــا معروفًــا أو خاضــعًا للرقابة الأخلاقية، فإذا وضعت ملعقة صغيرة من زيت حبــة البركة على فنجان عسل أبيض، فسوف يشعل هــذا الخلــيط النيران في الأجساد البليدة الباردة، حتى ما يخضع منها لذلك الحلال البليد في العلاقات الزوجية الأليفة، وبناء على هــذه الأقوال والنصائح المتسربة المتسللة، فوجئ الناس بزيت حبة البركة يختفي، كان هــذا الزيــت متــوفرًا لــدى البقــالين والعطارين وقابلات دعك سرة الوليــد الجديــد، وبقــروش زهيدة، لكن الذي كان وراء الإشــاعة الجارفــة والأقاويــل الهامسة المشتعلة، هو نفسه الذي قام بتجريد أسواق القــاهرة منه، ثم لم يلبث أطباء وصيادلة وعــارفون ومجربــون أن ظهروا في المواقــع المــؤثرة – بالــذات فــي الصــحف والتليفزيون – وقد ارتدوا الحكمة المناسبة والرصينة للإشادة بزيت حبة البركة، والفرق بين فوائد حبة البركــة صــباحًا ومساء، وفي منتصف الليل.

وأي حكمة – مهما كانت مفيدة ومعاصرة – لن يتسنى لها أن تجد سوقًا مناسبة دون إدراك ودراسة لموضوع زيت حبة البركة، ولذا فقد قررت أن أعتمد على نفسي ملقيًا برأي المستشارين جانبًا، ذلك أن هؤلاء يصلحون لنصح المعاقين، أما أنا – والحمد لله، و اللهم لا حسد – فـإنني قـادر علـى حماية حكمتي وإجادة تسـويقها، وأن أكـون عصـاميًا دون الاهتمام بآراء المستشارين، فمن الملاحظ أن المجانين الذين نأخذ من أفواههم الحكمة يعتمدون دائمًا على أنفسـهم، فهـل رأيت قائدًا أو زعيمًا أو شيخ منصر أو مجنونًا يأخذ الحكمة من أحد؟ فما بالك والاستشارة هي حكمـة أيضـا واسـعة ومستطيلة؟

أخذت أنفاسي ولجأت إلى حجرتي ومعي كامل الحكمة كي أفكر بمعزل عن أية مؤثرات، ولاحظـت – فـي هـذه العزلة – أن كثيرًا من الأشـياء (فـي الأحقـاب الأخيـرة) كالبضائع والعطور والحشيش والمطبوعات والآراء الهدامـة والأفيون والنصائح والملابس والحكم وأدوات زينة النسـاء، كل ذلك، تروج تجارته في مناطق الحدود، إذ إن الأسـلاك الشائكة تصنع نوعًا من إثارة الرغبات الكامنة فـي الفـؤاد

للحصول على مثل هذه الأشــياء الصــعبة التــي اخترقــت الأسلاك الشائكة، لقد كنت في من أيــام فــي مدينــة رفــح الفلسطينية المقسمة أصلاً بين إسرائيل ومصر، والتي رفعت مصر العلم الفلسطيني على الجزء الواقع من المدينة فيها بعد توقيع اتفاق غزة– أريحا، ولاحظــت أن العيــال والصــبايا الصغيرات يقمن بافتراش بضائع قريبًا من الأسلاك الشــائكة التي بين مصر وإسرائيل، حنة وأجهزة كهربائيــة وزيــوت طبية (هل هي حبة البركة مرة أخرى؟) وأعشاب، ورأيــت العابرين من السياح، وغير السياح يقفون طويلاً يقلبون فــي هذه المعروضات الأرضية، وكلها معروضات يمكن لــك أن تمد يدك إلى أي ركن في بلادنا وسوف تجدها، لكن الحكمة الكامنة تدفعك دفعًا لاعتناق الرغبة في الاستحواذ على مثــل هذه الأشياء المهربة، ومن قال إنها مهربــة؟ ألا يجــوز أن تكون مشتراة من أقرب مكان ليس به أســلاك شــائكة؟؟ إن طريقتي – هذه – في التفكير تعوق تدفق حكمتي، فطردتهــا بعيدًا، ولذا فقد أمعنت النظر وركزت التفكير، حيث وصــلت بالفعل إلى اقتناعي بهذا الحل، وهو خلاصة حكمتي الأثيرة.

أوروبا فتحت الحدود بين جميع دولها فلم تعد قابلة للحكمة، والعالم العربي أولى باستثمار حكمتي بدلا من أي منطقة أخرى، وهكذا قررت أن أحمل ما أثمرته الحدود الشائكة كي أصنع حقولا أزرع فيها حكمتي، حيث أبدأ فأتاجر فيها، بأن أعرضها – كبضاعة مهربة – قريبًا من الأسلاك الشائكة بين مصر والسودان وبين اليمن والسعودية، وبين الإمارات والبحرين والدوحة والسعودية، وبين العراق والسعودية (وفي المناطق الأخيرة سوف تزدهر الحكمة حتى تصبح غابات) وبين سوريا والأردن والعراق، وبين لبنان والأردن، وبين ليبيا ومصر، دعك من البوابات المفتوحة سياسيًا لأمور تخضع لها حكمة السياسة لا القانون وبين الجزائر والمغرب، وبين المغرب وموريتانيا، آلاف من الكيلومترات الشائكة التي نحاصر بها كل أقطارنا، (في حين لا يوجد متر واحد من الأسلاك الشائكة في كل أوروبا، وهي مساحات شائكة تحتاج إلى سنوات وسنوات من العمر المديد الذي أبيع حول أشواكه حكمتي الغالية المعتقة – والحديثة أيضًا لأصبح من أهم مليونيرات الشرق العربي.

وبعد

فقد توجهت إلى أولى مناطق الحدود الشائكة حيث زرعت قيراطين من الحكمة تمهيدًا لتسويقها، فوجدت الأرض مقفرة، وما كدت أصرخ محتجًا حتى همس لي صديق قضى فترة وراء أسلاك المصحات النفسية: لقد زرعت الحكمة في أرض مليئة بالملح والصبار، والملح – بالذات – ضد نمو الحكمة، وتناول صديقي حكمة صغيرة وشمها وقدمها لي فأرعبني أنها حكمه جافة أيضًا فاقدة الرائحة، ولا سيما أن الحكمة الحقيقية بالذات حكمة فاسدة لا يقتنيها سوى الأحمق، وبدأ لعابي يسيل على صدري، وأنا أنادي على ثمار الحكمة متجولاً بين جميع المؤسسات سواء أكان فيها مجلس الشعب أو المجلس الأعلى للثقافة، أو الأمم المتحدة، أكثر المؤسسات إدراكًا لحكمتي بالذات، والتي وقعت بين شقي الرحى: السياسي والقانوني، وصاحبها المجنون الذي ترك الحكمة لمن هو أكثر جنونًا – أو بلاهة – ليزرعها في الأرض المالحة.

مسك السيرة

هذا الاهتمام العاصف الذي استقبلت به جماهيرنا كتاب مجدي العمروسي عن محمد عبد الوهاب، والــذي يوازيــه اهتمام مماثل – أكثر اتساعًا – بالكتاب الــذي صــدر فــي أوروبا عن حياة أينشتين من ثلاث ســنوات – يــدفعنا إلــى إدراك المستجدات في هذا العصر. والــذي يضــمر الســوء والشك والارتياب لعلم التاريخ، وينظر بنصف عين إلى علم جديد يأتي موازيًا لما طرأ في الجينات الوراثية من هندســة، إنه علم (مسك السيرة).

ذلك أن الناس– شرقًا وغربًا– وطوال أحقاب التــاريخ الماضي كله، أدمنوا حرمان الأعلام مــن علمــاء وأدبــاء وفنانين من الحياة، معتقدين أن متعة واحــد مثــل أينشــتين تتوقف عند حدود اكتشافه البعد الرابع في قــوانين الوجــود المتمثل في الزمن بعد الطــول والعــرض والارتفــاع، وأن فرحة أينشتين الوحيدة كانت في حصوله على جائزة نوبــل، أو في تطبيق نظريته الخاصــة بالطاقــة المســاوية للكتلــة المضروبة في مربع سرعة الضوء، لتكون أساس القنبلتــين الذريتين: واحدة أودت بمدينة هيروشيما، والثانيــة دمــرت

مدينة نجازاكي، أو أن البعض يعتقد أن سعادة محمد عبد الوهاب الوحيدة، هي وصوله إلى المفتاح الموسيقي الذي اعتمد عليه في تلحين الجندول أو الحبيب المجهول أو أنت عمري، كما أن متعة هذا الفنان – تصورناها – قد وصلت إلى ذروتها حين تزوج هذا الزواج الفاخر من نهلة القدسي.

إن هذا افتراء على هذه الصفوة اللامعة من البشر..

فأينشتين، العالم الذي قلب مفاهيم علوم الدنيا بنظرياته، من حقه أن يتشاجر مع زوجته بين كل نظرية وأخرى. ثم بين كل تحليل رياضي وتدليل فلسفي عليه أن يلقي في وجهها بصحن طبيخ بايت أصابته بوادر الحموضة، وبينما يكون أينشتين غارقًا في عمق الفرق بين الكتلة والحجم في زمن محدد، يصبح ذا أهمية قصوى لديه أن يخترق دهليز البيت طفل ابنته (القادمة من نجوع سانت لويس) وقد تشبث بذلك الإناء المخصص للمسائل التي لا يستطيع الأطفال أداءها في الحمام، وأن على أينشتين أن يستقبل الطفل هائصا وفرحا ومرددًا شيئا من أغاريد العيال وماما زمانها جاية، ويأخذه في أحضانه ليلعن الدنيا والبيت والطفل وأم الطفل بسبب هذه الحمم البركانية الباردة التي اندفعت من مؤخرة

الولد على ملابس هذا العالم الجليل.. لقد ألقاه أرضًا فـأنفجر الولد بكاء..

ولا أعتقد أن يد محمد عبد الوهاب أو فريد الأطرش أو محمد فوزي تلك المدربة على العزف الرائع والدقيق على آلة العود، لم تتحرك ذات مرة، ولم تلتف في الهواء الصارخ، ولم تنزل كالهاوية على خد زوجة أو حبيبة في موقف يمكننا تصور عناصره الحرجة، ولا يمكن أن نحرم واحدًا منهم – ومهم أينشتين – أن يمضي وقتًا بين شدو الألحان أو التجربة العلمية أو تأمل الكون – مع الوسطاء الساعين في الخير المكلفين بإصلاح الأمر بينه وبين تلك التي صفعها منذ ثلاثة سطور. وإحضارها من بيت أبيها، وعليه بغد أن تقوم بالرد على ورقة الاستفسار العلمي الواردة إليه من جامعة هارفارد. أو المراجعة النهائية لنوتة وطني حبيبي وطني الأكبر. أني يقوم إلى ابنته فيأخذها قلمين على وجهها الغض لأنها تقرأ الأدب الرخيص أو تسمع مايكل جاكسون أو تهيم حبًا في أحمد عدوية، كما لا يمكن لنا أن ننقذ أي واحد من هؤلاء النجوم من سماع الحوار التمهيدي الرقيق المعروف، والذي بموجبه سوف تطلب مدام أينشتين

أو مدام نهلة القدسي زيادة مصروف البيت، مع التواء شفتها السفلي ضيقًا وتبرمًا من هذه الحياة الغالية.

وحتى المساجلات البالغة العلمية أو ذات الذروة الفنية التي يقوم بها أينشتين ومحمد عبد الوهاب مع أصدقائهما المقربين، والتي يستمتعان فيها باسترخاء إنساني ضروري، وهما يمسكان سيرة زملائهما: علماء تفتيت الذرة أو أصدقاء سيد درويش وصالح عبد الحي، وانهيار قدراتهم الخاصة مع نسائهم ولجوئهم إلى البرشام الخاص، بذلك، تود الجماهير الغارقة تاريخيا أن تحرمهما منها، ليتحول أي واحد منهما – كما تتصور الجماهير – إلى رجل سامق شامخ يرتدي ملابسه الرسمية الكاملة التي يظهر بها في المؤتمرات والحفلات، ويتحرك بها. ويبتسم خلالها. ثم يتناول طعامه في ابتسام راق هادئ.

انظر إلى أينشتين وهو يرفع طبق الشوربة برحيق البقدونس وفتافيت كبدة البط مع الفلفل الأسود من الخل. يرفع أينشتين هذا الطبق الدافئ إلى فمه لأن الملعقة لم تسعفه في إشباع غليله منها. وانظر إلى عدم إتقانه احتساء هذا الحساء بالطبق، فيسيل على صدره ممتزجًا بموسيقى الدانوب

الأزرق التي كان يعشقها وعليك أيضا أن تنظر إلى احتمال أن يأخذ رشفة مبكرة من هذا الحساء، الذي يكون في هذا الوقت بالذات بالغ السخونة. فيترجرج وينسكب الطبق على صدره الأنيق، وحينئذ يصبح مناسبًا أن يلعن اليوم الذي أودى به في أحضان صانعة هذه الشوربة.

فإذا تركنا هذا العالم الجليل – أينشتين – بالشوربة أو بدونها، ليداعب قططه، وقد ارتدى جاكتة بيجاما مخالفة ومناقضة للون البنطلون (أنا لا أملك قططًا وأرتدي جلبابًا واسعا على اللحم)، وبين وقت وآخر بهرش تحت إبطه أو في رقبته أو في مقدمة رأسه، وهذا لا يحول بينه وبين الاستغراق في كيفية تدمير قوانين أرشميدس ونيوتن. حيث تمتد يده – في الوقت المناسب تمامًا – إلى ركبته ليهرش هرشًا جميلا، إذا تركنا هذا العالم الجليل في عالمه الشادي كعصفور يحط في عش الخضرة والنسيم. يصبح لزاما علينا– أن ننظر في سعادة غامرة، أن نتلمس الطريقة إلى الحياة اليومية العادية لنجوم السياسة والعلم والفن والاقتصاد والتليفزيون والأدب، وعلى الجماهير أن تخفي انزعاجها الرومانسي الدافق، فقد كنت أعمل ذات كفاح في معمل

تحميض أفلام سينمائية في أوائل الستينيات. وكان كثير من نجوم الفن يهوي التصوير السينمائي بأفلام الريفرسال. وهو نوع من الأفلام التي يتم تحميضها وعرضها مباشرة دون أن يكون لها نيجاتيف (وقد قضى على هذا النوع من الأفلام ظهور أفلام الفيديو فيما بعد)..

ومن بين هواة التصوير نجمة سينمائية اعتزلت التمثيل من سنوات، وكانت أيامها في قمة التفوق والشهرة، وكانت قد اعتادت إحضار فيلم لهذا المعمل وقد صورت فيه ابنتها الوحيدة، والتي كانت تعشقها عشقا مذهلا، ولأني قروي فلاح من ريف أسيوط. مغرم بنجمات السينما المنطلقات في الأجواء الحالمة، فقد راعني أن نجمتي المحبوبة كانت تأتي إلى المعمل وقد ارتدت نوعًا من الشباشب المنزلية جدًا، والتي نراها غير مناسبة للخروج أو ركوب السيارة، هذا النوع من الشباشب المدعو (زنوبة)، حيث كانت النجمة المتألقة تعاني من سقوط فردة الشبشب من أطراف قدمها على الأرض حين نزولها من السيارة (الشيفروليه إمبالا)، ثم كانت تتبسط مع العاملين في المعمل وتضاحكهم في إنسانية عذبة تصل إلى المشاركة في المأكل والمشرب، أي تواضع

أرقي من ذلك؟ ثم حدث أن أحد أفلامها (الريفرسال) أصـــابه التلف نتيجة سوء التركيب في آلة التصوير أو سوء التصوير ذاته أو سوء التحميض أو سوء خامة الفـــيلم. أو أي ســـواء آخر، فإذ بهذه الفنانة الجميلة الوديعة البسيطة تتحول إلى بنت شوارع – من طراز رفيع – وقعت في خلاف مع بائع فجل، انفعال أحمق وألفاظ سوقية وحركات سينمائية لا تتناسب مع صورتها. ولا مع السيارة الفارهة التي تنتظرها. بل كـــادت تمسك مدير المعمل من ياقة معطفه المعملي، وأن تزنقه فـــي الحائط، وأن.. أنا أخذت إجازة عارضة في اليوم التالي كـــي أرتب في ذهني بعض الصور المضيئة القديمة.

كان واضحًا أن المشكلة ليست في نجمة السينما، بل في أفكارنا القروية التي نطل من خلالها ونتعامل بها – مثل بقية الشعوب – إلى عالم النجوم السامق الشامخ المتألق الـــذي لا يداهمه صرصار مفاجئ، انظر لمحمد حسنين هيكـــل أثنـــاء جلوسه الراقي في شرفه بيته الراقي يمعن في الوجود الممتد الراقي، باحثًا عن مقطع مؤثر ومثير لنهاية كتابه"المباحثـــات السرية بين العرب وإسرائيل"، وفي اللحظـــة التـــي كانـــت تهفهف من غروب الشمس الشاعري ســـاحبة خلفهـــا هـــذا

المقطع الأثير: (فلم يكن الأمر كامنًا في ضمير كل هؤلاء الساسة، بقدر ما كان نتاجًا طبيعيًا أفرزته طبيعة الأشياء وخصوصية الأحداث، حتى أن الفاصل بين ما يريده هؤلاء الساسة وما يستطيعون كان برزخًا واسعًا، ومنذ ذلك الوقت جرى تحت البرزخ ماء كثير)، وبينما كان الأستاذ هيكل يمسك بالمقطع حتى جاء طائر – أبو قردان فيما أزعم – وفعلها، حام مرتين على جلسة الأستاذ هيكل، ثم أسقطها من أعلى، أسقط ماذا؟ هذا الطائر اللعين، وامتدت أصابع المنظر السياسي الكبير لتتلمس كتفه ليكتشف ما أسقطه أبو قردان، حيث تلوثت أصابعه كما تلوث كم قميصه الصيفي الفاتح، وهرب المقطع الذي جري تحت برزخه ماء كثير، وظل ينادي محتدًا في أهل بيته طالبًا فوطة أو منديل ورق، ويده مفرودة الأصابع مرفوعة لأعلى في احتجاج سياسي لم يمارسه منذ أول سبتمبر ١٩٨١.

ولقد فكرت ذات عام أن أكتب كتابًا عن الحياة الشخصية لمحمد حسنين هيكل. أو يوسف إدريس، أو أم كلثوم. أو عبد الحكيم عامر (وهو بالذات يمتلك ما يملأ مجلدات من هذا النوع)، غير أني ظللت حائرا لعدم وصولي

للفرق بين التاريخ والواقع، أو علم السيرة - وعلـم مسـك السيرة.

علم السيرة هو الشائع والراسخ والمنتشر، تـراه فـي الكتب وعلى السبورات وعلى ظهور الكراسات وفي تعليمات طوابير الصباح المدرسية وأوامر الآباء والمدرسـين. علـم مهذب مؤدب يرى في السيرة الشخصية للأديب أو العالم أو المفكر. أو أي نجم محبوب. ما يحب لك أن تراه مـن علـم وأخلاق وتهذيب وتأديب ومثل عليا، وهو الجزء الذي يسمح به المحيط أن تراه من جبل الثلج، وتسمح بـه المجتمعـات وتقاليدها أن تشاهده من أخلاق وعادات أبطالها المتألقين في نور سموات الشهرة.

أما علم مسك السيرة - الذي ظهر في السنوات القليلـة الماضية من العصر الحديث - فهو علـم هـادئ ومسـترخ وواقعي ولئيم أيضًا حيث بموجبه يتم فرش سـيرة هـؤلاء الأبطال والنجوم على المصاطب والأرائك بطريقة ذكية لهـا خبثها النابع من صدقها، وهو علم لم يستقر بعد ولم يضـغط بشكل رسمي على مجتمعاتنا، الشرقية بالذات، إلا أننا - في الحقيقة - نمارسه بكل تخصصاته بعيدًا عن الكتب والأفلام،

وحتى في السطور المستترة في الصحف التي تخشى أن تقام ضدها دعاوى التعويض فتقوم بحذف السماء.

أما في أوروبا – ومعها أمريكا بالطبع – فلم يعودوا يندهشون ولا يفتحون أفواههم فزعًا بعد أن مارسوا علم مسك السيرة حيث أصبح منتشرًا عندهم، كعلوم التشريح والطب الشرعي وسرقة البنوك عن طريق حفر السراديب، حيث ظهرت الصياغات الواقعية لحياة البارزين من أبطالهم قديمًا وحديثًا، صياغات من واقع حياتهم. ومن استنتاجات وتحليلات واضعي ومحققي (مسك السيرة). وليست هي الصياغة الرسمية الشائعة عن حياتهم والبارزة فيها. وبناء على هذا العلم – مسك السيرة – كتبوا عن بودلير وشكسبير وديكنز وبلزاك وموباسان وتشرشل وكنيدي ودى جول وموسولينى وشارلي شابلن وجريتا جاربو وماكس فرش ودورينمات ومورافيا. ونوبل نفسه صاحب الجائزة الشهيرة، كتبوا عنه ما لا يمكن لك تصوره أو يخطر على بالك، حيث لا قيد على سرد الحقائق إلا قيمة الحقائق ذاتها، فالعالم الذي يصوغ نظرية ارتباط الكون ويكتسح بها حقول العلوم قديمها وحديثها، يمكنه بنجاح موثوق به أن يسرق بائعة بصل في

عدة قروش، وهو القادر على الدخول في مشاجرة مع بـــائع جيلاتي، وهو الذي قد يقوده مصيره إلى المحكمة لأنه بـــدد أثاث الزوجية، وامتنع عن الإنفاق على عياله (دون اهتمـــام بأن في مدخل جمجمته براءة شهادة جائزة نوبل الموقعة من ملك السويد شخصيًا)، وإذا فتحت دورة المياه فقد تجد الطاقة ملقاة دون أن تساوي الكتلة في مربع سرعة الضوء.

وعندما ندرك أهمية علم مسك الســيرة، ســوف نجــد كثيرين يتخصصون فيه. وسوف يصبح لذيذًا وممتعًا حينذاك أن تقرأ من جديد عن حياة عباس محمود العقــاد وأم كلثــوم وطه حسين والمازني وصلاح عبد الصبور وماري منيــب وشكري القوتلي وبورقيبة وشادية والخاميني وعيــد الكــريم قاسم والمتنبي وعنترة بن شداد. ولا يصبح شــيئًا شــاذًا أن نشرح لك الطريقة التي ارتفعت بها ذراع كامــل زهيــري -غاضبًا ومحتدًا – لتنزل فوق خد ناقد زلق اللسان، ســخيف وعدواني، لينهار أرضًا، وقد أخفينا اسم الناقد حتى يأتي ذلك اليوم الذي نبرز فيه ما نود من الحياة البلهاء المتخفيــة وراء أكبر جزء من جبل الثلج الذي ثلاثة أرباعه في الماء.

ولن نهتم بما ستمتلئ به المحاكم من قضايا، حيث يكون علم (مسك السيرة) قد استقر أكاديميًا كما هو مستقر واقعيًا.

يوم للثقافة التجريبية

كدت لا أنام حتى وصلت إلى الصباح، الحمام الساخن وفنجان القهوة ساعدا على إزالة التوتر، أعدت ترتيب أفكاري وأوراقي من جديد، اليوم هو الثاني في المؤتمر الذي شعاره: الثقافة في عالم متغير. والعالم المتغير الذي نقيم الثقافته مؤتمرا هو هذا الذي يرمي إلى الكشف عن القيم الثقافية الوطنية إزاء التيارات الأخرى الوافدة أو الكاسحة..

أمس كان الافتتاح في الفندق الفخيم المتألق ذي القاعة المتسعة، ارتديت ملابسي وعقلي سارح في مناقشات الأمس التي ظلت تدور حول ثقافتنا الراسخة التي لم تهزمها كل ثقافات الجيوش المحتلة خلال عشرين قرناً، وقال بعضهم: إن الله – جلا وعلا – يحفظ لنا ثقافتنا ما دمنا نتمسك بكتاب الله المحفوظ. ثم قال بعضهم: إن سطوة النماذج الغربي في السلوك والأزياء والأغاني والكتابة الأدبية والبحوث العلمية لا تجعلنا نطمئن إلى هذه المقولات السهلة. وقال بعضهم: إن انهيار عمود القصيدة العربية تحت مداهمة قصيدة (إليوت) ومن شابهه هو أول بوادر انهيار الشخصية العربية. ثم قال آخرون: إننا يجب أن نفرق بين استخدام الآلات والأدوات

والأساليب الوافدة، وبين خصوصية الحياة العربية. ثم قال واحد: انتبهوا، إسرائيل قادمة بثقافتها تحت شعار التطبيع. فقام أحدهم بالرد عليه بأن الثقافة الإسرائيلية متهافتة وضعيفة ولا يمكن أن تكون ذات أثر وسط زخم الثقافة العربية الممتدة في أحقاب التاريخ، وكثيرًا ما كان المتناقشون يبدلون الثقافة العربية بالإسلامية، ولم يعترض أحد، أو لم يقم أحد بتفنيد الفرق والتوافق بين الثقافتين، فقلت في نفسي: هذا راجع إلى عدم الاتفاق على المصطلحات المطروحة أصلاً ، وبدأت أرتب أوراقي حيث سأكون اليوم المحاضر التالي بعد الأستاذ الكبير سيد ياسين، في الجلسة التي سوف يرأسها لطفي الخولي، وكان موضوعي الأثير: (الثقافة بين الكتاب والحياة)، وهو العنوان الذي رأي فيه البعض منحى مدرسيًا واتجاها تلاميذيًا، وبالتالي فسوف تطرح أوراقي كل ما أود أن أنبه إليه من ضمور تجربة المثقف إزاء معرفته النظرية.

(١)

في مثل هذه الظروف – وأنا خارج من البيت – ألقيت نظرة متأنية على ملابسي، استبعدت ارتداء الجلباب الذي أحبه، ووضعت نفسي في البدلة الجديدة المناسبة مع رباط

عنق (كرافتة أحسن) يشع ببقع الضوء حول رقبتي وصدري، وتحت إبطي كانت أوراقي عن الثقافة بين الكتاب والحيـــاة، ولابد من استخدام التاكسي، وهو ما يليق بي أن افعله هـــذا الصباح، وتحركت من منطقة إقامتي كي أجــد بغيتـــي فـــي الشارع الكبير، هذا الذي وقفت على رصيفه متأنقًـــا، دمثًـــا، ورصينًا أيضًا، وظللت أشير إلى عربات الأجرة المتواليـــة، أحاول أن أظل رزينًا دون أن يدخلني غضب أو نرفزة تفسد جوانحي وترتيبات موضوعي في عقلي.

كان الوقت لا يزال مبكرًا، كما أن الفندق الفخيم لـــيس بعيدًا جدًا، كنت واقفًا ناحية قاعة ســـيد درويـــش بـــالهرم، والفندق في المنيل شمال كوبري الجامعة، ولولا فحيح عـــادم السيارات الكثيف لاستبعدت فكرة استخدام التاكسي وســـرت على قدمي، فعدت – حينئذ – للاطمئنـــان علـــى وجـــاهتي، وعلى الأوراق التي تحت إبطي، حينما – وفي لحظة قدرية– وجدته أمامي، ليس أمامي بالضبط، بل من الناحية الأخـــرى من عرض الشارع، وعندما أيقنت أنه هو، داهمني غضـــب جامح.

إنه الزميل القديم الذي استولي على نقودي، كنت أيامها في شركة (المقاولون العرب) موفدًا إلى العراق للعمل في مشروع قناة كركوك، وكان هو ملاحظًا بالشركة، والتقيت به في مطار بغداد، حيث كان في مأزق وهو في طريقه للسفر، إذ أنه لم يكن يملك المال المناسب ليسدد تكاليف نقل حقائبه بالطائرة، ووجدت الأمر مناسبًا أن أقرضه ما يريد، وأن أسلمه مبلغًا آخر كي يدفع المبلغين: القرض والأمانة، إلى أسرتي في الجيزة، لكن الزميل استولى على المبلغين، وظللنا نسعى في أثره– أنا وأقاربي – لكي نسترد المال دون جدوى، ثم لم ألبث أن وقعت في مشاكل مع الشركة كلها، وتوقف البحث عن هذا الملعون، الذي يقف – الآن – في الناحية ألأخرى من عرض الشارع.

حينئذ، وتحت تأثير الغضب الكاسح، كدت اخترق عرض الشارع كي أصل إليه دون اهتمام بالسيارات المسرعة، لكني وجدته – وفي تلقائية وهدوء – يعبر الشارع نحوي، لم يكن يراني.

وما كاد يصل إلى حيث أقف، حتى استقبلته بين أحضاني: عاوز فلوسي، عيب عليك، عاوز فلوسي أنا لا

أملك فلوسًا الآن، عاوز فلوسي، لن أتركك، وتجمع الخلق حولنا، لكني صممت حتى لو أدى الأمر إلى تهشيمه قطعًا وحمل جثته فوق رقبتي.

وأعدنا ترتيب أنفاسنا اللاهثة، وسرت بجواره وهو يقسم لي أنه سوف يحضر لي النقود بالليل، لن أتركك.

وظللنا نسير في تلك المناطق العشوائية خلف منطقة الطالبية، وظلت الأوراق الثقافية تحت إبطي تطالبني بحقها في الإسراع إلى المؤتمر، لكن رصيدنا من التهرب جعلني أتمسك أكثر.

وبعد أكثر من نصف ساعة، وقفنا أمام بيت معوج بني من كل عناصر البناء القروي: جريد النخيل والبوص والخشب، وأمام البيت تجمع جيرانه حولنا، ووجدوا في تصميمي ما جعلهم ينفضون أيديهم من التوفيق والمسالمة، حيث اقتحمت بيته لأجد في الباحة ثلاث أو أربع بقرات مختلفة الأحجام، فمددت يدي المدربة من قبل على التعامل مع البهائم – لاحظ أن أوراق مؤتمر الثقافة تحت إبطي – وفككت حبل بقرة صغيرة – عجلة – وسحبتها خارجًا.

(٢)

كان أمامي وقت يسمح بالتصرف السريع في العجلة – رجاء تسكين الجيم. وقررت أن أحصل على نقودي فقط وأعيد إلى صاحبها الباقي (هذا الملعون)، وكان الناس قد وقفوا أمام البيت مستسلمين وأنا اسحب العجلة خلفي، حيث سرت في الطريق الزراعي الخلفي غير المستوى، والعجلة تقاومني، ثم لم تلبث أن هدأت واستسلمت لقيادتي، وكانت الشمس قد ارتفعت في السماء فأصابني عرق الإجهاد والتوتر، غير أني بدأت أحس بسعادة قصوى وأنا أسحب العجلة خلفي مخترقًا الطرق إلى الجزار الذي نتعامل معه.

حينما رفع الجزار رأسه من وراء الذبيحة، ابتسم، ثم ضحك بصوت عال، قلت له أن يشترى هذه العجلة، وشرحت له أنها تخليص لحق ضائع من زمن، لم يمعن كثيرًا في العجلة لكنه أشار لي إن كنت جادًا في طلبي؟ أقسمت له بأنني جاد جدًا، ويهمني أن يشتريها – بأي سعر، ضحك أكثر وقال: المسألة ليست مسألة أسعار، ألا تعرف – وهو يضحك مستغربًا – أنه ممنوع على أي جزار ذبح الذبائح خارج المذبح؟ ألا تعرف أن الذبح خارج السلخانة

جناية تؤدي إلى السجن مع إغلاق الدكان والغرامة، نقلت ورق مؤتمر الثقافة من تحت إبطي اليمني إلى تحت إبطي اليسرى، قلت له: عذرا، قال: أرجوك اسحب بقرتك من هنا. وخبط بكفه المدربة على ظهر العجلة فتقافزت وكادت تقلت بالحبل وتجري بعيدًا.

ماذا أفعل؟ أذهب بها إلى المذبح!!، كيف؟، والمذبح بعيد جدًا، وعاونني معارف في إحضار سيارة نصف نقل خفيف، هذه السيارة التي قضينا وقتًا كي ندفع العجلة إلى ظهرها، وجلست بجوار السائق أحكى له عن الموضوع كي يطمئن، كأن الرجل ينظر إلى من فوق ومن تحت، يمعن في البدلة الجميلة وفي الكرافتة الساطعة وفي القميص المتألق، وكان جلوسي بجواره فرصة لن أعيد ترتيب أوراقي، الوقت يمضي والجلسة الأولى تكاد تنتهي الآن.

سألت السائق إن كنا سنأخذ وقتًا كبيرًا هناك، قال: لا أعرف وربنا يسهل، ليس اقل من ساعة، بين الجلسة الأولى والجلسة الثانية – التي هي جلستي – نصف ساعة راحة، مما يسمح لي بإنهاء هذا الذي أنا فيه.

(٣)

طول عمري أسمع عن منطقة (المنيب) جنوب الجيزة، لكنها المرة الأولى التي أدخلها، ازدحام وبقع مياه آسنة وباعة على الأرض، كميات وفيرة من الروائح النفاذة والمصـــارين والرعوس والفشة والكوارع والقلوب والكبدة، مناطق وبقـــع من الدم والصراخ والنداءات المتوالية، ظلت السيارة تكـــافح حتى وصلنا إلى المذبح، باب المذبح.

ثمة أفراد جلسوا على مقاعد حول مائدة صغيرة عليهـــا أوراق وتذاكر، رائحة أخرى أكثر نفـــاذًا خرجـــت كالتيـــار الساخن من بوابة المذبح، نظر الجميع إلينا في هدوء، تركت أوراق مؤتمر الثقافة في السيارة، وتوجهت إلى هؤلاء الذين في يدهم إنهاء المسألة، سوف أتخلص من هذه العجلة بـــالبيع أو الذبح، قال واحد منهم – بعد أن حاصرني بعيونه القـــذرة وشواربه غير المذبة: الأستاذ بيشتغل إيه؟ قلت له: موظف، سألني: موظف فين؟ قلت: في مجمع اللغة العربية، سألني – ولا يزال هادئا – ومجمع اللغة العربية ده بينيـــل إيـــه؟ لـــم تعجبني لهجته وإهانته لمكان عملي لكني دست على نفســـي كي لا أغضب فأنا في حاجة إليه، فتضاحكت معه وأنا أقضم

غيظي، قال: ألم تقرأ في المدارس أو في بتاع اللغة العربية أن دبح النتي – أي ذبح الإناث – ممنوع، ومن يقوم به يصبح مجرمًا؟ قلت في مسكنة واستعطاف ظاهر: خذها أنت بأي ثمن وتصرف، حينئذ وقف كل الجالسين، وصرخ أحدهم: يا أستاذ، اعمل معروف روح لحالك، إحنا مش ناقصين قلق، روح يا عم ربنا يسهل لك.

كان الناس قد تجمعوا حولنا، وظهرت تعليقات كثيرة ذات رائحة ساخرة وخبيثة، معظمها يشير إلى اللصوص الذين ملأوا البلاد، أولاد الحرام الذين لم يتركوا الأولاد الحلال شيئًا، وتحرك بعضهم – لكي يريح الباقين– فلابد من تسليمهم للشرطة.

وتحرك السائق بالسيارة وقسرًا، وصفت له بيت صاحب العجلة كي يتولى إعادتها إليه – وأنا واثق فيه – حتى أستطيع أن ألحق بالمؤتمر.

لكن السائق رفض، وطالبني بأجره لكي يذهب إلى شئونه الخاصة بعيدًا عن هذا اليوم الهباب، نظرت في وجهه، وتصورت هذه العجلة وقد وقفت أمام باب فندق المريديان،

في انتظاري، حتى أنتهي من عرض أفكاري حول الثقافة بين التجربة والنظرية، سألته أن يساعدني في البحث عن حل.

ووقفنا جانبا نحاول أن نبحث عن حل، والجلسة الثانيـــة لمؤتمر "الثقافة في عالم متغير" كانت قد بدأت بـــإعلان عـــن عدم حضوري دون اعتذار، وأن هذا لا يليق بروح العصـــر ولا بأخلاق المثقفين، وبين وقت وآخر كنت أحاول مراجعـــة هيئتي وملابسي وثقافتي وأوراقي والعجلة الواقفة في ســـيارة نصف نقل في انتظاري.

أنا والمايكل جاكسون

فليكن هذا بلاغًا واضح المقاصد ومعلن النيات، أقدمه إلى النائب العام الذي يرعى حسن السير والسلوك والالتزام بالقانون في الدنيا كلها، هذا البلاغ الذي أرجو من أي سفير عربي يجد نفسه قريبًا من مكتب النائب العام المشار إليه، أن يقدمه إليه، وأن يشرحه بطريقة لا خلل فيها.

فقد حاولت – خلال الأحقاب الأخيرة – أن أتفادي ما يجري المشاعر: الجمل الجربان، ونقاد الأدب، وخفراء المقابر، وعمال السلخانات، والكلاب السعرانة، والطاعون، ومايكل جاكسون..

صحيح أن حظ الأجيال الماضية أفضل وأحسن، ولأنهم واجهوا هذه الكوارث بقلب واثق، مع إيمان مطلق بالقدر، لكن ذلك يصلح في كل الكوارث، عدا مايكل جاكسون، فأنا أستطيع أنا أغير طريقي كي أتفادى الحيوانات العقورة أو المريضة، وإذا ما الأمور استحكمت – في نقاد الأدب مثلا – يمكنني أن أدس لهم السم في القهوة أو المصطلحات الأجنبية في مقالاتي، وليس صعبًا أن أقود الجمل الجربان بالتلويح بربطة حشيش كي يندفع إلى طريق آخر، أما خفراء المقابر

فمشكلتي معهم أنني ما أكاد أطل على مقبرة أبي في القرية، أو جدتي وخالي في القاهرة، حتى يقدموا من أماكن غامضة وسط الجبانة، كي يحاصروني ويجبروني على دفع أموال بدعوى قيامهم بتسهيل طريق المرحوم، أو طريقي، إلى الجنة، لكن عمال السلخانات – بما في ملابسهم وجلودهم من أدران النفايات والدماء – يصبح الجدل معهم يحتاج إلى مسافة، ربما هي المسافة التي يتعمد العازفون أن يحرصوا عليها بينهم وبين الجمهور، وهو ما لا يصلح مع الطاعون حيث نكتفي – عادة – بالتحصين اللازم بالحقن والتطعيم، أو يمكنني أن أهجر المنطقة كلها، كثيرون فعلوا ذلك قبلي..

لكن، ماذا أفعل في مايكل جاكسون؟!

إنني يا سيادتي أبيح للثقافات والفنون والعادات الأخرى مساحة من الحركة بيني وبينها، حيث لابد لها أن تعيش دون تصادم معي، مع أني في الحالات التي روضت فيها نفسي كي تتآلف مع هذه الثقافات – بكل ما يرتبط بها – وجدت في الوجدان نزوعًا إليها، وفي العقل فهمًا وإدراكًا لها، هكذا عرفت طريقا ضيقا وصعبا إلى الموسيقى الكلاسيك وأصوات الأوبرا، بل إني أيضا لم أنزعج أو أرفض فرانك

سناترا، أو حتى الإيقاعات الصاخبة للروك أندرول لألفيس بريسلي، عوضا عن أغاني رعاة البقر، أو ما أحدثه فريق الخنافس الشهير من تحطيم اللحن الحالم لحساب اللحن المتقافز، إن أي ألحان غريبة، أو وافدة من خارج الدائرة العربية، يمكن قبولها والتعايش معها، أو رفضها والهروب منها، إلا في حالة مايكل جاكسون.

أفتتح الراديو، في الصباح الباكر، اسمع القرآن الكريم، تأتيني الأخبار، ثم لا يلبث التواطؤ أن يظهر ليحفر لي فخاً: الكلام الإنشائي في السياسة، أو صوت مايكل جاكسون، وأقرأ الصحف، واقلب الصفحات الملونة في المجلات، الفساتين والشعار والحوادث وأخبار الجميلات والمطابخ والسيارات، لكني – وفي لحظة قدرية – وأثناء تحريكي صفحة لذيذة عن طقس مونت كارلو ذي الصقيع والجليد، أجد – فجأة وفي الصفحة المقابلة – مايكل وقد افترشها – هذه الصفحة الملونة – دون خجل أو حياء وبالألوان.

بالطبع يصدمني كل ما في مايكل جاكسون للوهلة الأولى، وهي وهلة كفيلة بأن تحط كثيفة على الوجدان، سحب سوداء ثقيلة وغليظة ناجمة عن إشعال أحمق لوابور

جاز سال حول رقبته بترول غليظ، ومهما أقلب في محطات الراديو أو قنوات التليفزيون أو صفحات المجــلات، ســيظل وجه مايكل جاكسون يطاردني، صوت مايكل جاكسون يلتف حولي ويفسد آذاني، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فــنحن طائفة الكتاب نستطيع أن نستخرج الحسن والجمال مــن أي عنصر يراه غيرنا قبيحا ودميما، نحن غير مباح لنا أن نقــع ضحية القبح والدمامة لأول وهلة، نحــن ذوو عزيمــة فــي الولوج إلى عالم التخثر والعفن والاكتواء والعــذاب والألــم وأمعاء الدنيا لنستكشف جمالا آخر وتألقا غيــر عــادي، لا يزعجنا إلا ذوو القلوب الدميمة ولآراء المدمرة المهلكة.. إلا في حالة هذا المغني الأمريكي، بوجهه المسلوخ الذي أفســد علينا رقة ملمح البنات، وخصلات الشعر التي لا تجــد لهــا خدودًا كي تهفهف، فإذا كنت قادرا على طرح المجلة جانبا، أو إلقائها بعيدًا، مع إغلاق الراديو أو التليفزيون، بل ويمكنني أيضا قطع النور عن البيت كله، فماذا أفعل وأنا جالس مــع أصدقاء، وقد داهمنا من الخارج هــذا الصــوت الجربــان بإيقاعاته المستفزة، ثم ماذا تفعل أنت عندما يستقبلك طــوال ساعات مرهقة إلى مكان بعيد"رفع السائق وجهه إلى الخلــف

ونظر إلى بقية الركاب وقال في استفزاز: يعني أحرم الناس علشان خاطرك؟ والناس – يا مصيبتي – كانوا قد انصرفوا بين النوم والكلام – اثنين اثنين – والذي أمامي كـــان يقـــرأ القرآن الكريم بصوت هامس من مصحف صغير، وبالتـــالي فقد أصبحت المعركة بيني وبين السائق فقط، وكل ذلك يمكن أن يكون له حل، فقد بدل السائق صوت مايكـــل جاكســـون بصوت مايكل جاكسون آخر من عندنا، ثم لم يلبث في تبـــرم أن أغلق مسجل السيارة، ثمة عيون كثيـــرة التفـــت حـــولي –حينذاك– رافضة سلوكي.

وبمرور الأيام فوجئت بكارثة مايكل جاكسون تضـــعني في مأزق الأب الرجعي، المتخلف، جامد العواطـــف، الـــذي توقف نموه الحجري عند مرحلة عبد الحليم حـــافظ، حيـــث أفاجأ، في لحظات الصمت البيتي التي تحـــدث بـــين الحـــين والحين، أفاجأ بغراب ينعق أو ضفدعة تنقنق، ولأنـــي قـــادر على الكشف عن جماليات خاصة في نعيق الغـــراب بســـبب عجزي عن هذا الكشف المشار إليه، فـــأتحرك لأستكشـــف الأمر بصفتي سيد البيت، كي أجد البنت الصغيرة، العزيزة، اصغر الورثة، مقصوفة الرقبة، وقد نامت في فراشها منصتة

في عمق إلى الصوت الساحر للسيد مايكل، المدسوس تحت وسادتها، فاندفعت إليها متخطيا كل قواعد التربية منذ عصور الحديد والمنجنيز والحجر الجيري حتى عصر القنبلة الذرية وصواريخ الفضاء والهندسة الوراثية، لكي أحطم البنت الصغيرة بالنسبة لتربيتها في الرقم القومي المنزلي وليست الصغيرة في حجمها، نصحتها من قبل ثلاث مرات وضربتها مرتين، ثم توقفت أنا عن التدخل في ذوقها، أي عن الإنصات بعد ذلك لأي صوت يحدث خارج غرفتي، صحيح أن البت بدأت تكتشف بعد فترة مدى السخف الذي جرفها تأثرًا بزميلات لها، ومدى الدمامة التي أبعدتها عن الفن الجميل شرقا وغربا، أي حين ثابت – بعد ذلك – إلى رشدها، فأصبحت تستقبل – في صعوبة – عمرو دياب ومصطفى قمر، ثم لم ألبث والحمد لله – أن اكتشفت منذ أيام – أنها تسمع أحد الحجار بصفته الجيل التالي لأخيه علي الحجار، والخامس لأبيه الحجار نفسه..!!

بعد كل هذه الفتن السرية والعائلية والقبلية في البيت وفي القرية، والكوابيس القدرية في النادي والسيارات وشوارع المدن، عدن من جديد لأواجه هذا السعار النابح

المسلوخ، ففي تصريحات متعاقبة، حظيت باهتمام المعــاقين نفسيا والموتورين عقائديا، عاد السيد مايكــل، إلـــى إزجـــاء الاتهامات السامة والنباحات العاوية، بنفس الإيقاع الذي قـــام به منذ سنوات، ضد العرب، وضد المســلمين علـــى وجـــه التحديد، وهي تلك الشتائم البشعة، والتي لم يطلقها العرب من قبل ضد أعدائهم – مع كثرة أعدائهم – وبرغم توالي هؤلاء الأعداء في مختلف العصور، وذلك حين أبـــرزت الصـــحف نيات هذا المغني الذي قضى عشر سنوات – في المتوسط – في تغيير ملامحه كي يقترب من الشكل الأنثوي – والنيـــات المعلنة أنه سوف يزور الشرق الأوسط ليغني هنـــاك، ولمـــا ذكره المحاورون بآرائه السابق إبداؤها في العرب المسلمين، ضحك باستهانة، مع أنه حين قال ذلك ضـــد أمـــة العـــرب، وهاجمته الأقلام، سافر إلى ماليزيا حيث قام بالفعلـــة التـــي تأباها كل الحضارات وكل الأقوام وكل الديانات، مع صـــبي في الفندق، وهو ما كان قد حدث له أيضا في قضيته الشهيرة في الولايات المتحدة ذاتها مع صبيان – حوكم بسببهم، ومثل هذا التصرف يتناسب مع ما يطلقه من صفات ضـــدنا فـــي السابق واللاحق، مع أنه يجني ثورة كل عدة شهور من هـــذا

التوزيع الجارف لأشرطة أغانيه السخيفة في بلادنا الواسعة، ولا أعرف من الذي تولى توجيه الدعوة إليه ليزور أقطارنا، ربما هو لا يفرز الأوطان لتصبح إسرائيل هدفا أول مناسبا لدعاواه، بالتأكيد تولي هذه الدعوة الذين يقوم بالتجارة في السلاح بين الغرب والشرق الأوسط، وكذلك الذين يمولون جماعات التخريب والاغتيالات والتطرف، أي هؤلاء الذين يجنون المليارات من وراء آلامنا وأوجاعنا ومشاكلنا، نعم هم أنفسهم الذين يصلحون لدعوة السيد مايكل لكي يقذف بهذا الهراء والضجيج في آذان أبنائنا، وهي الآذان التي تضطرب الآن كما تضطرب مثل كثيرة حولنا، تحاول أن تجد شيئا يستحق الإنصات إليه، حتما مادونا المعاصرة يمكن لنا أن نجد في صوتها ما يمكن أن نتحدث عنه، أو ننصت إليه، حتما سوف نجد في صوتها قيمة جمالية مهما بعدت بنا أذواق الاستماع عن استقبال أغانيها، إن هذا مقبول، أو معقول، وللآخرين حق استقباله والتعصب له، أو الإصرار على سماعه أما السيد مايكل، بصوته، وشكله – أعوذ بالله – وشتائمه، وتصرفاته الدنيئة التي حملتها الصحف الغربية وحققت فيها المحاكم عندهم، فلا يزال يقف تحت علامة

تعجب، ليس بسبب هذا الانتشار في البلاد العربية (حتى في الأتوبيسات)، انتشارًا لم يحدث لأحد من قبل، حتى أديث بياف، وايف مونتان الفرنسيين، وكاروزر الإيطالي، وحتى الجحافل الراقصة الفارغة الضاجة الصاخبة في العصر الحديث، والذين أخرجوا عددًا لا بأس به من شرائح الضجيج العربي والصخب القومي في كل حقول الاستماع، حتى كل هذا يدخل في دائرة حرية الاستماع، ما عدا السيد مايكل، الذي يفخر مناصروه وعشاقه بأنه أقام الكثير من مؤسسات كفالة الأيتام، والرعاية الاجتماعية للعائلات الفقيرة..!!

فليكن هذا بلاغًا، برغبتي الشديدة، أن أقوم إلى هذا السيد مايكل، بعد إغلاقي لجميع القنوات والموجات والصفحات التي يطل منها، فأترقب وصوله إلى بلادنا، وأن أريح نفسي منه، بإطلاق الرصاص عليه.

ليس بسبب تصريحاته ضدنا، ولا إلى شكله المثير للغثيان، بل لأنه يمر جزءًا غاليًا على الكاتب الفنان: أن يجد نفسه واقفًا ضد حرية الفن – ولأول وآخر مرة في حياتي.

أحمد بهاء الدين.. المعلم

أكثر من الآباء والأساتذة والمدرسين والمشرفين والأمهات والتليفزيون تعلمنا من أحمد بهاء الدين، صاحب أسلوب النثر التحليلي ذي الصوت الهادئ الذي يتفادى به الاندماج في المجاز والاستعارة والمحسنات والتوابل والتشبيه والكناية، والإيحاء والدس والإشارة واللف والدوران، فما كان أحمد بهاء الدين جبانًا، ولا متحفظًا إلا فيما يقتضيه أدب الخطاب، وما كان أحمد بهاء الدين متهورًا زاعق الصوت نائحًا ولو كان جالسا على حافة مقبرة، هو العقل المصري في أحسن حالات استوائه وإدراكه، وهو الحقيقة المهذبة ذات الفصول الأربعة: يتقي هجيرها وصقيعها بالأمل في فصلي الاعتدال، ويتحمل زوابعها وأعاصيرها تحت سطوة الإحساس بالمؤقت الذي لا يؤثر في انتظارنا للصحو القادم.

كان إحسان عبد القدوس زوبعة من الرياح والأحاسيس ورفض القائم بالمواقف النارية الرومانسية، وكامل زهيرة دودة من الحرير تنسج الخيوط في هدوء ليدخل بين الحين والحين في الشرنقة التي تفرز بعد ذلك خيمة من المعرفة ذات الألوان التشكيلية المبهجة، حيث يتألق تحتها جوجان

وسيزان وبيكاسو ورامبرانت وسلفادور دالي، وصلاح جاهين ينشئ قلاعًا من الشعر الشعبي التي تتقافز فيها خطوط الكاريكاتير الذكي الصارخ، مدرسة كاملة يقبع في أخطر أركانها أحمد بهاء الدين حتى ولو كان الأصغر حجمًا وعمرًا والأقل حركة والأكثر انخفاضًا في الصوت، كنت أيامها أتقافز وسط مستنقعات بحر يوسف وأجمات نخيل أبونوى، ألتهم روايات ألكسندر دوماس والسير أرثر و كونان دويل (شرلوك هولمز) وموريس لبلان في مغامرات أرسين لوبين القادر على النجاة من أي مأزق، حينما قرأت (أيام لها تاريخ) الذي اكتسح في معظمه الثورة العرابية، لنكتشف أن للثورة رجالاً آخرين لهم قدرات مذهلة: الشيخ على يوسف وعبد الله النديم ومحمد عبيد وعبد العزيز جاويش، وأن المعلومات المطروحة عن هذه الثورة إنما هي شعارات ومدرسية ووقائع مختصرة تخفي الجوهر العظيم لهذا الشعب المغبون، وكان يوسف إدريس يخترق بميكروسكوبه خلايا أفراد الوطن ليقدم قصة جديدة تشر دمًا طازجًا يتجاوز كل التراث القصصي القائم أيامها، كانت مصر كلها يعاد صياغتها بالوقائع العذبة المعذبة المتألقة في المقالة والقصة

والرسم والتمثال والشعر والأغنية والموسيقي والإدراك والوعي والجغرافيا والتاريخ، وعلم الاجتماع وفنون النثر.

وخلال كل ظللت شغوفاً بأحمد بهاء الدين، كانت ملامحه وجسده القصير وتكويناته قريبة الشبه من المصري أفندي الذي اشتهرت به رسومات صاروخان، ضع طربوشا على أحمد بهاء الدين وعلق في يمينه مسبحة وعليك أن تنظر إليه من جديد، نفس النظارة، مجموعة الاستدارات نفسها التي يتكون منها الأنف والعيون والخدود والرأس والجسد، إنه المصري أفندي الذكي اللماح الطيب، الذي يدخن سجاير البلمونت، والذي يقبع داخل تكوين مصري معقد تمتزج فيه أجراس الكنائس بآذان المساجد بأغنيات أم كلثوم بأقاصيص يحيى حقي بأناشيد الصباح في المدارس، وأحسست – منذ ذاك الزمن البعيد – أن أحمد بهاء الدين وراء هذا الانقلاب الهادئ، والهادر، الذي اجتاح فن الكتابة القصصية، كيف أغمض عيني عن أحمد بهاء الدين دون أن أربطه في عجلة التغيير الكبرى؟ ولماذا لا يكون هو العجلة ذاتها التي أثمرت محصلات قوى تحريك واضح أدى بعبد الله الطوخي أن يمخر في النيل ليكتب رائعته: النهر،

وبصبري موسى أن يخترق الصحراء الشرقية ليكتب الدرتين: الصحراء وفساد الأمكنة، وبمصطفى محمود أن يكتب جواهره في الغابة والعنكبوت والمستحيل والأفيون، وبصالح مرسي أن يبحر في البحر ليكتب السيد البلطي والقرش الأزرق والكذاب، تاركين القاهرة الشعبية لتظل مددًا لنجيب محفوظ والطبقات المحرومة لتكون مجالاً ليوسف إدريس، والبورجوازية الصغيرة لتذوب عشقًا واحتراقًا عند أمين يوسف غراب ويوسف جوهر وسعد مكاوي (ماعدا"السائرون نياما") ومعظم كتابات يحيي حقي، لقد خرج آل روز اليوسف من سطوة العاصمة وجدرانها وعشقها وجنسها ومباذلها ورموزها ليقتحموا الآفاق البعيدة. كيف يمكن أن نستبعد أحمد بهاء الدين من التحريك والتوجيه والتنبيه لنصل إلى هذا الأدب الثوري في الأداء والبنيان والمجالات والمباني؟؟

كما أنه – وعلى مستواه الشخصي – كان أول من أشار إلى ضرورة وضع العدو الإسرائيلي تحت منظار المعرفة دون التفريط في أصول العداء وكان السؤال: ماذا نعرف عن إسرائيل في حين أن إسرائيل تعرف وتحلل وتمحص كل

النتاج العقلي والوجداني الذي نفرزه في مصر؟ وبذلك قدم لنا أحمد بهاء الدين كتابات يائيل ديان القصصية، هي والرعيل الذي عاش الحرب في ٤٨ و ٥٦ ، واستخرج من هذا النتاج الإسرائيلي السموم الحقيقية المستحكمة في وجهة النظر الصهيونية ضد العرب – وضد المصريين بالذات، وطلب بتيسير طرح ما يعتنقه العدو الصهيوني من أفكار واقتناعات على بساط الإدراك العربي، ذلك أن الحرب ليست مدفعًا ضد مدفع وطائرة ضد طائرة.

والكارثة أننا لم نكن ننصت بشكل جيد لما يقوله هذا الكاتب، والذي فوجئنا بحملة من العداء ضده في أوائل السبعينيات يقودها إبراهيم الورداني ويوسف السباعي وصالح جودت وصبري أبو المجد، سواء بالكتابة أو بالسلوك أو بمسك السيرة في الجلسات الخاصة، في حين أن نزاهة وطهارة وسمو أفكار أحمد بهاء الدين هي كنزه، وهي شخصيته، وهي كنزنا الذي سوف نرثه عنه فيمنحنا القدرة كي نفخر بواحد مثل هذا الرجل، الذي يتمدد جسده في أفكار الأمة العربية كلها.

ولن ننساه أبدًا، وخصوصًا جيلنا الذي كان يـــرى فيـــه هدوء السر، ورائق الجوانح، وصـــريح التعبيـــر، وعـــذاب المعرفة، وخالص الهدف، وبساطة السلوك، وعدل التفـــاهم، وعمق الإحاطة، وشف العداء، والتعالي عن الصغائر.

نعم لن ننساه أبدًا، مع أني لم أره فـــي حيـــاتي ســـوى مرتين قصيرتين عابرتين، أراق فيهما من الود والحـــب مـــا يجلل أقواس حياتي بالفخر الراقي.

المؤامرة التاريخية لاغتيال أبو المعاطي

برغم كل الذي قرأناه وناقشناه، ورسمناه، وكتبناه، حول التنظيمات، والاتجاهات، والكتل، والاتحادات، والدول، والأحلاف المعادية للأمة العربية، ومع كل السفر، والترحال، والندوات، والمؤتمرات، والشعارات، والانقلابات، والشد والجذب، وكل الأمور والعناصر التي دارت حول الحروب العربية الإسرائيلية، ومع كل الكتب والتحليلات، وصور الوثائق، والأفلام، والكلمات: المستقرة والطائرة، والتصريحات، ومذكرات العملاء، والخونة والمعادين، والأصدقاء، وكتب المدارس، وبحوث الاستشاريين، وإشارات الباحثين..

بعد كل ما ترى، أقر أنا كانت هذه السطور، أن الذي دار بين إسرائيل (ومن وراءها أو أمامها) وبين مصر ومن معها منذ عام ١٩٤٨ حتى الآن، لم يكن له سوى هدف واحد.. قتل أبو المعاطي..

(١)

جربت مبكرًا أن أجد نفسي واحدًا من مراكز القوى، وأن أنال عقابًا – (أنواعًا مختلفة من العقاب) لأن لي علاقة

بأناس قد لا أعرفهم، وكنت مفتوناً بذلك، إنه يضعني في دائرة التراجيديا أو الكارثة أو المأساة، أو هذا الشيء الغامض الذي يجهزك كي تكون أديبًا فيما بعد، يمكن لك أن تبيع مذكراتك التي قد لا تجد لها قدمًا واحدة من الحقائق لتقف عليها.

كنت قد نقلت من إدارة شركة المقاولون العرب في السد العالي، إلى عملية فرعية داخل الصحراء الغربية، تقوم الكراكات فيها بالتوغل في عمق ما تحت الرمال كي تستخرج الكاولينا – أو الطمية أو الطفلة، وهي ما يقارب في صفاته الطين الأسوانلي الذي كانت تقام به التماثيل في المدارس أيام أن كانت المدارس تهتم بالفنون التشكيلية، كان رئيسي في العمل – كمال إبراهيم – قد وقع في براثن أعداء أحد المقربين من المهندس الشهير عثمان أحمد عثمان، حيث نقله قسرًا وأعاده إلى القاهرة وبدأوا في مطاردة معاونيه بالفصل والنقل، وكان حظي هو (عملية الطمية) هذه، والتي تستخرج مها الطفلة التي تدخل في تركيبات نواة السد العالي..

وكان مهندس العملية مشهورًا بالقسوة والرغبة في تعذيب الآخرين، والمكر، والدهاء وما كدت أصل إلى الموقع، حتى تسرب لي الخبر المؤلم: سوف ينهي عقد العمل الذي يربطني بالشركة في نهاية العام، على أية حال لم أنزعج كثيرًا، فقد كنت متعودًا على الصعلكة الناجمة عن سوء الحظ.

وكان موقع العمل يبتعد عن وادي النيل غربًا بحوالي عشرين كيلو مترا، وبالتالي فقد انغلقت الدائرة على العاملين هناك، سيارات الوردية تنقل العمل إلى أسوان ويأتي غيرهم – العكس صحيح: تأتي سيارات الوردية بالعمال أولا ثم تنقل الذين انتهتورديتهم، أما المهندسون فقد كانت لهم سياراتهم، أما أنا فقد كنت مرة مع العمال ومرة مع المهندسين، ومرات عديدة لا أجد سندًا لي سوى شمس النهار الغاربة هناك وراء الجبل..

وعلى هذا الموقع الفريد أطلقنا: جمهورية الطمية، حيث لا تخضع إلا لتصرفات مهندسها ومديرها ذي القلب القاسي..

لكن العمل في هذا الموقع كان يناسبني، فقد اكتشفت بعد أيام قليلة – ومع التوصية الصادرة من الإدارة بفصلي –

أنني لا أقل شرًا، أو قسوة، أو لؤمًا، أو مكرًا، عن مدير العملية، وأن الفرق بيني وبينه في الدرجة وليس في النوع.

وبعد شهور قليلة أصبحت ذراعه اليمنى في استصدار القرارات المناسبة وتنفيذها، ومراجعة نتائجها الأليمة..

(٢)

كنا نعمل ليل نهار ورديات يوميا وسط ضجيج الكراكات والبلدوزرات والكاسحات والسيارات: مثل (البارفورد) الإنجليزية الضخمة التي كانت ذات كفاءة في التشغيل تفوق السيارات الروسية، والتي كانت تنقل الطمية من العملية إلى داخل جسد السد العالي لصنع النواة الشهيرة.. غير أني اكتشفت – في لحظة صفاء – أن موقع العمل هذا، المنقطع في الصحراء، يجمع أكبر قدر من المشاغبين المطرودين والمغضوب عليهم من المواقع الأخرى، وإنه طبقا لذلك – فإن الموقع كان يجمع عددًا مذهلا من الأذكياء، والذين أحالتهم شراسة ومكر مدير العملية إلى أشرار، وبناء على (إغارة خارجية) تقرر فتح مدرسة لمكافحة الأمية في الموقع..

والإغارة الخارجية هي قيام إدارة الشركة بفتح مواقع جديدة وسط الجبال البعيدة، فتقوم – بناء على تخطيط لئيم – باختيار بعض المغضوب عليهم من (جمهورية الطمية)، وكلهم من ذوي الذكاء الحاد، ليكونوا الحملة التي تفتح المحجر الجديد، ونادرًا ما يعود منهم أحد، ذلك أن فتح محجر في الصحراء البعيدة يستلزم التعرض للأجواء القارية القارسة، حرارة أو بردًا، ثم بعد فتح المحجر يظلون مقيمين فيه حيث يصحبون – إن عاشوا – نواة لمن يأتي من العاملين..

وبعد فتح عدة مواقع محاجر، في السد العالي، جاءت عملية الصالحية الكبرى، وهي السهل الواسع الذي يقع جنوب محافظة الشرقية حتى يلامس الإسماعيلية وقناة السويس، ويصل جنوبا إلى الطرق الممتدة إلى البحيرات، كان النجاح في السد العالي سببًا أصيلا وراء مشروع استصلاح الأراضي في الصالحية، هذا الذي أدى إلى تقلص العمالة ذاتا الكفاءة في جمهورية الطمية، مما استلزم تعليم عدد من العمال القراءة والكتابة.

ذلك أن كل هذه الآلات التي تصرخ وتدور في عملية جمهورية الطمية تستلزم أفرادًا لديهم حد أدنى من المعرفة بالأرقام والكلمات، لقد نجح هذا المهندس في تدريب عدد من دبلومات الصنائع على تشغيل الكراكات الضخمة، غير أن البلدوزرات تحتاج إلى كفاءة أقل..

وفي الهواء الطلق، تم اختيار عدد من عمال التراب الذين لا دراية لهم بأية كتابة، وبدأنا في تطويعهم وتمرينهم على النظر للحروف والأرقام..

وكان من بينهم أبو المعاطي.

وليس لأسم أبو المعاطي أية علاقة من بعيد أو قريب بأي شخص اسمه ابو المعاطي، لكنني أتذكره دائما كلما جاءت سيرة حرب ٦ أكتوبر والتي كان من رموزها أبو المعاطي الآخر أو عبد العاطي صائد الدبابات، لقد كان الاسم يحيا في خيالي كلما توهج اسم آخر قريب منه..

كان أبو المعاطي من هذا النوع الذي لا يصلح لشيء إطلاقًا..

حمار جاهل لا يمكنه حمل كوب شاي من نصبة عبد الباقي القريبة، سوف يقع منه الكوب.. وينكسر.. ذات مرة

عينه مهندس العملية حارسًا – أو خفيرًا – على محطة تموين سولار وبنزين الموقع، وعليه أن يراقب تصرفات السائقين المتهورين ذوي التسيب أثناء تزويد آلاتهم – سيارات وبلدوزرات – بالوقود، ويغلق الخراطيم فور انتهاء عملية التموين..

وكان كثيرون من قادة هذه الآلات يتركون آلاتهم قريبا من المحطة ويذهبون لاحتساء الشاي.

ومن باب الملل أو الضيق، قام أبو المعاطي بالصعود إلى بلدوزر من النوع الضخم، وعبث في وسائل تشغيله لينداح صراخ مروع في الموقع، ماذا؟

كان البلدوزر الضخم قد اجتاح محطة التموين وأحالها إلى مسطح من الصفيح الغارق في السولار والبنزين..

وتقضي التعليمات أن يتحمل أبو المعاطي ذو الخمسة والعشرين قرشًا أجرة يومية قيمة الخسائر بواقع ٢٥% من المرتب..

لكن المهندس رأى غير ما نراه جميعًا، فقد أمر العاملين في جمهورية الطمية بإعادة إقامة محطة التموين، وزودهم

بالآلات والمواد اللازمة، مع التندر المناسب على هذا الحمار أبو المعاطي.

كان اللفيح الوطني قد كسر حدة الشر المعتمل في صدورنا، وحتى المهندس الذي كنا – وظللنا – نخشى لؤمه وخبثه وشره، كان قد أبرز قدرات عقلية تخلو من الشر، وكان أبو المعاطي من أول تلاميذ مكافحة الأمية في جمهورية الطمية، هذه المدرسة التي أقيمت في الهواء الطلق، وقام بالتدريس فيها رجب الصعيدي وشكري يونس وشكري سعيد وسمير سم، وكلهم من كبار المهيمنين على الكراكات الضخمة..

وكان المهندس المشار إليه هو ناظر المدرسة الأعلى..

(٤)

خلال ذلك حدث شيء غريب، أقول غريب رغم أنه تكرر مرارا، لكن إيقاع تكراره البطيء جعله غريبًا غريبًا..

فقد سرى في جمهورية الطمية أن واحدًا من العمال الجدد – اسمه جابر – جاء إلى موقع العمل يسعى خلف أبو المعاطي، لماذا؟؟، كي ينتقم منه في ثأر معقد ومزمن بين عائلتيهما الصعيديتين، وهو السبب نفسه الذي جاء بسببه أبو

المعاطي نفسه من وسط الصعيد هاربًا، كي يختفـي وسـط ضجيج وازدحام وتعقيدات منطقة مشروع السد العالي.....!!

عرضت الأمر على مهندس جمهورية الطميـة، فظـل يضحك، فهذه الكوارث لا تأخذ حقها من الجدية عنـد أبنـاء المدن، أو أبناء المناطق غير الصعيدية، ولما طلـب منـي الرأي أخبرته أن ننقل جابرا هذا، ونعيده إلى منطقة بعيـدة، أو أن ننقل أبو المعاطي، فظل الرجل الذكي يضحك، وبـدا مستهينا بأفكاري، وقال: يعني نحاول أن ننقل مسرح القتـل لموقع آخر..!! وسألني عن أبو المعاطي فقلت: إنه يعـرف الواحد والخمسة في الأرقام، وبعد فترة صمت سألني إن كنت أتصور أن نقل أحدهما سوف يوقف عملية القتـل؟ أم أنـه مجرد تأجيل؟؟ ثم أردف: مادام الذي اسمه جـابر مصـممًا على قتل أبو المعاطي فسوف يصل إليه في الطريـق، فـي الخيمة، في نصبة الشاي، في سيارة الوردية، أو فـي قريـة الشلال أو في مدينة أسوان، في أي مكان سوف يلاحق جابر أبا المعاطي ويقتله.. إن آجلاً أو عاجًلا..

كان الناس مـن إداريـين وعمـال وسـعاة وحـراس ومهندسين في جمهورية الطمية قد عرفوا بموضـوع جـابر

المقتفي أثر أبو المعاطي، تفشت الحكاية وأصبحت مادة للتسلية والسخرية، لكن الملاحظ أن مهندس جمهورية الطمية قد القى بجابر في مناطق التشغيل الليلية المرهقة؛ تسوية الحفر ونقل كابلات الكهرباء وتغيير موقع المخرطة مع مراقبة رش المياه في منطقة تشغيل الكراكات والبلدوزرات، وكلها أعمال يخرج منها العامل مرهقًا محطمًا والغبار يتداخل في تكوينات وفتحات جسده كلها، بعضهم كان يقع في النوم قبل أن ينجح في غسيل وجهه – من الإجهاد.. والإعياء..

وكان أبو المعاطي قد اجتذبته فكرة أن يتعلم الأرقام ثم الرسوم والحروف، كان الرجل يجلس على الأرض ممعنًا في خرابيش السبورة وهو يلف ويدور حول الحرف، أو حول الرقم، لكنه – وبعد أسابيع – نجح في نقل كوب شاي كامل إلى مكتبي دون أن يسقط منه – أو يهتز في الطريق..

ومع مرور الوقت جاءت أحداث جديدة، ونسينا أمر عبد العاطي وجابر، حيث أصبح جابر قادرًا على أن يكتب أو يرسم رقم السيارات البارفورد، وأصبح قادرًا على أن يشارك في تشحيم وتغيير وتحريك البلدوزرات مساعدًا

لقوادها.. نعم. وفي الناحية الأخرى أصبح جـــابر – جـــابر وليس أبو المعاطي– نجما في المواقـــع، يحفــظ المواويـــل ويتمثل بالنصوص الغنائية المنتشرة ويفك الخــط ويركــب البلدوزر ويشترك في أعمال الصيانة وفي عمرة الكراكـــة، كما كان يقوم بأعمال كثيرة بمفرده ترتبط بالتزييت والتشحيم والفك والتركيب، حيث قفز أسمه من كشف العتالين وعمـــال التراب إلى مساعدي السائقين..

(٥)

حتى كان يوم ٥ يونيو، تلك الهزيمة المروعـــة، ومـــا تلاها من إحساس مروع بالخزي والعار لا تخفف منـــه أيـــة تصريحات أو تلويحات أو أغـــان أو تمثيليـــات أو مـــواعظ منبرية..

وفي هذا الظرف الطارئ الجديد وبناء علـــى تعليمـــات وزارة السد العالي تم وقف أية أعمال فـــي مشـــروع الســـد العالي كله من غروب الشمس حتى شروقها، وبالتـــالي تـــم إلغاء ورديتي العمل المتداخلتين في الليـــل، كمـــا حظـــرت الإضارة في كل المواقع ليلا، ولم يعد باقيا في منطقة الســـد العالي كلها – الممتدة أربعين كيلو مترا مـــن ســـكة حديـــد

السودان شرقا إلى واحة كركر غربا إلا الخفراء، ومجموعة متناثرة من الأفراد لحراسة الآلات الصامتة.

وتم توزيع هذا العدد المهول من العمل والعاملين في ورديتي الليل على أنشطة العمل في النهار.

بالطبع حدثت ارتباكات واضطرابات نتيجة لهذا التكدس المفاجئ أدت إلى تعطيل العمل كلية في جميع المواقع نهارًا أيضا، ولم يكن ثمة حل إلا أن يبقى في العمل من يكون للعمل حاجة إليه دون تحميل العمل أية أفراد تحميلا قسريا، أي من يكون العمل في حاجة حقيقية إليه.

أما باقي الناس فقد تركوا أحراراً – مع المحافظة على حقهم في أجورهم حسب النظام القائم خلال النشاط والعمل..

وظل آلاف العمال هائمين أو جالسين حول مواقع العمل، يلعبون السيجة والتحطيب، ينامون ظهرًا ويتصعلكون مساء، يتطاردون ويمرحون ويلعبون الكوتشينة، وكثرت المشاجرات والاحتكاكات والشكاوى والشذوذ الجنسي والمداهمات الليلية، وتداخلت السخرية في الجد، والقصد الحسن في سوء النية، والغباء في الذكاء ورفض كثيرون – من العمال بالذات – أن يسافروا لبلادهم ليتركوا منطقة السد

للعاملين فقد، لكنهم خشوا أن يسافروا فيتم فصلهم، وقطع أرزاقهم، شعور يربطنا بعدم الثقة في الحكومة.

ولم يكن في بالنا، ولا جاء في ذاكرتنا، في هذه الأيام العصيبة حكاية جابر وأبو المعاطي، كانا بالطبع من العمال الذين تم ركنهما جانبا لحين عودة عمل الورديات كاملا..

وجاء الخبر المروع...

جابر داهم أبو المعاطي وقتله، فصل رأسه عن بقية الجسد، وظل يرقص في غروب الشمس وهو يعلن اعتزازه وفخره أن يحقق ثأره الذي ظل يبحث عنه طوال عمره.

(٦)

نقلت أجزاء أبو المعاطي إلى المشرحة، أما جابر فقد هرب، لم نره بعدها، ليتركنا مصممين على أن كل الذي قرأناه، وناقشناه، ورسمناه، وكتبناه، عن حرب يونيو ١٩٦٧ لم يكن صحيحًا، حيث خلا من هدف إسرائيل الأصلي: أن يقتل جابر أبو المعاطي، وأن يضيع الاثنان، وبعد ذلك تأتي باقي الأسباب..

مكالمات ورسائل.. دعوني أواجهكم

سوف أصنع فرجة للاسترخاء بين وقت وآخر كي أتهامس على جانب مع أصدقاء قادرين على إثارة الأعصاب، معتقدين أنني قد لا أستطيع منازلتهم فيما يعتقدون أنها"موضوعات حرجة"، إنني يا سادة أملك ما لا يملكه كثيرون: أن ألقى بالقلم جانبًا، أو في وجوه الذين يضايقونني – وأعود إلى الجلسة الرومانسية – الهايفة – على ترعة الإبراهيمية، أنظر إلى غروب الشمس وأطارد أفيال أبرهة وهي تداهم الكعبة دون أن أنزعج، فإذا ضاقت الحلقة فسوف أذهب بين غروب وآخر لأولاد الحاج يونس الذين لم يعودوا أولادًا، أحدهم رئيس المجلس الشعبي في ديروط الشريف، حيث أستعيد على شاطئ بحر يوسف أيام العوز والفقر وخلو البال وكتابة الخطابات الغرامية باسم"الصقر الأسود" ، كل الحلول أمامي، وأهمها أنني قادر على المواجهة، حتى لو كانت قريتي لا تعرف حتى الآن ماذا أفعل في العاصمة، قليلون يعرفون لكنهم يرون في الاستفسار وتعدد الأسئلة: استمتاعا مرهقًا، فإذا أضفت هؤلاء مع الآخرين الذين

يستمتعون بمحاصرتي، سوف تعرفون يا سيادتي: حجم الكارثة التي أعيشها..

ملخص مكالمة تليفونية:

واضح أنك فرحان لوصولك إلى الهدف الذي كنت تسعى إليه من زمان: أن تجد فرصة كي تلقي بنفسك على صدر الحكومة أيها الوصولي..

(أحمد عبد المقصود السيد – الإسماعيلية)

– لا والله، لم يطف ذلك في بالي، فأنا أعتقد –ومازلت– أن الحكومة هي التي ألقت بنفسها فوق صدري، والدليل على ذلك أنني أعالج حاليا من الذبحة الصدرية الخانقة، مما يجعلك تعتذر عن اتهامي بالوصولية، أرجو ألا تلاحظ أن الحكومة مصابة بأمراضها الخاصة أيضًا.

* * *

مكالمة تليفونية أخرى:

حضرت بالمصادفة حفل تكريمك بقصر السينما، فهالني أن عدد الذين حضروا الحفل لم يتجاوز الأربعين، منهم عشرة أهل بيتك، ألم تشعر بالحرج؟

(سعيدة الغانمي– سورية تعيش في مصر)

- الذين وقفوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم ونالوا تمجيده عشرة، والذين قاموا مع جمال عبد الناصر بثورته كانوا عشرة، والذين تم نفيهم مع سعد زغلول كانوا أربعة والذين وقفوا مع السيد المسيح مع تلامذته كانوا أثني عشر أحدهم سلمه للحاكم الروماني، وهذا ما أشعرني - حقيقة - بالحرج، لأني لا أجيد التصفية لكني سوف أفعلها في حفلات التكريم المقبلة، لن يزيدوا على ستة.

رسالة بريدية بالنص:

ماذا تفعل أيها الصعيدي لو أنك فتحت كراسة ابنتك فوجدت فيها رسالة غرام ملتهبة؟

(سامية غبرائيل - عمان - الأردن)

- حدث بالفعل، وقد هالني ما كان في الرسالة من أخطاء نحوية وصرفية، وقد أرسلت صورتها لوزير التعليم الذي يقوم حاليًا بالتحقيق في الموضوع.

رسالة أخرى:

ماذا يعني وقوع كتابتك في براثن الحيوانات، كلب على الشاطئ، وبقرة في الثقافة، وأرنب مع ديانا مطلقة تشارلز الأمير، وغير ذلك من حيوانات منها مقالات الأستاذ بهاء طاهر الدمث الرقيق المهذب..

(جمال الدين صادق- حلوان)

- أنا لا أملك الشجاعة الكافية لأقع في مشكلة مع بهاء طاهر، لكني أحيلك - في غيظ - إلى الحوت الذي ابتلع سيدنا يونس، والكلب الذي ظل ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعًا مع أهل الكهف، وناقة سيدنا صالح، وبقرة سيدنا موسى، وحمار توفيق الحكيم، ونعجة يحيى حقي، وكروان طه حسين، وحمامه - لمؤاخذة - السلام، بطلوا نق يا جمال أفندي وتذكر غراب قابيل أخي هابيل، وهدهد سليمان وعنزة غانذي.

رسالة ثالثة:

كيف يمكن أن تكون كاتبًا أصيلا، وأنت تناقض نفسك: تعيش بالجلباب وتحضر الحفلات والمؤتمرات بالجلباب وتسافر إلى أقصى الأرض بالجلباب، وعندما تتاح لك صورة مع مقالاتك: ترتدي البدلة، كيف؟ هل هذه هي الأصالة؟

(جانيت يوسف - بولكلي- الإسكندرية)

- الشيخ الشعراوي - هل تذكرينه؟ يرتدي البدلة في لندن، وكنت ذات حقبة في مكتب جريدة الشرق الأوسط مسئولا عن المواد المرسلة لمجلة"المسلمون" من القاهرة وهالني صورة الشيخ الشعراوي على الغلاف بالبدلة الفاخرة، ولأن

هذه الإجابة قد لا تكفي فإني أود أن أحيلك إلى الشعار الفكري والأدبي الذي يرفعه البعض: الأصالة والمعاصرة، الجلباب أصالة والبدلة المعاصرة، أيضا هذه إجابة لا تكفي، والحل: أنا حر.

جزء من رسالة:

لماذا لم تكتب عن العنف والإرهاب في الصعيد؟ ولماذا لا نرى أثرًا للاضطهاد الديني في مقالاتك؟ وكيف نفسر ذلك؟

(أبو سعاد – الغردقة– البحر الأحمر)

– كتبت، لم أكتب عن العنف والإرهاب فقط، بل كتبت أيضا ضد العنف والإرهاب، إن كثيرين يعتقدون أن الوصف المباشر هو الشكل الوحيد – أو المناسب – لتناول هذه الظاهرة، الحقيقة أن ثمة زوايا كثيرة، وجذورا كثيرة وعميقة يمكن أن تكون ذات أهمية مؤثرة في هذه الظاهرة المؤلمة، البعض توقف عند حدود رسم المشهد الأثير: سلاح ناري في أيد تداهم العزل والمسالمين، في حين أن قصصي ومقالاتي – المبكرة والحديثة – تحرث الوجدان الذي ترتب عليه هذه الظاهرة وأفرخت عنفها القائم، أقرأ"موقعة الجمل" و"الجبارنة" و"القربان" و"الفرسان يعشقون العطور". مقالاتي في عدة صحف عربية ومصرية آخرها التي في مجلة"المصور"،

هناك مقطع في مقالي الأخير عن العمل فـــي السـد العـالي حينما تم تحميل ورديات الليل على ورديات النهار بعد وقف العمل فور هزيمة يونيو ١٩٦٧، لقد حدث أن عددا كبيرا من العمال كان يهيم في موقع العمل دون عمل، وغير قادر على مبارحة المكان خشية فصلهم – وهو اعتقاد مصري موروث بعدم الثقة في الحكومة – وترتب على ذلك انتشـــار ألعـــاب السيجة والكوتشينة والمناهشات والهزر والشـــذوذ الجنســـي، وقد أدي ذلك إلى ظهور عنف الثأر والدم مع استخدام عنف جديد وثأر جديد.

كتبت أيضا عن سطوة الحكومة المركزية أيام عبد الناصـــر، ثم تقلص هذه السطوة تحت تأثير إقامة نظام نقـيض يتمتـــع بالديمقراطية وحرية الحركة – وهو أملنا جميعا –غيـــر أن وعي الناس بذلك لم يكن يساعد على هذا القيام، إذ لا تـــزال الأمية منتشرة، مما أدى إلى الاعتقاد بـــأن حريـــة السـطوة والسيطرة وحمل السلاح هي أيضا جزء من هـــذه الحريـــة الديمقراطية، ومن باب التنبيه يجب أن يحظى مشهد اغتيـــال الرئيس محمد أنور السادات باهتمام كبير، لمـــاذا؟ لأن ذلـــك بسنوات في اغتيال يحيى كيلاني عضو مجلس الشعب عـــن

ديروط، واحد من اليمين وواحد من الشمال، وواحد قلب للهجوم، حيث داهموه في عز النهار وهو جالس مع رجاله أمام بيته، هو مسلح وأنصاره مسلحون بالقطع، لكن المشهد كله كان نقلا واضحا وتقليدا واضحا، فإذا ما استعرض في الوجدان الشعبي والقريحة الشعبية أن الفرعون الحاكم قابل للقتل، فإن الأمر يصبح خطيرًا إزاء عنصر الولاء الذي يربط المحكومين بالحكام، في الوقت نفسه فإن معظم من تقدم المسيرة الديمقراطية الحديثة لم يرتفعوا عن مستوى الشبهات في القرى والمدن ومجلس الشعب وما يليه من مجالس نيابية،كما أن الذين يمارسون النشاط الاقتصادي والاجتماعي والمهني يحتاجون إلى وعي، فماذا تفعل إذا ما عرفت أن الجرائد تنشر يوميا عن أطباء ليسوا أطباء، ومحامين يستولون على مغانم من وراء تزوير إرادة موكليهم، ونظار مدارس يقعون تحت طائلة قوانين الابتزاز والشرفات.

الموضوع كبير وخطير، والذين يدركون أبعاده الحساسة، ويرتفعون فوق المصالح الشخصية والحزبية قليلون، والكتابة فيه مرهقة، أما ما يقال عن الاضطهاد الديني فإنما هو وجه آخر من وجوه العنف، ذلك أن العنف الجمعي قائم ويجمع

مشروعية قيامه على أفكار جاهلة، وهو ما يؤدي إلى تفريغ العنف الضروري في اتجاه قد لا يكون في الذهن الجمعي من الأساس، قل لي بربك إذا ما اجتمع مجموعة من الفتيان وبيدهم سلاح، وهم لا يعلمون ومأزومون تربويًا، لا يذهبون إلى ناد، أو إلى أي نشاط اجتماعي، ذلك أن الذي يقف على السقالة في حالة البناء، أو أمام فرن لصهر الحديد، أو أمام كمبيوتر يستنبئ منه حالة اقتصادية، أو أغرق نفسه في بحث علمي منشور في مجلة وافدة، أو اخترق الأرض بحثا عن ماء أو بترول، أو وقف حارسا على زريبة بهائم، أو أخذه السهد والقلق كي يعود إلى أولاده من بلاد بعيدة، أو ظل ينتظر طيبات النخيل تمهيدا لجني البلح، أو يدرك ويلف حول حقل قمحه يستثير نضجه ليعود به محصودًا للصوامع، أو واقفا على قواديس الطاحون إشرافا على استخراج الدقيق، أو الغاطس في بحر يوسف استخراجا لجهد اليوم من السمك، أو الواقف – في إرهاق – يعلم العيال فك الخط، أو المنغمس في تفعيلات قصيدة شعرية تعبر عن شجنه الخاص، أي من هؤلاء الذين يدبون في الأرض والمعرفة والنهر والورق وكهوف الجبال بحثا عن لقمتهم، إنما هم – من ناحية أخرى

- يتحققون ذاتيا فيما يفعلون، بل إنهم لا يصلحون حتى في التفكير في القتل.

إن العدوان المؤلم الذي واجه أفراد الشعب النصارى إنما كان نتيجة لظروف اجتماعية، ولم يكن في الأساس عقيدة مبدئية سابقة على التعطل والتبطل.

أرهقتني يا أبا سعاد، لقد شكوتك إلى الله، لا تكتب لي مرة أخرى.

* * *

رسالة صغيرة:

نحن نعلم أنك مولع بالطعام – ربما بسبب النشأة القاسية التي عشتها أيام زمان – ومستعدون لدعوتك إلى مائدة عامرة، وعليك أن تحدد ماذا تتمنى أن نجهز لك.

(محمود وعبد الله الشاذلي – شرم الشيخ – جنوب سيناء)

- جاءت رسالتكما متأخرة جدا، فإنني محاصر بتعليمات الأطباء في المأكل والمشرب، وفقدت الاشتهاء التلقائي الممتع، وسيكون مطلبي مقصورًا على شريحة من لحم العجل"البتلو"، وقليل من السلاطة الخضراء، وطبق طحينة، وقطعة من عضلة ورك خروف أو جدي، وهواء طلق، وليلى علوي.

* * *

من رسالة فيها كلام لا يجوز نشره:

هل أنت كريم؟

(س. الشجاعة – مدينة نصر)

– تمنيت لو أنشر رسالتك المثيرة للضحك الفاضح، غير أني أود أن أقف قليلا أمام سؤالك عن كرمي، والذي تستتبعه إجابة موروثة تغطي نوعا من التواضع المفتعل، وتؤكد الكرم باطنيا وتنفيه ظاهريا، مثل: أعوذ بالله من قال إني كريم: فقد أفسد هذا الكرم، الأمر عندي أختصره في هذه الحادثة، كنت مسافرا بالدرجة الممتازة في قطار الصعيد والرحلة سوف تستغرق ست ساعات على الأقل، وجلس أمامي – وفي مواجهتي – أحد المسافرين، ولم يكن حظر التدخين في القطارات قد صدرت به تعليمات مشددة، مثل الآن، وأنا عادة لا أمنح أحدًا شيئا من سجائري، لكني – حين بدأت التدخين – لاحظت الشراهة الدقيقة الصمتة في استحلابة للسيجارة، بعد وقت قدمت له سيجارة فرفض في إصرار ملئ بالثقوب، كان إصرارًا يدفعني للضغط عليه فأخذ السيجارة وخلال تدخينه لها كانت أسئلة سرية لئيمة تجتاحني: هذا الرجل المدخن، وليس معه سجاير، وأنا لا أستطيع أن أقدم له سيجارة كلما أردت التدخين، كما أني غير

قادر على نسيان ما به، فهو أمامي، قد يكون ممـــن يميلـــون لحالة التطفل المقيتة غير المريحة التي يتمتع بها البعض في المشاركة في المأكل والمشـــرب، والتـــدخين علـــى وجـــه الخصوص، وأنا لا أستطيع أن أغير المقعد الذي أجلس فيه، القطار مزدحم، وبالتالي فسوف تلد كـــل ســـيجارة أدخنهـــا شعورًا بالألم والضيق، ولذا فقد انتهزت فرصة مرور بـــائع السجاير المتجول، واشتريت علبة، وقـــدمتها فـــي إصـــرار وحسم لهذا الكامن في مقعده أمامي، فأخذها بعد إلحاح.

بعد ذلك حكى لي حكايته التي ملخصها أنه تاجر مـــن أبـــو تيج"طبعا – والدرجة الممتازة في القطار ومظهـــره يشـــيان بذلك" ومعه أقارب، من المفروض أن يركبوا القطار نفســـه، فاتجه هو مبكرا إلى الجيزة، ونفذ ما معه من نقود في شراء أشياء، ودخل القطار معولا على وجود أقاربه وشركائه، لكنه لم يجد أحدا، وظاهر هذه المسألة أنني مصاب بـــالكرم أمـــا جوهرها فهو أنني أنقذت نفسي وقمت بحمايتها مـــن جحـــيم وجود شخص أمامي بعيونه التي تبربش قلقا وترمش احتياجا وعوزا كلما دخنت سيجارة، منحته جنيهات قليلة عند نزولي

في أسيوط، دعك من حكاية تبادل العنـــاوين، كـــان قبطيـــا وسعدت بصحبته خلال الرحلة.

* * *

رسالة قصيرة متأثرة ببرامج التليفزيون:

ما هو الموقف المحرج الذي حدث لك ولم تستطع نسيانه؟

(ولاء وعبير الزهدي – غزة – دولة فلسطين)

– كان معي الدكتور محروس أبو بكر المتخصص في الفنون اليدوية في رحلة بالوادي الجديد؛ أنا ألتقي بالأدباء في هـــذه الجنة الساحرة الممتدة وهو يبحث عـــن الفنـــانين التلقـــائيين الصغار الذي يصنعون الفخار والأدوات المنزلية من الطمي أو الكاولينا ويقوم بتصويرهم بالفيديو، وكانت فـــي خـــدمتنا سيارة يقودها شاب طيب مطيع، ورأينا أن نمنحـــه حـــوافز مادية امتنانا له وشكرا، حيث تناقشنا طويلا في هذا الحـــافز المادي، الذي لم نرتفع به عن خمسة جنيهات مناصفة، وقـــد أعطيناه المبلغ ونحن نحلق في أجواء التواضع والكرم وحب الفقراء ذوي الشهامة، وفي اليوم الثالث دعانا أن نتـــيح لـــه فرصة زيارته في منزله في قرية لا تبعد كثيرا عن الواحات الخارجة، بيوت عادية صغيرة والجو جميل، والحجرة التـــي استقبلنا فيها تذكرنا بالبيوت الريفية البسيطة الفقيرة التي نشأنا

فيها: دكك خشبية، وفي ركن عدة تليفون، وعلـــى الحـــائط صورة مهترئة لأفــراد يلبســون الزعـــابيط أي الملابــس المعروفة في هذه الأماكن وجاء أفراد من أقاربه للترحيــب بنا، وأقام لنا مائدة تخجل أمامها كل الموائد: خروف مشوي مع كمية كبيرة من الطيور: بط وحمـــام، وقامـــت زوجتـــه وأقاربه البنات بخدمتنا، ونحن لا نصدق، ثم جاء أولاده فقام الدكتور محروس بتصويرهم، ســألته دون حـــرج إن كـــان يرغب في تصوير أهل منزله – أي الجــزء النســائي مــن عائلته – فضحك ونادى عليهم، فقام أقاربه بصحبة الــدكتور محروس للداخل لتصوير هؤلاء البسطاء الطيبين الشـــجعان، الذين يصورهم التليفزيون في مسلسلاته مجموعة من الأشباح الخائفة المرعوبة العاجزة عن الكلام، أبـــو الســـائق عمـــدة النجع، وجميع أهله نساء ورجالا يجيدون القراءة والكتابـــة، والمائدة تشي بالكرم والإتقان والذوق، ولكما أتذكر مباحثات الجنيهات الخمسة بيني وبين الدكتور محروس أحس بحرج لا يقاوم يكاد يشق الأرض ويبتلعني، كان الرجل ذكيـــا، هـــذا الذكاء التلقائي المصري، ملحوظة: يكفي أنه سائق سيارة في المحافظة وأبوه عمدة النجع، إنني أفخر به.

* * *

من مكالمة تليفونية:

هل تخاف من رئيس التحرير؟

(عزة أحمد سالم – الدقي – الجيزة)

– لم أستطع الوصول بعد إلى درجة الخوف من أي رئيس تحرير، ذلك أن طابورا كبيرا من الذين أخافوني يجعل مسألة الخوف من رئيس التحرير غير مطروحة الآن.

* * *

وهكذا يكون كل شيء قد نفد: القدرة على التحمل، والرغبة في أن أبدو كاتبا يفهم ما لا يفهمه الآخرون، وإلى اللقاء في مواجهة حميمة أخرى.

٢٨ سبتمبر

كلانا – أنا وجمال عبد الناصر– كان في موقف صعب في تلك السنة اللعوب ١٩٧٠، كنت مصممًا على تطليق زوجتي، ومازلت، وهي الآن بخير، وتهديكم جميعًا التحية الواجبة، وقد احتفلت منذ شهور بكونها جدة لأولى أحفادنا، وكنت في تلك السنة المشار إليها، خارجا من شركة المقاولون العرب في السد العالي – أو بمعنى أدق: هاربًا منها كي لا تفصلني، حيث لم يكن ثمة قادر على ردعها، بسبب تعضيد جمال عبد الناصر شخصيا لها، مع أن الشركة – قبل ذلك بشهور – كانت تفخر بي، وتزهو لأن من بين أبنائها واحدا مثلي، وأتاحت لي الإشراف والمراجعة لشئونها الإدارية في بغداد وكركوك وبيروت، غير أن مديرنا في العمل اللواء مهندس أحمد عبد الرحمن عوف وقع في مشكلة مع جماعة آل عثمان أصحاب الشركة. مما أدى إلى زعله أو غضبه أو إقصائه في بيته، وبدأت الأيدي الخفية تطارد الذين كانوا وراء هذا الرجل العظيم، بالنقل والفصل وإلحاق الصفات الرديئة والتهم المختلفة بأشخاصهم. ومكثت في البيت ثلاثة شهور، أذهب أول كل شهر إلى الشركة لأقبض مرتبي، مع

احتمال أن أذهب أول أي شهر للشركة، فلا أجد لي مرتبًا، هكذا كان يحدث لي واحد فيها يقع في حدي المقص العثماني، أعرف ذلك جيدا لأني كنت قريبا من بؤرة إصدار القرارات فترة طويلة، وبالتالي كان لابد لي من الهروب إلى مجمع اللغة العربية، وكان آخر ما فعلوه إرسال الملف الخاص بي إلى موقع عملي الجديد لمدة سنتين..

خلال كل ذلك كان جمال عبد الناصر قد وقع في فك السياسة الأمريكية بحدية: الحد الإسرائيلي الذي أحاق به هزيمة ١٩٦٧، والحد العربي الرجعي، أو المحافظ الذي حاصر الفدائيين الفلسطينيين على الحدود الأردنية ليواجهوا إبادة وتنكيلا لم تحدث لهم من قبل – لكنها حدثت أشد وأقوى في مذابح صبرا وشاتيلا أثناء إخراج الفلسطينيين من لبنان بعد ذلك بسنوات.

ووقف جمال عبد الناصر في مطار القاهرة يستقبل كل أنواع القوى العربية التي حاربها طوال الأحقاب الماضية، إضافة إلى القوى الأمريكية التي كنا نشم رائحتها واضحة في كل التصرفات، تلك التي – بعد أيام قليلة من المباحثات – وقف جمال عبد الناصر ليودعها في المطار، بعد أن حصل على

نسبة الأمان الدنيا لمن بقي من فدائيي فلسطين، ليقـــع مـــن طوله في آخر لحظات التوديع، ويتم نقله فورا إلى بيته فـــي كوبري القبة ليقضى نحبه، وتنقضي أخطر صـــفحات قيـــام الأمة العربية في التاريخ، لتسير الأمور بعد ذلك فيمـــا يلـــذ للدكتور عبد العظيم رمضـــان أن يتعـــاوم شـــديد الســـعادة والمرح.. على شواطئه.

كلانا كان تعيسا، ذلك أن مشروع السد العـــالي تـــرك فـــي صدري – في رئتي اليمني بالتحديـــد – تكهفـــا خطيـــر، أن العمل وسط الغبار والترب والمازوت والطمي سنوات طويلة جعل ذرات هذا التكوين تصنع كهفاً في الرئة، حويصـــلات من الذرات المتصلبة مثل تكوينات الخلايا الســـرية للحـــزب الشيوعي أو فصائل الإخوان المسلمين وفروعها، ولذا فمـــن الممنوع الحاسم على واحد مثلي ألا أتعـــرض لنوبـــة كحـــة تزلزل هذه الحويصلات، تنخلع من مكمنها ليحدث النزيف أو التلوث، أو السرطان الرئوي، وهو ما قد يكون حدث لجمال عبد الناصر من تلف في شرايين القلـــب نتيجـــة لتعرضـــه لضغوط قاسية واستنشاقه لغبار التآمر عبر الســـنوات التـــي مضت، وأدت به إلى النهاية المحتومـــة، دون أن أتعـــرض

لمقولات جاءت بعد رحيله تشير إلى مسالة دس السم له بيد عملاء، مع أن ذلك وارد، حيث جاءت إشارات واضحة في كتاب كوبلاند (لعبة الأمم) على الرغبة المؤكدة للتخلص من هذا الرجل بأية كيفية وأية وسيلة بصفته – كوبلاند – أحد أفراد جماعة العمل السرية للتخلص من هذا الزعيم العظيم.

يتيح لي ذلك أن ألقي – وسط هذه السطور – بتصور شخصي حول نتائج رحيل جمال عبد الناصر، وهو تصور أتحمل مسئوليته مع استعدادي للهرب إلى أي مكان آخر، خشية تحميلي أية مسئولية في هذا الشأن بالفعل..

بالتأكيد فإن تكوين جمال عبد الناصر لم يكن يسمح أبدًا للقوى المضادة له – أمريكا وإسرائيل على وجه الخصوص– أن تثق فيه أو تجالسه أو تباحثهن وفكرة السلام في الشرق الأوسط تفرض واجبًا وحاسمًا إخراج جمال عبد الناصر من اللعبة كلها – أعني الموت بالتحديد وليس الاستقالة أو الإقالة– ليعيش وحيدًا في بيته على غرار محمد نجيب من قبل، وبورقيبة – في تونس – من بعد وقد خرج جمال عبد الناصر فعلا من اللعبة بالهزيمة ثم الموت.

وكان أنور السادات – الذي أصبح نائبًا لجمال عبد الناصر لأول مرة– وجهًا مقبولا من جميع الأطراف، ولا سيما وأن السادات نجح في استحداث رصيد هائل يبيح له قدرة فائقة على مداهمة أي باب صعب، وهو ما حققه في حرب عظيمة بالفعل غير أن أمرا غريبا ظهر فجأة وأصبح عنصرا مؤثرا وخطيرًا في الاقتراب من تسوية المسائل لتقبل فكرة السلام، ألا وهو: الملك فيصل.

إن الملك فيصل – أخطر أعداء عبد الناصر مهما تهادنا واصطلحا واحتضن كلاهما الآخر – هو نفسه الذي أخذ الدور الصلب في إلهاب مخيلة الأمة العربية بالصلاة بهم في بيت المقدس، بعد حرب ٧٣، وعلى الأمة الإسلامية (لاحظ التكوين الديني في كلمة الأمة الإسلامية والذي قد لا يكون واضحًا في الأمة العربية) وعلى الأمة الإسلامية أن تناضل وتحارب وتقاتل لتحرير بيت الله الحرام في القدس، وهو ثاني الحرمين بعد مكة المكرمة، والذي كان قبلة المسلمين ذات عصر.

وكان المحللون السياسيون يعتقدون أنها مجرد شعارات لحاكم لابد أن يكون له دور، وأن الدور يمكن رسمه له ووضع

الحدود التي لا يتجاوزها، لكن الملك فيصل – ذا الصوت الهادئ الحاسم– كان قد أعتنق الفكرة، وبالتالي أصبح الذهاب إلى إسرائيل – تحت أي نوع من المخاطرات – مستحيلا في حضور ملك أصبح زعيمًا تتضاءل به القوى الإسلامية كلها، إذ لن يبارك هذا الملك خطوة السادات التي تمت بعد ذلك في زيارته لإسرائيل.

وكان لابد من إزالة عائق الملك فيصل.

إن الطريقة التي تم بها اغتيال الملك فيصل، إنما هي درس مدرسي لإنشاء مسرحية تبدو لا ثقوب فيها، أحد أبناء العائلة المالكة السعودية، يفكر في أن يتوب عن عدائه للأسرة المالكة، ويرغب في تقبيل كف الملك إثباتًا لحسن النيات وأين هذا الابن الذي عاد إليه رشده، في سان فرانسيسكو، أي في آخر الغرب الأمريكي، فيتم (تجهيزه) من سان فرانسيسكو إلى نيويورك ثم إلى الرياض، ليطلق الرصاص من مسدس غليظ القوام (يقولون: كان يدسه بين طيات ملابسه) على جلالة الملك في صدر ديوانه، ليخلعه من اللعبة المتوقعة تمامًا..

بعد ذلك بعامين تحرك السيد الرئيس السادات إلى بيت المقدس، في ظروف بلا عوائق ذات شأن تعطل اقتحامه التاريخي كما نتذكر جميعًا.

هذه تصورات من خيالي لم أقرأها، لكني أعتنقها. وأعود إلى تلك التعاسة الكبرى التي كنت أعيشها مع جمال عبد الناصر، هو في القاهرة يلتقي ويجتمع في صداقة وحب مع معظم القوى التي كانت في حالات عداء واضح معه.. فأي جهاز عصبي ذلك الذي يتحمل ذلك. إن بعض أفراد هذه القوى، التي لا تزال تعيش على الساحة العربية حتى الآن، يمكن لها أن تصيبك بالعقم، انظر إلى وجوههم واحدًا واحدًا، واكتب مشاعرك إزاءها. إن ذلك ليس استثارة لشروخ عداء قديم، إنما هو محاولة للوصول إلى كم التعاسة والتوتر الذي كان في قلب جمال عبد الناصر محاولا أن يصل إلى اتفاق يحمي به بقية مقاتلي فلسطين على الحدود الأردنية.

* * *

وكنت أيامها مع زوجتي في قريتنا، أولى الإجازات بعد خروجي من السد العالي، وكنت في ذلك العام ١٩٧٠ أحاول استعادة علاقاتي مع أصدقاء قدامى، وكانت ورود عبد

الناصر قد ذبلت في الحدائق بعد مرور أكثر من ثلاث سنوات على هزيمة يونيو، وبدأت أنا في نشر قصصي، في مجلة"الهلال" على وجه التحديد، وأنا أحب جمال عبد الناصر حبا قويا – ومازلت – ومع ذلك فإن قصصي الأولى كلها كانت موجهة ضده، الوصية الحادية عشرة – أغسطس ٦٩، فصل من قصة حب – يناير ١٩٧٠، يوم مهم في حياة رجل نصف مهذب – أغسطس ١٩٧٠، كان عبد الناصر– في قصصي – حاكما فردا شديد الديكتاتورية، وكل الكتابات والمسرحيات موجهة ضد عصر عبد الناصر وشخصيته والجو الذي أحاط بها أيام جمال عبد الناصر، جمال الغيطاني وعلى سالم في كل مسرحياته (أكتب أسمه وأنا شديد الضيق) وأبو المعاطي أبو النجا ويوسف القعيد ويوسف إدريس وسعد الدين وهبة وصلاح عبد الصبور وعبد المعطي حجازي.. قصص وأشعار ومسرحيات، وهي نفسها النصوص التي ولدت – بعد رحيل عبد الناصر– قدرات فائقة وشجاعة على نقد حكم الفرد، وكانوا أيضًا – جميعاً – يحبون عبد الناصر.

كنا جالسين في بيت خالتي في قريتنا حينما لاحظنا استمرار قراءة القرآن الكريم بعد العشاء من الراديو

وفسرناها – ليلتها– على أن الإذاعة تحتفل بالإسراء والمعراج، واختلقنا أسبابا أخرى دينية تساعد على فهم ظاهرة إذاعة القرآن الكريم من كل موجات الإذاعات العاملة، حينما طاف في ذهني هذا الذي أرعشني وألقاني لأصرخ: جمال عبد الناصر مات.

قلتها دون دليل إلا هاجس غريب اقتحمني، وقبل أن يذيع الراديو الخبر بأكثر من ساعتين، فأصاب الجالسين بغم وكرب، واتهموني بالعبث والهزار البايخ، بعدها انداح صوت القرية كلها بالصراخ – في هذه الساعة المتأخرة من الليل، وكان صوتها شديد اللوعة.

هي المرة الأولى التي أرى فيها قرية كثيفة السكان مثل ديروط الشريف وقد اندفعت في صراخ أليم وفاجع: جمال عبد الناصر مات. وعدت سريعا إلى البيت فوجدت أمي وزوجتي – التي جاءت سيرتها في أول المقال – وإخوتي وأقاربي وهم يبكون في حرقة.

جمال عبد الناصر الذي شويناه نقدًا لاذعا ونكتا لاذعة واتهامات لاذعة، وسخرنا به وبقدراته وبجيشه تحول إلى صراخ دام مؤلم يقطع نياط القلب.

وجلست قريتي في شوارعها وعلى عتبات أبوابها، بكبارها وصغارها طوال الليل. يندبون وينهنهون ويتأوهون. لم اشهد ذلك في قريتي حتى حين داهم الموت أو القتل أو الحرق أقوى رجالها: عبد العليم العمدة، وكامل عثمان، وحلمي وافي، وعديد من الرجال قبل عبد الناصر وبعد عبد الناصر.

بل إن قريتي هذه هي التي سارت – بكل فئاتها – في جنازته الرمزية لتلتقي بجنازات أخرى وافدة من أنحاء مركز ديروط. لتلتقي في تجمع شديد البكاء حول مقر المركز تصرخ: لا إله إلا الله.

* * *

ثم نفضنا أيدينا من عصر عبد الناصر، ومن شخص عبد الناصر، حيث أحببناه بعنف، وهاجمناه بعنف، لكننا لم نبك أحدًا بحرقه إلا هذا العملاق العظيم: جمال عبد الناصر.

ختان البنات

أغمضت المعاجم والموسوعة العربيــة عيونهــا عــن الختان، فلم يرد فيها إجابة ذات عمق عن أي سؤال:

(الختان عادة قديمة منتشرة بأنحاء العالم عند المســلمين واليهود وقبائل الجالا والفلاشة (يهود أيضًا) بالحبشة، وعنــد قبائل البانتو والمساي بأفريقيا، وقبائل الأوتاهيــت وســكان جزر التونجا وبولينزيا وفيجي وكليدونيا الجديــدة، وكانــت معروفة بين الأزتيك سكان المكسيك القدماء وسكان حــوض نهر الأمازون وغيرهم، وكان قدماء المصــريين يمارســون الختان قبل ١٤٠٠ عام قبل الميلاد، والختان مــن مميــزات الشعوب السامية، وخاصة اليهــود مــنهم الــذين يعتبرونــه طهارة، ويقوم بعملية الختان طبيب أو أخصائي يشترط فيــه التدين وحسن السيرة وجرت العادة أن يقام لمن أجريت لــه العملية بعد شفائه حفل للتهنئة يضم أفراد الأسرة).

وهكذا انغلقت الأقواس علــى هــذا التعريــف البــارد المدرسي المدون بأقلام لا تدرك عمق الكارثة، كارثة ختــان البنات على وجه التحديد، والتي اقترب منها إسماعيل ســلام وزير الصحة بحذر مكتفيا بحظر إجراء عملية ختان البنــات

على الأطباء، مع أنه يعلم بأن ختان البنات لا يقوم به عـــادة أطباء، وكان لزاما عليه أن يحظر ويمنع ويحرم ويجرم هذه العملية على كل من أمسك بالموسى واقترب من موطن العفة في بنات مصر كلها، لأن الذي يحدث تشـــيب لـــه رمـــوش العيون، فأي طبيب هذا المحظور عليه إجراء عملية الختـــان في بنات القرى والنجوع والكفور، في الصعيد والدلتا وفـــي الواحات وقبائل البشارية والبدو والعبابدة في عمق الصحراء الشرقية والصحراء الغربية، وتجمعات النوبة في وديان إدفو وكوم أمبو وحول خزان أسوان، والتجمعات المتناثرة علـــى شواطئ البحر الأحمر والمتوسط وجبال سيناء؟

وهي عملية – بكل المقاييس – قامت لتشـــويه العضـــو الحساس في الأنثى، هذا التشويه الذي يسري في جسدها ثـــم في روحها تلك التي تصب التشويه نفسه فـــي روح قرينهـــا تحت دعوى تخليص الأنثى من الشـــيطان وتطهيرهـــا مـــن الأدران، ولعل لفظ التشويه – مع إعاقة العضو الحساس عن أداء وظيفته – لا تبدو واضحة، لأننا اعتقـــدنا أن التكـــوين العضوي الذي عليه زوجاتنا هو الأمثل، ومع غياب التكوين الأصلي عن أذهاننا بسبب خلو حياتنا من تجارب الاطـــلاع

على أعضاء إناث من غير أمتنا، تصبح كلمة (التشويه) غير ذات معنى، وسيكون مؤلما وقاسيا علينا أن نعرف الفرق الشاسع بين هذا وذاك، والذي – حين نكتشفه – يصبح لزاما علينا الخروج على هذه العادة الموروثة، والتي يسرع ذوو العيون المشدودة للخلف إلى تقييدها في نصوص دينية ثبت أنها واهية لا تصل إلى مرتبة السنة المؤكدة.

* * *

إن قيام هذه العادة الشريرة في بكورها إنما يرجع في المقام الأول للأسباب نفسها التي اختلقت فيها أوروبا حزام العفة الشهير في القرون الوسطى، وإن تأمين الأنثى ضد نزواتها وانحرافها، وحفاظًا على عفتها بتلك الوسائل، هو قرارات ذكورية مهيمنة ومسيطرة وقادرة على تأسيس قيامها فوق نصوص دينية أو خرافية، وهي ضد إرادة الخالق وطبيعة الأعضاء.

ولقد شاءت لي ظروف عملي في مكتب أحد المحامين في أسوان أن أشهد نموذجا لهذه المصيبة السامية التي حلت على إناثنا المسلمات المصريات والسيدة التي رفعت دعوى تطليق من زوجها كانت سوداء – لم أقل سمراء – ذات

جمال فريد وأخاذ، ولا زالت أذكر اسمها: خالصة، وكانت أسس دعوى التطليق قد اعتمدت على أن زوجها يصمم على معاشرتها بطريقة ينهي عنها الشرع وبعد تداول الجلسات تم تحويلها إلى جلسة سرية بناء على طلب الزوج، هذا الذي طلب من القاضي معاينة (خالصة) دون حاجة إلى طبيب شرعي أو خبير في وظائف الأعضاء الجسدية، إن مشهد التشويه القائم بين فخذي خالصة يجعلك تكره الدنيا وما فيها، فقد تم بتر كل ما هو ظاهر في سوأتها باسم الطهارة، الشفرتان والبظر، وحين أوقف النزيف بالقطن والبن والشاش التأمت المنطقة كلها عشوائيا لتغلق التكوين الأنثوي تاركة ثقبًا يصلح للتبول فقط، لقد كان ما بين وركيها تم إغلاقه بالطلاسة والطين الغليظ الممتد إلى بطن الفخذين، وعليه فلم تعد خالصة صالحة للأداء الطبيعي – أي الإلهي – لأداء مهامها البيولوجية، مما اضطر زوجها إلى انحراف رغباته.

وفي الأقصر كنت في حوار مع الصديق الأديب سيد مسعود الأقصري حول هذه الكارثة، وقادني ليلتها إلى بيت امرأة منبوذة، لاحظ أن كلمة منبوذة غريبة على مجتمعاتنا، لكنها تعيش وحيدة بعد فشلها في الزواج مرارًا، واعتبروها

موطنًا لسكن الشيطان الذي احتل روحها وجسدها، تلك المرأة كانت مجرد أنثى تم التمثيل بكيانها الجنسي مما أتلف عناصر قيامه، وقد رفضت المرأة أن تقام لها طقوس الزار وإخـــراج العفاريت من الجسد، لتقيم بعيدًا عن البشـــر لتعـــايش هـــذا الخراب المروع.

* * *

قد يقول قائل من ذوى العيون المشدودة للخلف: إن هذه حالات خاطئة، أي تسبب الخطأ فيها للوصل إلى هذه النتيجة المزعجة، لكن الأمر – طبيبا وطبيعيا– أصبح كلـــه خطـــأ، سواء أكان خطأ جزئيا يعوق الزوجة عن الوصول إلى أوج المتعة مع زوجها، أو كان خطأ كاملا يعوق الزوجة عن أداء وظائف أنوثتها من الأساس.

فيصبح لزاما علينا – إزاء ذلك – ألا نحظـــر إجـــراء عمليات ختان الإناث على الأطباء أو الأخصائيين فقط، ذلك أن بلادنا لا تعرف – في مجملها – طريقة إلى مثل هـــؤلاء الذين يحظر عليهم السيد وزير الصحة قيامهم بها، إنهم نسبة ضعيفة وقليلة، لكن الأمر المستشري إنما هو متمثل في الداية والقابلة الكائنة في كل حي فـــي أي بلـــد أو قريـــة، وفـــي

تومرجيات وعمال المستشفيات والحلاقين الـذين يمارسـون ختان البنات بسهولة وخز الإبر وإعطاء الحقن، كل فرد في مصر يقوم بإعطاء الحقن وتضميد الجروح يجب أن يجـرم تجريما كاملا في حالات الختان، إن هذه الفئـة هـي التـي يحميها انخفاض الوعي الشعبي وندرة الأطباء، وهي الفئـة نفسه التي كانت تمارس الحجامة وتفصيد الـدماغ لمعالجـة الصداع والضغط والشلل، وتمارس كي العصـعص والقفـا لإخراج الروماتيزم والشياطين من الجسد، وتدق الوشم على الأكتاف وفوق الأصداغ، وتنسج على الجسد الإنساني أبا زيد الهلالي ودياب بن غـانم وصـفا للبطولـة والقـدرة علـى الخوارق، وكان كل ذلك يندثر، لكن أمرا واحـدا لا يـزال منتشرا هو ختان البنات.

* * *

إن هذه الكارثة الأنثوية لا يمكن لرجـال أن يعالجوهـا بمفردهم، فقد حدث لي ما يحدث لكل الناس، ذلك أنني رأيت إخوتي البنات (خمس) وهن مشدودات بالـذراعين القـويتين لأمي إلى الخلف، والداية – واسمها شـهربان (علـى وزن شهر زاد) تمد أصابعها إلى موطن العفـة وباليـد الأخـرى

الموسي – الذي لم يكن حادًا ولا نظيفًا بأي مقياس، كل ٢–٣ سنوات أرى هذا المشهد الذي ينتهي بنزيف مروع يتم وقفه بالقطن والبن وتراب الفرن، لتظل أختي (تفجح) مفتوحة الساقين مرتدية جلبابا جديدًا أكثر من أسبوعين، تتقافز وتلعب وتلهو وتنزف لتأتي الداية فتضربها على أفخاذها وتنهرها لأنها تلعب حتى تلتئم الجراح الظاهرية، ومنذ خمسة وعشرين عاما منحنى الله أولى بناتي، فتذكرت كل ما ورد في هذا المقال، وزوجتي من حي السيدة زينب المعتنق لفكرة ختان البنات اعتناقًا عقديًا لا يقاوم وظهر ذلك واضحًا بعد أن أصبح عمر ابنتي ست سنوات، فنبهت زوجتي ألا تفعل ذلك في بناتي بالمرة، ولا سيما أنني أنجبت بنتا أخرى، ولذا فقد كنت شديد الانتباه إلى الحيلة التي تلجأ إليها الزوجات للالتفاف حول تعليمات أزواجهن، أن تترك البنات بشكل عادى في ضيافة السيدة والدتها، وبعد أسبوع أجد نفسي أمام الأمر الواقع، وكل الغضب والاحتجاج لن يثمر بعد ذلك، وقد استجابت زوجتي بسرعة في الحقيقة لمطلبي: لا ختان لبناتي، مع أن أمها ظلت فترة تبدي زعلها لعدم ختانهن.

لقد انتبهت لهذا الأمر قبل إسماعيل سلام – وزير الصحة – بأكثر من عشرين عامان وبناتي هن أولى الحالات في عائلاتنا بالقاهرة والجيزة وفي كل عائلات ديروط الشريف – قريتي – اللاتي نجون من هذه الكارثة الموروثة، ومن المناسب – بشكل مرير – أن أفصح عن قريبات لنا ومعارف وقعن في هذه الكارثة رغم تخرج بعضهن من كليات القمة: الطب والصيدلة والمعهد العالي للتربية الرياضية.

وعليه يجب أن يجرم كل ما قام بذلك، أو سعى إلى ذلك، أو أخفى ذلك، أو تستر على ذلك، إن ختان البنات يا سادة كارثة بكل المقاييس، واسألونا نحن الرجال، وبعض تجار الحشيش، ولا تسألوا المعاجم، والموسوعات التي وقفت خارج توصيف فاجعة ختان البنات، في بلادنا بالذات، والتي وضح أنها بدائية، اختلقها الذكور تحقيقا وضماناً للعفة، مع أن كل الخاطئات اللاتي لم يحافظن على شرف أزواجهن كن مختونات، ويمكنكم سؤال الأطباء الشرعيين.

حصار الأنابيب

مثلك تماما: ظللت أتحمل تصرفات رعاع الأسواق وسوقة الخدمات لا يمر يوم دون أن تقع تحت سطوة ابتزاز واضح، ذروتها موزع أنابيب البوتاجاز، هذا الذي يمكنه – في صمت – أن يحيل حياتك إلى جحيم..

ومشكلتنا تختلف عن معظم المشاكل، أي أضخم قليلا وأكثر ترهلا، تمامًا مثل الجاموسة المسنة الضخمة العقيم التي تحتاج إلى رعاية دائمة لتزداد شيخوخة وضخامة وعقمًا، إذ أننا نسكن في الدور الخامس وتنفيذًا لجدول الابتزاز يصبح علينا مواجهة أنواع من المشاكل مختلفة تمامًا عن مشاكل الأدوار السفلى، دعك من السلة – السبت – التي تظل أم مينا (جارتنا) ترفع فيها وتنزل وتلقى بالتعليمات والأوامر لبتاع البطاطا أو البطاطس، ثم ينتهي أمر هذا البرنامج بأن ترفع أم مينا سلتها لينقطع الحبل أصلا عن الاستجابة لتعليمات أم مينا من الدور السادس، فهي لا تتأخر في دفع أية نقود يطلبها البائع، لكنه – من الدور السادس– تطلب البائع أن يعيد البطاطساية التي هناك وأن يضم إليها البطاطساية التي هنا، أما زوجتي فتواجه الموقف من جذوره،

حيث تنزل الأدوار الخمسة وتلف في السوق دون تعامل كبير من الباعة الذين يمرون في الشارع، حيث – من السوق – تختار وتشتري ما تريد أو ما تستطيع، هي امرأة وقادرة على المساومة.. إلا في موضوع أنابيب البوتاجاز..

* * *

جدول حركة باعة وموزعي أنابيب البوتاجاز، لم يتوافق أبدًا مع حركتنا المنزلية، والتي – هذه الحركة المنزلية– تتوافق مع كل الحركات المماثلة في العالم، وأول هذه الملهاة– أي التي لم تصل إلى مأساة بعد – أن ينتهي وينفذ غاز الأنبوبة في الليل لتواجه الصباح بالماء البارد أو بالعودة إلى وابور الجاز، ولكسر هذه المعضلة الكبيرة وتحويلها إلى معضلتين أقل حجمًا، قمنا بتركيب سخان كهرباء بدلا من سخان الغاز، تكاليف أكثر ومشكلة أصغر حجمًا، وهو ما لم نتفاءل به طويلا، فقد عادت مشكلة أنبوبة البوتاجاز لتتضخم أكثر، إذ نظل في انتظار بتاع الأنابيب ما يقرب من أسبوع، وما يكاد يظهر حتى يتجمع حوله الناس، وبعد عدة نداءات بمختلف اللغات – ينظر إلينا، للدور الخامس، ويقول: حاضر. إن قال، ثم بعد أقل عدد من

الدقائق، وأكتف ضغط من الضجيج، يرفع ذراعيه إلى أعلى مستسلمًا أو معتذرًا لنفاد الأنابيب، وسوف يحضر بعد ساعة.. ولم يحدث أن عاد قبل أيام..

ثم لم يلبث العيال والصبية الأفاقون وأبناء السبيل أن عرفوا الطريق للتكسب من توزيع أنابيب البوتاجاز، دراجة (تريسكل) يمكن تحميلها بما يصل إلى ١٥ من الأنابيب، وما تكاد زوجتي تنادي معلنة حاجتها إلى واحدة، حتى يرفع الولد نظره إلى أعلى، أعلى الأعلى، إلى الدور الخامس، ولا يرد، وإن رد، فسوف تظل كلمة حاضر معلقة في الهواء الطلق دون تنفيذ، فإن وجد نفسه مجبرًا على التنفيذ، ولا سيما بعد أن أصبح تحت سطوتنا ولدان كبيران قادران على تخويف من فشلنا في تخويفهم من قبل، فإنه يطلع السلالم متأففًا،ويصل إلى شقتنا لاعنا هذه المهنة، ثم يطالب زوجتي أمام الباب – وقبل تسليم الأنبوبة بمبلغ هو ضعف المبلغ المتعارف عليه، والذي هو أيضًا – هذا المتعارف عليه – ضعف السعر الأصلي للأنبوبة..

وبعد المساومة الواجبة، فإن الولد – في حالات كثيرة – يجري عائدًا وقد حمل الأنبوبة الفارغة، دون أن يقوم بتركيب الأنبوبة في البوتاجاز.

***

دعك من فكرة كتابة شكوى في الجرائد ضد الحكومة حتى تحسم هذه المشاكل، فقد أخذت الحكومات المسئولية على عاتقها أهم نوع من أنواع الديمقراطية: الحرية، تتركك تقول أو تشكو أو تصرخ أو تلعن أو تنقد كما يحلو لك، فلن تعترض ولن تفتح لك فمها أو سجنها أو معتقلاتها، مقابل أن تفعل هي ما يحلو لها وكلاكما – أنت والحكومة – في حرية لم نشهدها منذ سنوات طويلة، وبذلك يكون على كل واحد أن يستغل جو الحرية بالطريقة التي تتناسب مع شخصه الكريم.

ومشكلة هذه الحرية – إن كان لي حق الوعظ أو التفسير – أنها جاءت بعد أحقاب كانت فيها الحكومات قد عودتنا على أن ترسم لنا حياتنا وتحدد لنا أسعار الخضروات وأنواع اللحوم والأسماك والأحذية والشباشب وأجور الحلاقين وثمن المقالات والقصص والملاهي وشاليهات الشواطئ والأفلام ودور السينما، ثم فتحت الباب فجأة

ورفعت الأوامر وألغت الوصاية على أقوام تعـودوا علـى الأوامر والحياة تحت الوصاية، كنا ذات مرة أنا والمخـرج هشام أبو النصر نتفرج على فيلم الرسالة الذي عرض أيامًـا قليلة في سينما راديو، وفي البلكون المجـاور كـان بعـض الشباب من المهنيين يتكلمون ويضحكون في سعادة واضحة، فلما نبههم أبو النصر إلى وقف هذا التهريج ليتيحوا لغيـرهم الفرجة، سخروا بنا وأهانونا، وقام المخـرج بشـكواه لإدارة السينما، فجاء هذا الذي قال (يعني هاعمل لهم إيه؟)، مع أنني – ذات فيلم حساس أعتقد أنه الحياة للحياة – شاهدت الشرطة وهي تطرد متفرجًا كان يعلق على المشـاهد ذات الإيحـاء الجنسي بشكل سخيف، ولقد كانت هذه المرة – الخاصة بفيلم الرسالة – هي آخر مرة أدخل فيها السينما حتى الآن..

إن عددًا من الكوارث الشخصية يداهمنا كل يوم بسـبب إحساس أفراد بحرية ليست هي المقصودة بالحرية أصلا، إنه التسيب والفوضى، إنهم في حاجة إلى وصاية، فإذا لم تستطع فافعل مثل الذي فعلته زوجتي كي لا يتحكم فيها بائع أنابيـب البوتاجاز.

أرسلت ابني الأصغر ليبدل الأنبوبة من المخزن الذي لا يبعد كثيرًا، ومن المرة الأولى عاد بدون الأنبوبة، لقد وقف في الطابور وبجواره الأنبوبة الفارغة، ثم اكتشف بعد ذلك أن بجواره ساحة فارغة دون أية أنابيب على الإطلاق.. لقد سرقوها.

ثم بدأت تستعين بالأنابيب المملوءة لدى الجيران، لإكمال الطبيخ أو الاستحمام، فبدأ الجيران ينكرون أن لديهم أنابيب بوتاجاز من الأصل.

وبعد دراسة قررت أن مشكلتها الأزلية ليست في الأعم الأغلب صعود الولد بالأنبوبة للدور الخامس، بل إن المشكلة الأكثر صعوبة إنما في تركيبها في البوتاجاز أصلاً.

* * *

من سوق الثلاثاء – الذي بطريق المنيب بالجيزة – اشترت زوجتي مفتاحين واحدًا كبيرًا وآخر صغيرًا، وبدأت تدرب نفسها على تركيب الأنبوبة الفارغة في البوتاجاز حتى أجادته..

ثم أصبح سهلا، أو ممكنًا، أن تترك الأنبوبة المطلــوب تغييرها عند الجيران في الدور الأول، وبعدها لم يعد صعبًا- في أي وقت- أن ينقلها أحدنا من الدور الأول إلى الخامس..

لقد كانت مشكلة تركيب الأنبوبة مزمنة، حتى لو كـــان الولد بتاع الأنابيب مستعدًا لتركيبها، ذلك أن معظم البيــوت لديه أنبوبتان للبوتاجاز، واحدة تعمــل، والثانيــة احتيــاطي، وتركيب الاحتياطي- عند الحاجة إليها - لا يخضع لمــرور بتاع أنابيب البوتاجاز.. وقد سعدت بزوجتي أيما سعادة، ذلك أن الابتزاز لا يرهقنا - فيما يتصوره البعض- زيادة النقــود المطلوبة، بل لأنه يشيع جوًا من التوتر والهزيمة بالامتثــال للعامة والرعاع، ولذا فإن مشهد زوجتي وهي تنادي البنــت الصغيرة لكي تناولها الأنبوبة من الشرفة، هو المشهد الوحيد الجميل الذي يجعلني أحس برجاحة عقل زوجتي، وخصوصًا في الوقت الضيق الباقي على أذان مغرب شـــهر رمضـــان المعظم، أو أثناء لحظات السمر مع أصدقاء ينتظرون الشاي، أو وأنا سعيد أغني أسفل دش الحمام عاريًا، ففي دقائق تكون زوجتي قد فكت الأنبوبة القديمـــة مـــن البوتاجـــاز أو مـــن السخان، وقامت بتركيب الأنبوبة المملوءة، حيث يظل للبيت

استواؤه دون توتر أو صراخ أو ابتزاز..، لقد أحببت زوجتي حبا لا يتحمله البشر، مع أني كنت خائفًا في بداية التجربـــة، (أخشى ألا يكون التركيب بالدقة الواجبة)، وداهمنـــي كثيـــرا احتمال انفجار الأنبوبة بسبب التسرب، كنت مرعوبًا، ثم لـــم ألبث أن شعرت بالاطمئنان، أو لم أجد حلا سوى الاطمئنان، فأنا مرعوب دائما من النار، ومرات قليلة هي التي أشـــعلت فيها نار البوتاجاز، لا تقل لي: إن هذه مسائل بسيطة. إننـــي اخترقت الجسور والصحراوات والجبال والخرائب وحقـــول المتفجرات دون أن يداهمني هذا الذي اشعر بـــه إزاء عـــالم البوتاجاز، الآن أنا مطمئن.

* * *

يعيبنا – نحن المصريين – أننا نستطيع أن نحلل أكثـــر الأمور تعقيدًا وخطرًا من زاوية قد لا تكون هـــي المصـــدر الوحيد أو الحقيقـــي للخطـــر، فقبـــل مغـــرب رمضـــاني، والتليفزيون بدأ يستثير إيمان القلوب الواجفة، أي في لحظات السكون القصوى التي لا يعمل فيها مع الإيمان سوى المطبخ والتليفزيون، خبط الباب، وكانت ابنة الجيران، تلـــك التـــي وقفت في المدخل، وجاءت زوجتي تمسح يديها، حينما مالت

على البنت، ثم اعتدلت، ثم.. نادت على إحدى بناتها لتقف في المطبخ بدلا منها..

كانت البنت تريد من أبله نادية – التي هي زوجتي – أن تأتي لتركيب الأنبوبة في البوتاجاز، في هذا الوقت الحساس الذي فرغت فيه الأنبوبة، وسحبت زوجتي مفاتيح التركيب، وسارت وراء البنت..

سيظل الله للمسلم ما دام المسلم في عون أخيه.. ومرة في السحور، ثم في الصباح الباكر، لم تكن جارتنا السابقة، بل جارتنا التي تحتنا في الدور الرابع، وكنت وحدي في منتصف الليل والأسرة كلها قد ذهبت إلى بيت حماتي كما تعودنا كل عام، وفتحت الباب: نعم!؟ أبله نادية – لو سمحت – تيجي تركب أنبوبة البوتاجاز. لا يا ابني.. أبله نادية مش هنا، ذهب وعادت أمه: آسف يا أم محمد مفيش حد هنا، وحضرتك؟؟

قلت لها: إنني لا أعرف تركيب الأنابيب، قالت في سؤال ساخر: أمال مين اللى علم المدام؟؟

دار السؤال في دماغي، هل هناك معاهد أو ورش، تعلم الناس تركيب الأنابيب؟ الله يخرب بيوتكم..

بعد أسابيع كنا جالسين نتناول الغداء في صحن البيت خبطت الباب امرأة لم أرها من قبل، وقفت زوجتي مرحبة بها، طلبت منها أن ترافقها لتركيب الأنبوبة، وقالت المرأة بصوت معتل ومذلول: الراجل – أي زوجها – قالب علينا الدنيا علشان دخل تحت الدش وبعد شوية انطفأ السخان بسبب فراغ الأنبوبة..

صرخت فيها أنا: وبيتكم فين؟؟ قالت المرأة مبتسمة في تخاذل: في الشارع الثاني أوله من الناحية اليمين.. كانت هي المرة الأولى التي أتدخل في هذه الشئون..، وبذلك تكون زوجتي قد أصبحت مطلوبة في المنطقة كلها.. نظرت إلى زوجتي ونظرت أنا إليها فاعتذرت للسيدة، ولا سيما أن الجو نهار ويمكن لزوجها أن يتم الاستحمام بأي ماء، لكن المرأة بكت واستصرختنا أن ننقذها.. ورفضنا..

لكن الأمر لم يتوقف..

في أي وقت، عيال، وصبيان، وزوجات، يستنجدون بزوجتي، وفي الحالات القليلة التي تمتنع فيها تسمع انتقادها والدعاء عليها بأذنيها..

وقد حاولنا وقف هذه الكارثة، بعدم الاستجابة إلى دق الباب أو صليل جرس الباب، قمنا بتحديد دقات معينة أو صوت معين للجرس ليصبح شفرة خاصة للأسرة، نفتح على أساسها الباب لأفراد الأسرة فقط.

لكن الإقلاق ظل يحاصر المعسكر الذي نعيش فيه.

وعندما وصل الأمر إلى فساد كامل بعلاقتنا مع الجيران وجيران الجيران دخلت مواسير الغاز إلى بيوتنا وبيوت جيراننا وهي المرة الأولى التي دعونا فيها للحكومة بالفلاح، لننعم بطعم الاستقرار والحرية، دون التفريط في مفاتيح تركيب الأنابيب.. من يدري؟؟

إنها قصة حبي.. وأبكي..!

كنت – أيامها– منشغلا في الحركة الوطنية، أقوم مبكرًا وأهره مسافة خمسة كيلو مترات إلى ديروط المحطة لأنضم إلى رفاق الكفاح، هؤلاء الذين يكبرونني بفارق أتاح لهم نوعا واضحا من التجربة، ليقودوا المظاهرات قادمين من المدرسة الثانوية، ومخترقين قناطر وكباري المدينة، ليصرخوا خارج مدرستنا الابتدائية: يسقط الخونة، الاستقلال التام أو الموت الزؤام، وكانت الصحف تحمل على وجوهها الناصعة شهداء في خط القتال، كان مصطفى النحاس تحت ضغوطنا قد ألغى معاهدة ١٩٣٦، وتعضيدا له قمنا بإطلاق اسم كوبري الجلاء على كوبري المعاهدة، لكنه لم يستمر طويلا حيث عاد – ولا يزال – كوبري المعاهدة..

وكان شباب الجامعة قد اتجهوا شرقا ليحاربوا الإنجليز داخل معسكراتهم في الإسماعيلية بالذات، وحين تصل المظاهرات إلى مدرستنا الابتدائية على بحر يوسف: يسقط الخونة، يأمر عبد الغفار حسن – ناظر المدرسة الابتدائية – بفتح أبوابها لنندفع إلى كتلة المظاهرة، هذه التي تتحرك في صوت هادر إلى مدرسة البنات حيث تكون مفتوحة الأبواب

دون بنات، بتدبير سابق من ناظرتها، ثم نعرج إلى مدرسة الأقباط التي تكون مستعدة للتأييد، وهي بجوار قسم شرطة ديروط، حيث كان يقف المأمور مع بعض الضباط أمام القسم، في مهادنة واضحة، فتظل المظاهرة تهتف بسقوط أعوان الاستعمار وعيوننا في عيون المأمور وضباطه، ثم بعدها تكون الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحًا – ننعم بالعودة إلى (ثكناتنا) أقصد إلى بيوتنا، بعد أن نكون قد دمرنا اليوم المدرسي، حينئذ يصبح متاحًا لأي أن أعود إلى قريتنا في الطريق المسلوب وسط الحقول، المشهور بطريق (البجع)، مع أننا لم نشاهد في المساحة التي نحتلها أي نوع من البجع، ربما يكون البجع اسم تدليل لأبي قردان، وفي هذا الطريق يكون مناسبًا السطو على بعض ثمار الحقول، كنا في الشتاء حيث لا يكون في الأرض ثمار تغرينا، فيتوقف السطو عند حدود عيدان القصب، مع أن زرعتنا – أمام باب البيت– لم تكن تحمل سوى عيدان قصب السكر.

في مرات معدودة كنا بعد أن نؤدي واجبنا الوطني– نتجمع أربعة أو خمسة تلاميذ لنلعب الكوتشينة في كازينو أحمد قرش المزروع داخل الإبراهيمية، لكن رجال الكازينو

استصغرونا – ذات مرة – وحالوا بيننا وبين الدخول، فقام صلاح عبد الرحمن وعادل محمد عثمان بالهتاف ضدهم بصفتهم أعوان الاستعمار، لكن التجمع لم يكن كافيا لاقتحام الكازينو وتدميره، وقد ظلت هذه الواقعة تؤثر في علاقتنا بهذا الكازينو، حتى أننا – بعد أن أصبحنا كبارًا – استمتعنا كثيرًا بالعبث في الزجاج مع تقطيع إسفنج المقاعد.

وخلال ذلك عرفنا أن المظاهرات في العاصمة البعيدة قد غيرت من نظمها وأهدافها، سواء باصطدام برجال الشرطة، أو بمهاجمة موقع الوزراء، كانت الوزارة تتغير كثيرًا في تلك الأيام التي تكون بين ديسمبر ويناير، وكانت عبارات الهتاف في المظاهرات قد تعدلت إلى نوع جديد أجمل في الصياغة: يسقط المستعمر الغاشم، يسقط الإنجليز، يا من تحكمكم امرأة، ذلك أننا اكتشفنا أن بريطانيا المستعمرة تحكمها ملكة أنثى، أي (نتاية)، وهو أمر شائن في تاريخ الحكم، إذ لم نلبث أن ركزنا على إهانة بريطانيا من هذه الزاوية الحساسة، يا من تحكمكم امرأة، يا جيش النتاية – أي الأنثى – إن تعبيرًا مثل هذا يصدر من رجل ضد رجل يتهمه بأنه محكوم بنتاية يشعل ثأرًا قد لا يخبو أبدًا، فما بالك

والأمر يخص بريطانيا، وقام المبدعون منا في الشعر أو الرسم بتوضيح ذلك، جون بول – الرمز البريطاني وقد جلست على رأسه امرأة ذات حذاء، لكن ملامح المرأة قريبة من ملامح روحية شمس التي كانت تستضيف بعض المدرسين الغرباء، وانفجرت أمورهم في فضيحة هزت ديروط أيامها، ثم عرفت أن نية الكفاح الوطني تتجه الآن للهجوم على مركز الشرطة، كان أحد الزملاء قد أحضر كتابًا من أبيه عن ثورة ١٩١٩، وكان الكتاب يشرح بالتفاصيل قيام ديروط عن بكرة أبيها (وبكرة أمها أيضا) بالزحف على مركز الشرطة، فقام أبو المجد مأمور المركز بتوزيع سلاح الشرطة على الثوار، وهو السلاح الذي هاجمت به ديروط – مشاركة مع دير مواس القريبة – القطار الإنجليزي المتجه من القاهرة إلى أسيوط، واغتالت من فيه من إنجليز وعلى رأسهم القائد (بوب)، هذا إلي كان يحمل نظارة مكبرة، وكانت زوجته تحمل الكاميرا، والتي احتفظت بصورهم، وهذه التي استعانت بها القوات البريطانية كي تستدل على الثوار لتعدمهم شنقًا، أما أبو المجد – مأمور

مركز ديروط – فقد حوكم عسكريًا وانتهى الأمر باستشهاده موتًا بإطلاق النار عليه.

* * *

وإزاء ذلك، وعلى ضوء ما حدث في ثورة ١٩١٩، كما جاء في هذا الكتاب العظيم، تقرر أن نداهم – في المظاهرة الجديدة– مركز الشرطة، وأملنا أن يكون الحس الوطني عنده لا يزال كما كان أيام الشهيد أبو المجد، غير أن أمرًا حدث لي شخصيا عاقني عن المشاركة.

ذلك أن أحد أقارب أمي في العاصمة واجه ظروفًا جعلته يصحب ابنته الكبرى – التي كانت في العاشرة من عمرها– ويسافر إلى بلدنا، إذ في عز المظاهرات الوطنية في القاهرة اشتعلت النار في الممر المؤدي إلى محله دون مظاهرات وطنية، ولا أعرف حتى اليوم لماذا لم يصحب كل أسرته، مع أن لديه عددًا لا باس به من ثمرات التخصيب والإنجاب، وجاءت البنت إلى بيتنا الكائن فقيرًا على أطراف القرية وسط الحقول، وكنت أيامها صبيا أعاني من أنيميا لم تفلح في خلعي من موقعي الأول المتقدم دائما على كل رفاق المدرسة، واستولت على قريبتي القاهرية لم تكن طفلة كما

يجب أن نراها، إذ إن سن العاشرة أيامها كان ذا شـــأن فـــي تكوينات الصبايا المستشرفات دخول العـــالم الأكبـــر، أمـــي تزوجت في التاسعة وأنجبت أختي الكبرى في العاشرة، ابنة خالتي تزوجت في التاسعة وقاموا بتمزيق جسدها لتوليـــدها قسرا في العاشرة، وها هي قريبتنا القاهريـــة تـــأتي محملـــة بالوعي والتجارب لتغزو هذا الريف الثائر ضـــد الإنجليـــز، كنت قد تجاوزت الثالثة عشرة مولعًا بحكايـــات أبـــو زيـــد الهلالي وفارس الفوارس عنترة، ولم يكـــن قـــومي – فـــي القرية- يأبهون لعيال مثلنا يتقافزون حولهم حتى ولو كـــانوا يحولون بين بنات القاهرة جعل الأمر مسليًا للعائلة كلهـــا، إذ ظللنا – أنا والبنت – نتطارح الغرام في هواء قصب الســـكر الطلق، وعلى سطوح المنزل الهش، مع قليـــل مـــن الفســـق الصغير الساحر، هي المرة الأولى التي يرتعش فيها جسدي لأسباب غير الحمى، لينفتح عالم آخر ما رأيت منه شيئا من قبل رغم كثرة أحداث المواقعة في الحقول التي كان النـــاس يضبطون فيها أبناءهم الجالبين للعائلات العار، لكـــن البـــت قصت لي حكاياتها مع ولد يعمل أبوه بقـــالا فـــي أطـــراف ضواحي القاهرة، ومع ابن جيران يملك أبوه مصنعا للبمـــب

والمفرقعات، وهناك على شواطئ البحـــر حكايــات أخـــرى تجذب أحداث أفلام السينما وتلقيها بين قدميك.

* * *

وخلال ذلك تركت أمر الحركة الوطنية ضد الإنجليـــز لزملاء لم يواجهوا ما أواجه، واندفعت في أعمـــاق النهـــار والحقول والليل وتحت ظل الحوائط، أرتعـــش وأضـــطرب وأتعلم كيف يقع العاشق ضحية قبلة ساحرة، واشتعلت النـــار في كل مؤسسات وسط القاهرة مع إعلان الأحكام العرفيـــة، وكانت الصحف التي يحضرها خالي نـــاظر المدرســـة قـــد جاءت فائحة منها رائحة احتـــراق صـــيدناوي وشـــيكوريل وسينما ريفولي، ثم وزارة جديدة تحول بين البنت وأبيها من العودة إلى العاصمة، كانت الأحداث الوطنية تعمل لصالحي، وكان جسدى المعروق يفح بالنشوة والاضطراب والـــذهول، حتى استيقظت ذات صباح (وهل كنت نائما كي أســـتيقظ!!) لأجد معشوقتي، حبيبتي، قد سافرت.

استعدت نفسي بسرعة وقررت معاودة الكفاح الـــوطني انضماما إلى رفاقي، فاكتشفت أن المظاهرات قد توقفت مـــع إغلاق كل المدارس، وانفتحت الحقول أهيم فيها، أحـــاول أن

أسكب لوالج النفس على الورق، وأقرأ ما حدث تحت أشجار الزيزفون للمنفلوطي فأضطرب حزنًا وبكاء، نعم بكاء، ثـم هناك الوسادة الخالية لإحسان عبد القدوس، بعدها اندفعت إلى البنات فقيرات الحقول اللاتي يجمعن بقايا القلقاس والساقط من سنابل القمح، كان الشتاء قد انتهى والوزارات قد تعددت وتوالت، وبدأ ترتيبي في المدرسة – بعد فتحها – يتراجع للخلف، واصطحبني صديق أكبر لبيوت الغوازي لكني لم أستطع الدخول اضطرابا، ثم فاجأني الجيش بالاستيلاء على السلطة ليرفع عن أكتافي الكثير من الحرج.

* * *

قفز إلى أحداث تالية: بدأت أبحث عن عمل، وبعد سنوات سبع وصلت القاهرة تحت هذه الدعوى، لكنني – في الحقيقة – كنت ابحث عن فتاتي، أود أن أستكمل قصة الغرام، وبالفعل رأيتها في بيتهم، لكنها اختفت في الداخل، مرة ثانية: رأيتها ورحبت بي ثم اختفت، مرة ثالثة: لم أجدها أصلا، وكانت قد التحقت بمعهد رياضي بسبب ضمور درجاتها، والمعد الشهير يقع في حديقة الزهرية، وكانت الأيام تمضي شهورًا، فقمت بقطع الطريق عليها، سايرتني

مبتسمة فوق كوبري قصر النيل، كانت تحتضن حقيبتها فوق الزي الأخضر المرسوم بغزالة صفراء على الصدر، وظللت أسير معها حتى بداية خط المترو في رمسيس، كنت سـعيدا تحت إحساس طاغ بنجاحي في استعادتها، وكنت أذهب إلـي أبيها في محله ليساعدني في الحصول على عمـل، وخـلال ذلك أصنع شايا لعملائه، وأقـوم بتوصـيل الطلبـات إلـى المنازل، فيمنحني العملاء قروشا تساعدني، لكنـي انقطعـت عن الذهاب إلى أبيها بعض الوقت، فأرسل في طلبي، فقـال وهو يضحك: إذا كنت تريد رؤية فلانة – ابنته وحبيبتـي– تعال إلى البيت، فاضطربت اضطرابا شديدا، كنت أتصـور أن الوالد حين يكتشف أمرًا مثل هذا، يقوم بالتعنيف القاسي، لكن أباها كان قد عاشر الخواجات – ومعظمهم من اليهود – فسلك مسلكًا لا نجيده نحن الصعايدة، ولذا، فقد توقفت تمامًـا عن قطع الطريق على حبيبتي دون الذهاب إلى بيتهم أصلا.

* * *

وخلال ذلك عملت في أعمال متتالية، مسـاعد خطـاط وكاتب لافتات في شارع محمد على، مساعد تاجر بطانة بدل في شارع عماد الدين، عامل بمعامل تحميض وطبـع أفـلام

سينمائية في الدقي بالجيزة، كانت البنت قد أدمنتني، وكـان غرامها قد أفسد عليّ كل غرام آخر، لم أكن أطيق المسايرة، راغبًا في الوصول إلى الأهداف منذ اللقاءات الأولى، وكـان جمال عبد الناصر قد حقق مكاسب رائعة ومروعة، ابتـداء من مباحثات الجلاء، وأمجاد بورسعيد، ومرورا بالوحدة مع سوريا ثم الانفصال، مع قيام ثورات العراق واليمن، وكانت حبيبتي قد أصبحت وجهًا لامعًا، مرة علـى غـلاف مجلـة الجيل، ومرات في استعراضات الاحتفالات المتعددة للجـيش والنصر والوحدة والميثاق، ثم لـم تلبـث هـي أن دخلـت تنظيمات الاتحاد الاشتراكي، وكانت دنيا القاهرة قد ضـاقت بي فسافرت إلى أسوان، حيث عملت في السد العالي.

ومرت السنوات، جاءت إلى السد العالي حاملة الأنشطة السياسية التي كان رفاقها فيها بعض الوجوه اللامعـة فـي المناصب الجامعية والوزارية اليوم، ثم كانت هزيمة ١٩٦٧، بعدها كان التنظيم الطليعي، لكني فشلت في لقائها (أو مقابلتها بالمفهوم التنظيمي).

* * *

في سنة ١٩٦٨ تزوجت أنا، وفي سنة ١٩٧٠ خرجت من السد العالي كله بعد أن عملت في كل أنشطته حتى العراق وأقمت في القاهرة وكنت عام ١٩٦٩ قد بدأت أكتب وأنشر قصصي القصيرة، وفي سنة ١٩٦٧٢ جاءتني – بعد أن عدت للقاهرة – دعوة لحضور حفل زفاف حبيبتي من أحد الضباط في فندق الماريوت الذي كان مجرد قصر عمر الخيام بالزمالك، لكنى – في الفرح – لم أستطع أن أقترب منها، كانت متألقة وجميلة، وكان واضحًا في شعيراتها الدموية– التي لا يراها أحد سواي خلال هذا الفرح – أنها دمرت عددًا لا بأس به من أمنياتي وتجاربي، كانت ترقد بيني وبين كل أهوائي، بعدها عرفت أنها أنجبت بنتًا، ثم سافرت للولايات المتحدة الأمريكية.

وانهمكت أنا في شئون الكتابة، وبين وقت وآخر كانت تطل حبيبتي على عالمي محمومة محتقنة تحمل في رقبتها دمي، وكنت أتذكر دائما كلمة إحسان عبد القدوس: في حياة كل منا وهم كبير أسمه الحب الأول. ثم جاءت الأخبار بأنها طلبت الطلاق – وهي في أمريكا– من زوجها، كان الخبر صاعقًا، ذلك أنه – وبعد أيام قليلة – جاء خبر آخر: لقد

تزوجت من أمريكي، فظلت أضحك أيامها، كانت حبيبتي قد أصبحت رمزًا للجزء الناصري الذي أنجذب إلــى أمريكــا، لكني لم أعد أهتم، كانت ظروف الكتابة قد وضــعت علــى أكتافي أعباء جديدة، لكني لم أفارق رغبتي أن تداهمني ذات ليلة في فراشي، وبعد أن أنالها أقوم بدق عنقها، ثم لم ألبث – داخل دوامات الأعباء– أن صنعت لها ركنًا صغيرا شائكا في القلب، هذا الركن القادر على إشعال النار في العالم كله.

وفي العام الماضي جاءني تليفون (سينمائي): أنا فلانة. أهلا، كانت قد جاءت في زيارة للقاهرة، وكنت أنــا (أعلــى الأسماء في الأجندة)، واستغربت، لكني واعدتها على اللقاء، ولم أنم بالمرة، بدأت أستعيدها جسدًا ونارًا في التاسعة، ثــم شوقا وحرمانًا وهي على غلاف المجلات وأخبار الصــحف، ثم تألقا مضيئا وهي في زخارف كوشة فرحها، كان قد مــر ثلاثة وأربعون عامًا منذ التفاعل الأول في أواخــر ١٩٥١ – أوائل ١٩٥٢، وكنت أنا أسير بخطى حثيثة نحو الستين، ابني الأكبر تزوج، ثم عندي ولد وبنتان يمكن لي أن اقتحم بهــم معسكرا للجيش المحتل في الإسماعيلية، وكانــت هــي قــد

أصبحت في الثانية والخمسين من عمرهـــا، كيـــف بـــالله أن ألقاها.

وبعد عدة قرون – منذ تحادثنا – جاءت، انتظرتها فـــي استقبال المريديان بمصر الجديـــدة، حينمـــا جـــاءت، وأول ملاحظة أنني لم أعد مرتعشاً، وثاني ملاحظة أن نظرها قـــد أصابه ضعف واضح، وتحركت نحوها، كدت آخـــذها بـــين ذراعي، وجلسنا كي نتحدث، كانت جميلة، خريجـــة معهـــد التربية الرياضية والاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعي، لـــم تترك أثرا لغضون في وجهها أو رقبتها أو ذراعيها، كانـــت في عز شبابها، ما الذي ذكرها بي الآن؟، أحضرت لي رباط عنق (كرافتة) جميلة، وأنا لا أحب أربطة العنف، ما الـــذي ذكرها بي الآن، إنها تعمل في شركة ســـياحة،وقالت مـــرة أخرى إنها تمتلك شركة سياحة، فـــي أمريكـــان والجرائـــد الأمريكية تطوي معها ملاحـــق مختلفـــة ومتعـــددة لحركـــة الأموال والطائرات والبواخر والسينما والأدب والسياحة، وما إلى ذلك من أنشطة، والعادة أن يتناول القارئ الصحيفة ذاتها والملحق الذي يتواءم مع نشاطه، وكل ملحق له لون خـــاص يمكن للقارئ أن يتناوله دون بقية الملاحق، وكـــان ملحـــق

السياحة يتضمن في صفحتين تغطية صحفية عن حركة الأدب في الشرق الأوسط، وفيه صور لأدباء من إسرائيل وسوريا وبغداد والكويت والمغرب ومصر، كانت صورتي إحداها!!

نعم، كانت صورتي إحداها، فقررت أن تلتقي بهذا الذي أصبح صاحب صورة في جريدة أمريكية..!! كنت أمعن فيها وهي تتكلم، واتضح لي أنني أتكلم بانطلاق وسعادة، أما هي فتظل هادئة لا تضحك ولا تبتسم، وإن ابتسمت ففي حدود ضعيفة فاقدة الحيوية، جميلة الجسد والملامح وهادئة. هل أقول باردة، حتى وأنا أحكي حكايات يشيب لها الولدان، حتى حين اكتشفت وجودنا أستاذنا عبد الله الطوخي وزوجته الثائرة أبدا، المنطلقة في حيوية مصيرية، فتحية العسال، وفي قمة حرارة التعريف، ظلت بنت الأبالسة هادئة تتكلم عن حياتها، لكنها لا تدخل في أعماق حياتها، الشكل المعروف والممل للحياة الأمريكية، هذه حكاية سوف تحكيها لي، هي لا تشرب أي نوع من الخمور، لكنها احتست عدة أكواب من العصائر، قلت لفتحية العسال وعبد الله الطوخي: هذه

حبيبتي، وكان اللقاء الأول منذ ٤٣ عامًا، ونحن الآن في اللقاء الثاني، ووافقني على كلامي في ابتسامة بائع القماش.

كنا قد قضينا أكثر من ثلاث ساعات ليلة الأربعاء هذه، في سبتمبر ١٩٩٥ وكان موعد لقائنا مساء الجمعة القادم، بعد ليلة واحدة، في المكان نفسه، وودعتها حتى سيارتها، وقبلتها..

لكني لم أذهب إلى الموعد، ولم أتول الرد على مكالمتها التليفونية حتى سافرت.

فقد داهمني إحساس جارف بضرورة المشاركة الفعالة في الحركة الوطنية، حيث بدأت أرتب صفوفي ابتداء من شعارات يا من تحكمكم امرأة، حتى جلست في المقعد الذي يواجه نتانياهو محاولاً أن أفهم ما يدور حولي.

عالم الثقافات

سيكون مرهقًا أن أدخل في موضوع هو أضخم من قدراتي، ولا يصلح فيه الادعاء والفهلوة وخفة اليد – أو خفة العقل: أيهما أسرع..

ذلك أن في بلادنا ثلاث ثقافات، الثقافات المدرسية، والثقافة الشعبية التلقائية، والثقافة المتخصصة.

الثقافة المدرسية المبنية على الكمية الضئيلة من المعرفة التي تمر بها كتب المدارس من عينة (حار جاف صيفًا دافئ ممطر شتاء) عن الطقس المصري، مع أننا –خلال عام ١٩٩٦ فقط– داهمتنا الحرارة المشبعة بالرطوبة، والسيول، وظهر الأربعاء قبل الماضي كان زلزالاً، كما أن الأمر لا يخلو من زوابع، أي أن الصياغة المدرسية للطقس إنما هي صياغة جمالية وسياحية أيضا، وهذا نفسه يواجهنا في موضوع الآثار المصرية كمثال، فالمعلومات المتاحة عنها نابعة من شرح سريع لرءوس موضوعات عن الملوك الذين بنوا الأهرام أو المعابد أو المقابر، لكنك –حين تحمل هذه الثقافة المدرسية وتعبر بها إلى مواقع الآثار عمقًا في المقابر أو ارتفاعًا في المعابد والأهرامات سوف تواجه الثقافة

الأخرى: الثقافة الشعبية، وهي مجموع المعلومات المنتشرة بين الناس في موقع الأثر عن الأثر، خليط من أساطير وخرافات وغيبيات. فأنت حين تزور ميت رهينة- التي هي أصلا كانت منف أقدم عاصمة في التاريخ- سوف تواجه حكاية سيدنا يوسف عليه السلام بشكل لم يرد في الكتب المقدسة، حتى أن الناس هناك يرجعون جمال الأنثى في هذه المناطق إلى جمال النبي يوسف أو جمال زليخا زوجة العزيز الفرعوني، لكنك حين تصل إلى ديروط -بلدنا- سوف تفاجأ بأسطورة عن سيدنا يوسف ذلك الذي امتطى حصانه مزمعًا تنفيذ تفسيره لحلم الملك الفرعوني الذي ينص:"إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات"، وكان تفسير النبي يوسف عليه السلام المعروف أن ثمة قحطًا سوف يداهم هذه البلاد ولابد من الاستعداد له مبكرًا، وتحقيقًا لبداية مشروع السنوات السبع بدأ سيدنا يوسف عليه السلام رحلته من ديروط مخترقًا غرب الوادي على حافة الصحراء لكنه أرهق فنام على حصانه مما أدى إلى أن تتهدل ذراعه بجانبه، ومعها عصاه الطويلة، تلك العصا التي صنعت خطا في الرمال انسابت فيه

المياه من ديروط إلى الفيوم لتصنع ترعة بحر يوسف التي تصب في بحيرة قارون.

وهذه الثقافة الشعبية تفسر للجماهير الغفيرة ما لم تقم بتفسيره الكتب المتاحة، لأنه من الصعب أن يهضم الناس حقيقة أن بحر يوسف كان في الأصل المجرى الأساسي لنهر النيل، وأن عوائق من الطمي أو الصخور حولت مجرى النهر عند بلدة (شلش) ليكون المجرى القائم الموازي لبحر يوسف والممتد شمالا ليصنع الدلتا- في تلك العصور السحيقة قبل النبي يوسف عليه السلام هذه هي المعلومة الأعلى التي تصنع الثقافة الأعلى، ثقافة نادرًا ما نتحلى بها حتى لو كنا ندرك الجزء الأكبر منها، لأن ثقافة الجماعة كثيرًا ما تجرفنا.

* * *

في معبد دندرة (قنا) التقيت من سنوات بالحارس- وكان جالسًا يأكل في الظلال، فتعمدت أن أجلس إليه مباشرة وأن أشاركه الأكل قبل أن يفطن لوجودي ويقف، وقد أدى بنا هذا التصرف إلى سقوط العائق الذي يحول دون التفاهم الحقيقي بين الغرباء، كان طيبًا لكنه كان واضح العيوب

البدنية التي تحول بينه وبين وظيفة الحراسة: أعور، وبعد الأكل بدأنا التدخين، وصارحته برأيي معتقدًا أنه (فلاتي) أي مجرم فالت، وتم تعيينه خفيرًا –رغم عيوبه– اتقاء لسلوكه، فنفى ذلك، وقال ضاحكًا إنه طيب وكان شاطرًا في المدرسة الإلزامية ويجيد القراءة، ولم يتسبب في إيذاء أحد في حياته، لكن الذي لا يفهمه المتعلمون –أي أمثالي– أن حارس الأثر لابد أن يكون أعور..!!

جلت بخاطري في كل الآثار التي زرتها في وادي مصر فلم أستطع أن أتذكر ملامح حارس واحد حتى أعمم نظرية حارس معبد دندرة، فلا أحد يتذكر خفراء الواقع عادة. قال الرجل وهو يقدم لي كوب الشاي: وكل ملك من أجدادنا كان عنده حارس خصوصي بعين واحدة، وكل وزير عنده خفير أعور، ليه؟؟ لأن الشياطين لا تقترب من رجل أعور، كما أن لعنة الكفرة لا تصيب الأعور ومسح على عينه العوراء وقال: الشياطين تخاف من الأعور مثلما تخاف البومة، ولذلك فإن انتشار الحارس الأعور هو تجميد لدور الشيطان، كما أن الأعور لا تصيبه لعنة الفراعنة، مع أن العرب تتشاءم من الأعور عادة، لكن الناس رأوا أن يرفعوا

من شأن هذه الصفة كي تصبح امتيازًا، لاحظ أن عددًا كبيرًا من الخارجين على القانون يتميزون بمثل هذه العاهة، ولما سألته عن معلوماته عن معبد دندرة، طاف معي وبدأ يشرح لي حكاية هذا المعبد الذي كانت تذبح فيه الأبقار المعبودة قبل الإسلام، ومعلومات الحارس ضئيلة بالنسبة لمعبد دندرة، حتى ولو كان قد حشاها –أيامها– بحكايات عن الكفرة بما لا أتذكره، هو حارس فقط– نعم، لكن وجوده في المعبد يصبح جزءًا من تفسير قيام المعبد للأغراب تفسيرًا شعبيًا، ومعبد دندرة أقيم بالفعل فأقام البطالمة– بعد أيام بيبي الأول ثم أمنحوتب الثالث ثم انهار المعبد فأقام البطالمة – بعد ذلك بعصور– هذا المعبد الكائن الآن، وهناك حادثة معروفة هي قيام بعض علماء الآثار الأجانب بفك سقف إحدى قاعات المعبد، هذا السقف الذي كان مقسمًا إلى دوائر، ومرسومة داخله أبراج السماء الاثنا عشر المعروفة الآن، وتم نقلها إلى أحد المتاحف الأوروبية.

* * *

وانشغلت فترة، كلما زرت موقعًا أثريًا راقبت ملامح الحراس، وهي مسألة مرهقة في الصعيد وكأنك تبحث عن

أحد الهاربين متعللاً بزيارة الآثار، وكنت أجد -لابد- فردا أعور، داخل المعبد، وخارجه، وفي الفندق أيضًا.

ومنذ اليوم الأول في حرب أكتوبر ١٩٧٣، وصل السادات إلى قمة حب الناس له، نسي الجميع ما حدث منذ تولي الحكم ضد الجماعات الحاكمة ومراكز القوى أو أي جماعة أخرى، رقصنا جميعًا في البيوت ونحن نسمع الأخبار الأولى -كنا لا نصدق، لقد أصابتنا إهانة تاريخية مروعة منذ هزيمة ١٩٦٧، ولا سيما بالنسبة للذين يسافرون للخارج، ففي عام ١٩٦٩ عملت فترة في العراق، وكنت أقيم في فندق على نهر دجلة، وحدثت مشاكسة أو خلاف بيني وبين أحد عمال الفندق، فإذا به (يروح) ويعايرني بالهزيمة، صحيح أن صاحب الفندق لامه وأنبه، ولكن الصحيح أيضا أن الجرح كان مؤلمًا، لقد كنا بالفعل نشر بالعار، فلما بدأت حرب أكتوبر شعرنا بأن الله كريم، وهو الآن يرد لنا الروح الممزقة في دروب الأمم الأجنبية، والتي لم يحس بها الناس في الداخل بهذا الشكل المركز الذي صاحبنا في الخارج، وفي بيروت – قبل حرب أكتوبر أيضًا- وجدت (ألبوم صور) كان يباع على الرصيف بقروش قليلة، ألبوم ضخم ذو

طباعة فاخرة، يحتوى على صور مروعة للجيش المصري -المصري فقط- في مختلف الأوضاع المزرية: سيارات ودبابات مكومة في ممر (متلا) بسيناء، مشهد واسع لجثث جنود وأشلاء جنود وحاجيات جنود، وبينها العلم المصري ملقى على الأرض ملوثًا، سيارات نقل مفتوحة الجوانب والمؤخرة وقد امتلأت بجنود ممزقي الملابس، كما أن بعض الجنود قد تشعبطوا في مؤخرتها، عشرات الصور القاسية والمؤلمة التي كانت تجعل الواحد منا يغطس تحت الطين وخلف التراب، آلاف الجنود والضباط الجالسون على الأرض في مشهد الأسرى الذميم، وقد صعب عليّ أن أحمل مثل هذا الألبوم أيامها، لكني- وبعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، وجدت نسخة منه مع الصديق الدكتور محمد الباجس الكاتب المسرحي عام ١٩٧٧، وقد حاولت الاستئثار به فلم أستطع، كانت الظروف قد تغيرت. وكان النصر الأكتوبري قد غطى على هزيمة يونيو الكابوسية.

* * *

وخلال مداهمة رجال أكتوبر لسيناء تدميرًا للقوات الإسرائيلية، وفي هذه اللحظات الحساسة التي فقدنا فيها

النوم، وأصبحنا في حالات إصغاء تام لأية أخبار في مصـــر أو من الخارج، دخلت الثقافة الشـــعبية مزاحمـــة الحقـــائق التاريخية، فقد اكتشفت الجموع الشعبية أن تقدمنا الواضح في الحرب لابد له من تفسير، فانتشرت في ربوع مصر أحـــلام عدد كبير من المشايخ، كل منطقة أخرجت حلمها عن طريق شيخها، لقد رأى الشيخ في منامه أحد الأولياء، يوقظ السادات من نومه ويأخذ منه عصا المارشالية الشهيرة، ويشير للجيش بكامل أسلحته: الطيران والمدفعية والمدمرات والغواصـــات، لتقوم بتدمير إسرائيل، فكانت هذه الحرب العظيمة، وكل شيخ رأى وليا هو المشهود له في تلك المنطقة، ولذا فقد تم تفسير النداء العظيم للجنود أثناء الهجوم: الله أكبر، الله أكبر، بأنـــه ناتج عن تنفيذ الحلم أصلا، وبدأت كل منطقة تزيد وتعيد في حلمها الخاص الذي هو مركز ثقافتها، فإن كان السيد البدوي فلابد من توفير عنصر الجياد والخيول فـــي هـــذه الحـــرب المتطورة جدًا، وإن كان سيدنا الخضر– والذي كـــان يســـير على الماء– فالأمر واضح مـــن أول مداهمـــة ميـــاه القنـــاة بالكباري العائمة، وإن كان الشيخ الفرغلي فانظر إلى البيارق التي رفعت على الضفة الشرقية والتي ظهرت عليها كتابات

متلألئة من الآيات القرآنية، وإن كان الشيخ الغولي فقد وضح ذلك في آلاف الجنود الذين اخترقوا مياه قناة السويس دون أن تبتل ملابسهم.

بالطبع كان ذلك تبركًا حميدًا وتيمنًا بأولياء الله الصالحين، لكنه – من الناحية الأخرى– إنما يمثل الأنشطة الذهنية لشعب هذه الأمة تاركة أمر التحليل والتقديم والتأخير، والصياغات المتعمقة، الحيادية والمتحزبة، الراقية والدونية، للثقافة المتخصصة.

وهذا الأمر– أمر النشاط الذهني للأمة المصرية إزاء الحوادث الكبرى، لا يزال حرًا في نشاطه وحرًا في خموده، لم يقم أحد بمتابعته متابعة واعية، حتى يمكن أن يفرزه بعيدًا عن صياغته بمفاهيم تناقض روح الأمة وروح العصر.

* * *

وتظل المسألة –كما أشرت في أولها– قائمة بفروعها الثلاثة، الثقافة المدرسية الهشة أو البسيطة، والثقافة الشعبية الغزيرة التلقائية، والثقافة المتخصصة التي تلتهمها الكتب وينام على دفئها المتخصصون وذوو الثقافة الرفيعة وكل

ثقافة تسير في طريق في طريق، ولها حراسها، ومحبوهـــا، والمدافعون عنها.

وكل ثقافة لها فنونها وقدراتها، وإفرازاتها في الحكايات والأشعار لكن الثقافة الرسمية –المدرسية– هي المهيمنة بـــلا روح على فنون هذه الأمة.

الثقافة الشعبية هي الأم الحقيقية لمعظم هذه الفنون.

أبو عواجة

ذات أعوام أصابنا هوس زوربا اليوناني، وكدنا نجــن به، تمامًا كما سبق لآبائنا وأساتذتنا أن أصابهم جنون غــادة الكاميليا، حتى إن نسبة عالية من العاشقات أصــابهم وهــم مرض السل تمهيدًا للموت تقليدًا لهذه العاشقة البائسة، وهــو ما أدى بالكثيرين أن يكتبوا قصائد تحت أشجار الزيزفون مع أنهم لا يعرفون الفرق بين الفجل والكافور، فالنماذج الأدبيــة الغربية تخترق جوانحنا، وتؤثر فينا، وتعشش في جماجمنــا، خالي ناظر المدرسة الإلزامية (نوع من المــدارس القرويــة كان يسبق مدارس المعلمين) عشق مبكرًا معلمة مماثلة له في مدرسة بنات، كان يكتب في يومياته بكائيات ذات دموع من الجمل الطويلة التي تمزق الفؤاد، رآها في حياتــه مــرة أو مرتين، لكنه أنقذها من الغرق ومن الحريــق ومــن انهيــار الحوائط، ولما عرف أن أحد أصدقائه خطبهــا، بــدأ يشــكو الزمان وخيانة الخلان، لقد كان واقعًا تحت أثــر الترجمــات الباكية التي صاغها مصطفي لطفي المنفلوطي لحالات العشق الرومانسي في ذلك العصر..

غير أن أحمد أبو عواجة كان كائنا محليًا لا يثير الدهشة ولا يدفع للرقص على حافة الجبل انبهارًا. هو من حزام الأقصر الذي يلتف شاملا البياضية ولكرنك والقرى المتاخمة للمتحف الإبداعي العظيم بين إسنا وقنا، أي هؤلاء البنائين المبدعين الذين أقاموا تلك المعابد الشامخة بمسلاتها الشاهقة، وأصابعهم الساحرة التي تعزف على الحجر ما لا مثيل له في الكون، ومثل هؤلاء الناس صابرون دائمًا، وقانعون دائمًا.

ولا أعرف مدى إدراك أبو عواجة لذلك، كان أسمر أقرب للسواد، ذا عيون واسعة بالغة التألق- أحاول ألا أستخدم كلمة"جميل" لكني مجبر أن أقولها" كان أحمد أبو عواجة جميلا جمالاً رجوليا بقامته الممتدة وصوته المميز، وكان -أيضًا- جاهلا لا يجيد القراءة والكتابة، وقد لقنه زملاؤه بالتدريب القاسي كتابة اسمه بطريقة معوجة منحوتة يوقع بها استلامًا لأجره على ورق المرتبات، ثم إن أحمد أبو عواجة كان ودودًا شديد التواصل مع الآخرين، لكنه كان مجرد عامل في السد العالي، أقصى ما يمكن أن يتمتع به هو لقب"ملاحظ"، أو"ريس عمال"، وبالذات عمال التراب، أي هذه الفئة الدنيا من العاملين الذين يتحكم فيهم المهندسون

والإداريون ورجال الأمن والكاتبون، والذي يمكن بسهولة أن تنقله من إمساك الخرطوم لرش المياه تخفيفًا للغبار إلى مكتبك ليخبرك بأسماء الذين سألوا عنك في غيابك، أو يقدم لك كوب ماء فور جلوسك على مقعدك، كان أبو عواجة سريع الاستجابة للأوامر الصادرة بشراسة إلى نوع من الطلبات المرنة واجبة التنفيذ، والصفة المتألقة –والنادرة– في البشر، قدرته الفائقة على السيطرة على العمال، فعمال التراب كانوا دومًا – وفي مختلف العصور– مظلومين، منذ بناء الأهرامات المتعددة أو مصاطب سقارة، وحتى حفر قناة السويس، أو حتى في عز حكم جمال عبد الناصر، والذي أقر بأن عصره كان أزهى عصور العمال، لكن الذي كان يتحقق للعمال من مكتسبات، يتحقق أكثر منه لمن فوق العمال، مما يجعل البون واسعًا، والفرق مرهقًا، والكفاف غالبًا.

كانت قدرة أحمد أبو عواجة الفائقة في السيطرة على الآخرين هي التي رفعته من عامل تراب إلى ملاحظ أو ريس عمال، وهي نفسها التي جعلته قريبًا من قلب الإدارة، ذلك أن كثيرا ما يحدث الاضطراب بين تجمع عمالي وبين أحد المهيمنين على موقع العمل من المهندسين أو الإداريين،

كذلك فإن كثيرًا من العمل– بالذات من الإسماعيلية والقاهرة– كانوا يحصلون على امتيازات واضحة، وظهرت هذه الفروق في مصطلح: تعيين القاهرة– أو تعيين أسوان، فالذين يـأتون بخطاب تعيين من إدارة شركة"المقاولون العرب" من القاهرة، كانوا يحصلون على سكن مفروش للإقامة، وتـذكرة سـفر لبلادهم مع شهر أجازة في السنة، إضافة إلى وجبات غذائية يتناولونها في مطعم الشركة، أما تعيين أسوان – وكنت أنـا منهم– فليس لهم سوى أسبوع أجازة كل ستة شهور، فإذا كان تعيين أسوان من ذوى المؤهلات المتوسطة فله الحـق فـي وجبة غذائية واحدة، أمـا المـؤهلات الأعلـى، فقـد دأب أصحابها– فور الانتباه لهذه الفـروق الامتيـازات– علـى استصدار قرارات تعيينهم من العاصـمة، إن البيروقراطيـة المصرية كفيلة باستحداث الثقوب اللازمة لإنتاج أكبر عـدد من الفروق والعوائق والامتيازات والمكتسـبات الاجتماعيـة المانعة والحائلة دون وصول الثورة لأصحابها.

النسبة الغالبة من عمال السد العالي كـانوا – بطبيعـة الحال– تعيين أسوان، استفادوا بالقطع من قرار تحديد الأجر اليومي لأي عامل بخمسة وعشرين قرشـا، وكـان العامـل

العادي أيامها يتراوح أجره بين عشرة وخمسة عشر قرشًـــا، وكان العامل العادي أيامها يتراوح أجره بين عشرة وخمســة عشر قرشًا، لكن هذا التحديد قفز بأجر الطبقـــات والفئـــات الأخرى إلى المدى المناسب لجعل الفرق الشاسع قائمًا، حيث ظل هؤلاء العمال- تعيين أسوان- دون وجبات غذائيـــة أو تذاكر سفر، أو إجازات معقولة أو مساكن خاصة.

ولذا، فقد كانت في موقع السد العـــالي أســـباب كثيـــرة لحدوث تمرد أو عدم رضا في التجمعـــات العماليـــة، وفـــي الموقع الذي كان به أبو عواجة، ظل هذا الرجل هـــو الأداة الساحرة المهيمنة على أي تمرد أو غضب أو غليان، وعندما يأتي لنا الصراف كل ١٥ يومًا- يكون أبو عواجة هو المنظم والمسئول الأول حتى لا تحدث تلك الأمـــور حينمـــا يفاجـــأ العمال بخصومات من الأجور غير مقنعة، هو الذي يحمـــي الصراف من تصرف أهوج، والصراف ما ذنبه، إن تحديـــد المستحقات المالية تقوم به الإدارة المالية، هذه الإدارة التـــي تحدد ذلك بناء على أوراق إدارة الموقع الذي نحن بـــه، ولا يمكن لعامل أن يصل أبدًا إلى أي من كل ذلك، لابد أن يتوه دون إجابة.

كان أبو عواجة يعتقد أنه يخدم العمال، الناس غلابة وليس في استطاعتهم الدخول في مشكلة مع إدارة تستطيع فصلهم بموجب العقد المؤقت الذي يمكن إنهاؤه حسب الظروف، وفي الملمات الكبرى- البعيدة عن الصراف والأجور.. أي عند حدوث شغب بين الجماعات العمالية، كان أبو عواجة هو العلاج المهيمن العاجل، وما يكاد يظهر محتدًا وصارخًا وضاربًا صدره بكل كفوفه عضبًا حتى تنكمش الحركة والأصوات والتماسك والغضب، وذلك أن كثيرًا ما كانت المشاكل تقع بين أبناء بلدة وأخرى، ينقلون انفعالهم العصبي من قراهم إلى الموقع، وخطورة ذلك أنه يمكن أن ينتقل من موقع محدد إلى مواقع أخرى متعددة، إذ أن الموقع الكبير لمشروع السد العالي كان يغطي مستطيلا أبعاده تصل إلى عشرين كيلو مترًا داخل الصحراء الغربية، وكل موقع صغير -أي كل عملية- له إدارته من مهندسين وإداريين وأمن، أبو عواجة نجح كثيرًا في امتصاص أي شغب أو أي تمرد وقع في موقع.

هذا الرجل، أحمد أبو عواجة نفسه كان في مأزق دائم، إذ إن أباه محمد أبو عواجة معنا في ذات الموقع، وعامل

تراب أيضا، صحيح أن مهندس الموقع جامل أبو عواجة في عدم إسناد أعمال مرهقة لأبيه، وحظر على ذوي الشـــأن أن يضموه لعمال ارتاب وراء الكراكة والبلدوزرات وأماكن نقل الطمي، كما كلفه بحراسة مواسير نقل مياه النيل إلى موقـــع العمل"الشهيرة بطلمبات تنجارو"، حيث يجلس عمنا محمد أبو عواجة قريبًا من حوض الماء الذي ليس في حاجة إلـــى أي نوع من الحراسة، لكن الرجل والد أبو عواجة يظل عـــامًلا للتراب يمكن أن يقع في دائرة التجريح في أي وقت وهو ما حدث مرارًا، وكان أحمد أبو عواجة قادرًا على علاج الأمر المرير، إلا في حالة واحدة جاءت بعد ذلك بسنوات، حينمـــا فوجئ أحمد أبو عواجة بخروجه إلى المعاش لبلوغـــه ســـن الستين قبل أبيه محمد أبو عواجة الذي كـــان فـــي طريقـــة للخمسين من عمره المديد، والســـبب فـــي ذلـــك التنـــاقض المضحك، والذي أثار موجة من السخرية ضد الريس أحمـــد أبو عواجة، أن أحمد –الابن– تم تعيينه بشهادة الميلاد، أمـــا أبوه فلم يكن يملك هذه الشهادة، فأرسلوه إلى طبيب تســـنين الذي منحه عمرًا اتضح فيما بعد أنه أقل من عمر ابنه بفارق واضح، وطبيب التسنين– في كل أنحاء القطـــر المصـــري،

وربما في العالم الثالث كله- كارثة كبرى ومهزلة لا حدود لها، وهو الذي يكمن وراء تحديد سن تأهيل الزواج للصبايا اللاتي لم يصلن لهذه السن، (وأعتقد أن هذه المهزلة خفت كثيرًا الآن).

* * *

ظل الريس أحمد أبو عواجة ملكًا في هذا الموقع الخاص باستخراج الطمي من تحت الرمال في الصحراء الغربية إلى نواة السد العالي، ثم إلى جسم السد العالي، وأصبح شهيرًا ومستشارًا قريبًا من أي سلطة إدارية حكمت هذا الموقع، حتى بدأ الاستعداد لتركيب خطوط الكهرباء من أسوان إلى الإسكندرية، وفي اختيارهم للعمال النشطين، كان أحمد أبو عواجة -حارسًا دون حراسة لحوض صب مواسير تنجارو التي ليست في حاجة إلى حراسة، وأخذوا الريس أحمد، وقد افتقدناه في الموقع كثيرًا، كان حضوره في الجلسات والسهرات والمسامرات له تأثير كبير، وكان كريمًا رغم فقره، وشجاعًا رغم طيبته، لكنه لم يكن أبدًا أحمق أو غبيًا.

وخطوط كهرباء السد العالي خطط لها أن تقام أبراجها على الشريط الصحراوي الغربي المتاخم لحافة وادي النيــل، وكان واضحًا أن العمل كل فترة فور زرع الأبراج الحديدية العالية التي سوف تتحمل أسلاك الشبكة، ابتداء مــن منطقــة أسوان لتتجه شمالاً نحو القــاهرة والإســكندرية، ومضــى شهران حيث لم يعد باقيا بيننا وبين العمــال المســافرين إلا الذكريات التي كان يحظى أبو عواجة بقدر كبير منها.

وفي الشهر الثالث جاء إخطار مستعجل لإدارة الشركة في أسوان من محكمة مستعجلة للحجز على أجر أبو عواجة، من الحاجز؟؟ زوجته التي تزوجها من إحدى قرى كوم أمبو، ثم انتقل بعدها إلى الموقع"غير معلوم" دون أن يمنحها النفقــة الواجبة..!! هل أحمد أبو عواجة غيــر متــزوج؟؟ لا، إنــه متزوج وعنده –في قريتهم– عيال في المدارس، بسيطة، بل إن لديه زوجة من أسوان ذاتها تقيم في منطقــة الحكــروب، وبالتأكيد هي تنتظره صابرة دون أن يخطر في بالها مســألة النفقة الواجبة، بعدها بشهرين أو ثلاثــة وصــلت صــورة عريضة دعوى نفقة من قرية تابعة لمركز إسنا، وبدأنا فــي الإدارة ننتبه للأمر، وجاءت الأخبــار مــن مواقــع العمــل

المتحركة الخاصة بأبراج شبكة الكهرباء إذ ما يكاد معسكر العمل يقام في الصحراء، ويبدأ العمل، حتى ينساب أبو عواجة إلى أقرب القرى، في الظاهر ليضمن تأمين معسكر العمال لحاجته للغذاء والشاي والسكر والسجاير ومعسل الجوزة، وخلال ذلك –أي في الواقع– يتصادق بسرعة مع أهل القرية الذين يصبحون أصهاره بعد ذلك، ينتقل الموقع إلى منطقة جديدة، وأين كان أبو عواجة ينام مع عروسته؟ عند أهلها ما دام الأمر حلالا، وعلى وعد أن ينشئ لها بيتًا في أقرب فرصة، لاحظ أن البعض أرجع عدم هجوم القبائل الهائمة في الصحراء على معسكر عمال أبراج الكهرباء.. إلى أبو عواجة نفسه.

وكانت خرائط تقدم العمل مرفوعة على حوائط إدارة الشركة في موقع السد العالي، تأتيها التقارير فتضع الدوائر المناسبة على إشارات أبراج المنطقة الجديدة، والتي يراها رؤساء الشركة فيزدادون فخرًا، لكن الأمر بدأ يأخذ لونا مرحاً، إذ كثيرًا ما ترد تقارير إنهاء عمل في موقع ومعها من ناحية أخرى عريضة دعوى نفقة ضد أحمد أبو عواجة، وبعد أن كانت كل دائرة على الخريطة تعني التقدم في إنشاء

أبراج شبكة الكهرباء، أصبحت تعنى زواجًا جديدًا لأبو عواجة، حتى أت تأخر وصول أحدهما يشي بالقلق الساخر، وينم عن احتمالات عوقت العمل أو أبو عواجة، لكن التقارير وصحف الدعوى لا تلبث أن تتوالى بتقدم جغرافي يتصاعد نحو الشمال: في إنشاء خطوط الكهرباء اطرادًا مع زواج جديد لأحمد أبو عواجة، حتى في المنطقة المواجهة للبياضية، قريته التابعة للأقصر– تزوج من إحدى قراها، ليزحف إلى مشارف قنا ثم إلى سوهاج، وفي المنيا تغيرت بغض المسائل.

* * *

كانت من المفروض أن تلتئم دائرة أحداث أبو عواجة بالطريقة المعهودة الأمنية المسالمة، والتي صنعت حياة من الجذل والمرح الفقير في الصحراء الخاوية ففور استقرار معسكر إقامة أبراج الكهرباء، يبدأ أبو عواجة في"العس" أي التجسس الدقيق الرقيق لإحدى القرى أو أحد النجوع، وبعد ذلك يبدأ في اختراق إحدى العائلات التي يتشمم جمال إناثها، ثم– وقبل أسبوعين على الأكثر– يكون قد أوقع العائلة تحت سطوته ليتزوج من إحدى بناتها، وتكون الأسابيع القليلة

الباقية صالحة لأن يكون واحدًا منهم وزوجًا طيبًا لابنتهم، بعدها يبدأ الرحيل مع حملة الشركة شمالاً.

هذه المرة عرف الناس بأمر أبو عواجة قبل التحرك الأخير، ولذا فقد حملوا فئوسهم وعصيانهم وبنادقهم ومدافعهم ليحاصروا عمال المعسكر ومهندسيه وإدارييه وآلاته ومعداته، ماذا يريدون؟ أبو عواجة، وقام أصدقاء أبو عواجة باتصالات خائفة ومرعوبة بزعماء هذه الجموع جمعوا نقودًا من كل أفراد المعسكر وقدموها لهم مقابل مؤخر الصداق والنفقة، لكن الزعماء رفضوا، قدموا لشباب هذه القرية أربعين فرصة عمل ليلتحقوا بإقامة الأبراج، لكنهم رفضوا، نريد أبو عواجة فقط.

كان الموقف صعبًا وقاسيًا، وكبار العاملين- بل ومعظم العاملين في الأبراج- لم يتحدوا على مثل هذا الحصار الذي سوف يصبح حصارًا دمويًا عند أول بادرة، وكان تسليم أبو عواجة هو الحل الأمثل ليتحركوا بعد ذلك إلى منطقة أخرى، وأبو عواجة -في النهاية- مجرد عامل تعودت الشركة الاستغناء عن أمثاله دون تعريض أرواح العاملين للخطر، لكن العاملين من أبناء قرى قنا والأقصر استردوا بسرعة

أخلاق القبيلة وعادات القبيلة، وثارت كرامـة القبيلـة فـي إصرار، لن نسلم أبو عواجة وليحدث ما يحدث، حاول المدير التنفيذي ومدير التخطيط، ومن معهم من رجال أمن الموقع، دون جدوى، لقد قرروا عدم التفريط في أبو عواجة.

وبدأ رجال هذه القرية التحرك لمداهمة كل المعسـكر، وحينئذ خرج أبو عواجة من مكمنه. كان ذلك آخـر نهـار والشمس لا تود أن ترحل وهي تسخر بما سوف يحدث مـن مذبحة، حينما خرج أبو عواجة رافضًا توسل زملائه وأوامر رؤسائه، حيث سار قويًا رفيعا هادئًا طويلاً، حتى وصل إلى التجمع الفاتك.

وعندما اقترب منهم اعتلى تلا صـغيرا مـن الرمـال ليصبح أعلى وأعلى، وظل ممعنًا في الحشد وهـو يقتـرب، حتى توقف الحشد قريبًا منه، حيث رفع ذراعه –بالطريقـة نفسها التي كان جمال عبد الناصر يرفع بها ذراعه– وصرخ وهو ممعن: تعالوا، أهلا بكم، تعالوا، ثم انـدفعت عقيرتـه المجلجلة بأقوال لا يهم مدى انطباقها، لكن الحشد اعتقد أنهـا تنطبق، لابد من يوم ترد فيه المظالم، أبيض على كل مظلوم، أسود على كل ظالم،"من أشعار ابن عروس"، هل يجـوز أن

تنالوا من شخص واحد هو ابنكم؟ ومن الذي قال إن أبو عواجة راحل، إنني ابنكم قبل أن أكون أبن أي بلد أخرى، واندفعت أقواله تقتطع نصوصًا لحكماء، ومن القرآن الكريم ومن أقوال علي أبى أبي طالب، لا تعرف مدى صحتها، كان أبو عواجة قد هيمن على هذا الحشد الغاضب، استلب من الجميع الشراسة والانفعال والحدة كان"حاويا" من الرفاعية وقد سيطرة على ثعبان الصحراء الشرس الغليظ المتوحش، كانت عيون الرجل قادرة على امتصاص الحمى والحمية وإثارة مكارم الأخلاق والتحلي بالشيم القديمة المفتقدة إلا منهم.

سيطر أبو عواجة على الناس.

وتحرك أحد الزعماء إليه فتحرك أبو عواجة إلى الرجل، وأخذه بالأحضان، صارخًا: أنا ابنك يا والدي. وكان الحشد يبكي.

وسار معهم أبو عواجة ليعيش بينهم، واحدًا منهم، وصهرًا عزيزًا سوف يفتخرون بأبنائه.

وكانت هي المرة الأولى التي يرحل فيها معسكر إنشاء أبراج الكهرباء دون أبو عواجة، حيث تحرك إلى المنطقة التالية شمالا والعاملون يحكون ويقصون ويضحكون،

ويسخرون بما حدث ثم المنطقة التي تليها، حيث تكون بقعة الموقعة قد بعدت وناءت وتكون الحكاية قد أصبحت ذكريات.

وعلى مشارف صحراء الفيوم، كان الرجل الأسمر الطويل جالسًا ينتظر. وكان وحيدا.

وما كاد يرى حملة إقامة أبراج الكهرباء قادمة، حتى وقف.

لكن المدير التنفيذي أرسل في طلبه: يا أبو عواجة لا تنزل أية قرية نمر قريبًا منها، هذه أوامر وإلا فسوف أنهى عقدك. حاضر يا سعادة البيه.

لكنه لم يلبث أياما إلا واخترق الرمال منسابًا ومتسللاً لإحدى قرى الفيوم.

واكتشف مدير التنفيذ أن أبو عواجة قد شارف سن الخروج إلى المعاش. وعاد أبو عواجة إلى أسوان، ليكافح وينافح ضد عشرات قضايا النفقة مع استخدام أبيه"نعم أبوه" في جزء من معاشه، دون الاهتمام بأن أباه كان لا يزال في الخدمة.

عاد أبو عواجة إلينا وتركنا نهوم ونتحايل ونستخدم أعظم مصطلحات النقد في زوربا اليوناني وإعادة صلب المسيح وطريقة العجوز والبحر في اصطياد أسماك البحر الكاريبي.

رحلة إلى.. عيون

كل شيء قابل للجدل، ولإثارة المناقشة، عدا حكاية ملحقنا السياسي أو الثقافي أو الاقتصادي أو الاجتماعي، أو أي ملحقينا الذين يتسمون بالتهذيب والصوت الخفيض، وخصوصًا إذا ما كان هذا النوع من الناس المتميزين يعمل في مكان مهذب وذا صوت خفيض: استوكهولم أو كوبنهاجن أو أسلو أو فيينا أو برن أو بون. بعيدًا عن الضجيج الأفريقي أو الآسيوي أو الجنوب الأوروبي، أو الباريسي، أو اللندني، ففي الشمال– أي شمال في العالم– أو في أقطارنا أو حتى شمال قريتكم، أو نجعكم أو كفركم، تجد نوعًا من الأخلاق الدمثة، ومن الطيب، ومن الإنصات الحميم، لاحظ أني من قبلي: في الوطن وفي القرية أيضًا.

وبدلاً من تعويم الأمور سوف أقوم ببعض التحديد حتى يصبح التصور أكثر سهولة، غذ أن ملحقنا الثقافي في واحدة من تلك البلاد واجه أمرًا فريدًا لا أعتقد أن جميع من يعمل في مختلف السفارات واجه مثله من قبل: أبوه مات، وماذا في ذلك؟ يرحمنا الله جميعًا، والبقية في حياة سيادة الملحق، أبوه مات في جبل السلسلة، وجبل السلسلة يتمدد على حافة

الصحراء الشرقية قريبًا من مجري النيل بين أرمنت وكوم أمبو عابرًا منطقة إدفو، وهناك القبائل كريمة قوية تكره المعاداة، ولا تقع في مأزق الاحتكاك واشتعال القتال والثأر بينها وبين جيرانها كما هو في مناطق الصعيد الأوسط، وهذا يقلب مفهوم الشمال والجنوب الذي افتتحنا به الموضوع، وعندما كنت كاتبًا عند أحد المحامين في أسوان في أوائل الستينات، كنت أقوم بالتجول في هذه المناطق المتسعة الهادئة، وكان الروائي الجميل عاشق الحياة: صبري موسى (وهو غير موسى صبري- رعاكم الله) قد اخترق هذه المناطق ذات الجبال الشرسة، وعايش الناس على الجانب الآخر من هذه الصحراء الشرقية المطلة على البحر الأحمر: حماطة وأبو غصون وجبل الدرهيب وسفاجة، وغيرها من مواقع أجاد التعبير عنها في روايته الفريدة المتميزة: فساد الأمكنة، ومن ثم، وأثناء قراءتي لها مسلسلة تحت عنوان: في الصحراء، ثم في شكل روائي بعد ذلك، في مجلة (صباح الخير)، انجذبت إلى هذه الأماكن الغامضة الكائنة حية متفاعلة خارج تصورات الأدباء والكتبة حتى الآن، أو هكذا تبدو لي الأمور، وعندما – بعد سنوات – دخلت القاهرة

لأكون كاتبًا أصبحت صديقًا لصبري موسي، كنا ذات ليلة قاهرية نتكلم عن أبو غصون فخرجت -أنا- على خيمة كانت في شرم جبل، بعيدًا عن البحر الأحمر بمسافة قليلة، ودعاني رب الخيمة لاحتساء الشاي الشهير عندهم المصبوب في كوب صغير- العراقيون أيضًا يفعلون ذلك، شاي ثقيل، وتقضي التقاليد أن تحتسي أكثر من كوب صغير ثقيل زائد السكر، وكانت الفتاة التي قدمت لنا الشاي قد سترت رأسها بهذا الشال الجميل المعروف بخطوطه الملونة المتألقة والعريضة، لم يكن ظاهرًا من وجهها إلا عيناها، عينان واسعتان متألقتان. لقد شاءت لي ظروفي أن أعيش – أو أزور مناطق مصرية وعربية عديدة، وأن أدخل بيوتها، لكن هاتين العينين ستظلان متألقتين في غياهب ذاكرتي، وقب أن اصل إلى هذه النقطة مع صبري موسى، وجدت عيونه قد تألقت، وقفز إلى مجرى الحديث ليتناول نفس هذه العيون بالكلام المدهش معترفًا لأنهما لا تزال -أيضًا- متألقتين في غياهب ذاكرته، مع أن الفاصل بين الرحلتين -رحلته ورحلتي- كان في اتساع ثلاث سنوات جبلية شديدة الوقع والجمال..

جبل السلسلة يقع نحو مجرى نهر النيل، وفيه قبائل من العبابدة والبجة والبشارية وقبائل أخرى عديدة. بعض أجزاء القبائل لا يزال متنقلاً بين الجبال، وبعضها استقر قريبًا من وادي النيل، حيث التقيت -أيضًا- بالحاج ناصر وأخوته، شيخ العبابدة، وبيوتهم في قرية (البحيرة) قريبًا من إدفو. وكان كريمًا، هذا الكرم الذي أصابني بإسهال مدمر لأيام ثلاثة، مما عاقني عن السفر معه شرقًا داخل الصحراء فاضطررت أن أكون في رفقة أخيه حسب الله - الذي كان قليل الكلام، وكان الجميع أيضًا من الذين وجدت أثر صبري موسى عندهم.

من هذه المواقع، ومن بين هذه القبائل، كان ملحقنا الثقافي، والذي مات أبوه، حيث تقضي التقاليد والأعراف بعدم دفن الأدب إلا في حضور الابن الأكبر مادام حيًا، سيكون الأمر أكثر وضوحًا لو أني أشرت إلى مسألة بالغة الأهمية في هذا الخصوص. فمن الملاحظ أن عائلات وقبائل معينة- في الصعيد، وفي الدلتا هي التي كانت تحظى بإنجاب الصفوة- في ذلك العصر، عائلة خشبة والهلالي في أسيوط، محفوظ في الحواتكة، سيف النصر في ملوي، يتخصصون

في إنجاب الوزراء والسفراء وكبار المؤثرين في النظم والحياة في هذا الوقت. وعندما يكون الاستثناء الذي يثبت القاعدة، وهذه العائلات كانت لها أغطية أرستقراطية في قصور المدن والعاصمة والإسكندرية، يمارسون تربية الجياد ولعب البلياردو وأوراق البريدج وحضور حفلات أم كلثوم وعضوية النوادي العليا، ومنهم أفراد نبغوا في عزف البيانو وسماع الموسيقى الكلاسيك والمشاركة في إنشائها مصريًا. وفي الوقت نفسه فإن القطاع الريفي من هذه العائلات يعيش بالمعطيات التقليدية في الريف من احتكاكات وتنافس، وثأر وسطوة، وسنكتشف أن عبد الناصر حين قام بثورته تسبب في انحسار البراثن الريفية دون القطاع الأرستقراطي الذي ظل ينتج السفراء والملحقين السياسيين ولاعبي البلياردو والبريدج وأعضاء النوادي الرياضية الممتازة وعازفي البيانو وعشاق حفلات أم كلثوم، هذا ليس دفاعًا عن عبد الناصر، إنها الحقائق فقط، وهي أيضًا الحقيقة التي جعلت ملحقنا الثقافي المشار إليه يهرع لاتخاذ إجراءات سفره من شمال أوروبا فور اتصال وزارة الخارجية المصرية به، حيث لن يتم دفن أبيه شيخ القبيلة دون أن يكون القطاع الراقي من

العائلة في مقدمة المشيعين للجثمان الطاهر، وأولهم الملحق الثقافي بالذات.

* * *

عندما تحركت طائرة الشركة الهولندية من مطار أمستردام في الصباح المبكر، كان ملحقنا مرهقًا من الحضور المبكر أيضًا، من زمن لم يزر قبيلته في جبل السلسلة، تعود أن يلتقي بأبيه وإخوته في القاهرة- حيث يحضرون دائمًا- وفي إيقاع معروف من الجنوب للاطمئنان على الجزء المقيم في العاصمة، لكنه -وفي السنوات الأخيرة- انشغل ملحقنا في أمور كثيرة، كانت أوروبا خارجة توًا من الحرب العالمية الثانية، والعالم يعاد تفصيله وصياغته من جديد، وكل ملحق في إحدى السفارات عينه دائمًا على مقعد السفير، طبيعة البشر في أمنيات الترقي، وزوجته من أصول ألبانية- أصول العائلة المالكة ذاتها، مما أتاح له وضعًا خاصًا لكنه حين دخل الطائرة كان بمفرده. حيث حياه المعاونون من أرض المطار، وفور استواء الطائرة في الجو، وبعد أن رحب القائد بالركاب بالإنجليزية أو بالهولندية -لا أدرى- وبعد أن أشار إلى درجات الحرارة والضغط والرطوبة وموديل الطائرة

وارتفاعها في السماء بعيدًا عن وجه الأرض، قدم بصوته الهادئ عزاءه وعزاء طاقم الطائرة للسيد الملحق الثقافي، لقد صنع ذلك ابتهاجًا مريحًا في نفس الملحق الثقافي، هذا الذي فوجئ بواحدة من المضيفات تقدم له زهرة في ابتسامه العزاء الأوروبية التي تفيض سحرًا، بعدها وجد الملحق الثقافي نفسه في حاجة إلى النوم الذي تبخر عند هبوط الطائرة ترانزيت- في روما، تغير بعض الركاب، وعرفه زميل كان يعمل معه في نيودلهي- الهند- منذ سنوات. فلم يجد لديه رغبة في التوسع في الكلام بعيدًا عن أمور السفارات والسفراء، لم يخبره بوفاة والده هناك في جنوب السعيد، أحس الملحق أثر الأمر بهذه الكيفية غير ملائم للعصر، إن عدم دفن الأب حتى يكون الابن الأكبر في وداعه عرف ضاغط من زمن قديم كانت قبيلة فيه تسعى في بطن الجبل بحثًا عن الحماية من التقلبات الجوية، وعن العشب حماية لأفرادها وحيواناتها، كان الولد يركب الحصان ويطير فيعود بعد ساعات ومعه الابن الأكبر، أما الآن فالمسائل لم تعد تتسق. بعدها نام الملحق الثقافي مرة أخرى.

عندما توقفت الطائرة في مطار القاهرة، نظر الملحق – مرهقًا– إلى ساعته. سبع ساعات كاملة، قطع فيها قارة أوروبا كلها ودخل قارة أفريقيا.وفور نزوله كان أفراد من وزارة الخارجية في انتظاره بسياراتهم، أخذوه بالأحضان وتناثرت عبارات العزاء، وتحركت السيارات بسرعة إلى محطة مصر (رمسيس الآن) لماذا محطة مصر؟! ليأخذ القطار، آه، نسيت أن أخبركم بأن الطائرات لم تكن قد انتظمت إلى الأقصر وأسوان كما هي الآن، ربما تمر عشرة أيام دون أن تتوجه طائرة إلى هذه المناطق، الآن– استجابة لضرورات عصرية– تقوم إلى الأقصر وأسوان ما يزيد على خمس طائرات يوميًا، هذا دون حساب الطائرات الأصغر التي تعمل استجابة للطلبات العاجلة لزيارات كبار المسئولين، وماذا سيستقل ملحقنا الثقافي في محطة مصر؟! قطار النوم الذي يقوم من محطة مصر إلى أسوان في السابعة مساء وهو القطار الوحيد في العالم منذ إنشاء السكك الحديد في العالم الذي لم يطرأ على موعده أي تغيير، إذ أن خط الصعيد كان مزدوجًا (ذهابًا وإيابًا) حتى أسيوط، بعدها يصبح الخط مفردًا، وأي قطار معرض للوقوف جانبًا على قضبان

الانتظار الموجودة بالمحطات– حتى يمر القطار الذي يفرض وجوب مروره أولاً، حيث يصل إلى الأقصر في العاشرة صباح اليوم التالي. وكانت منطقة أسوان والأقصر– في ذلك الوقت– مخدومة بثلاثة قطارات أخرى من القاهرة: قطار في السابعة صباحًا يصل إلى الأقصر التاسعة مساءً ويصل إلى أسوان فجر اليوم التالي، وهو قطار فاخر أولى وثانية مكيفة فقط، ثم قطار ركاب الساعة الرابعة بعد الظهر به درجات ثلاث ويصل إلى الأقصر عندما تتاح له فرصة الوصول، ثم قطار في منتصف الليل لا أعرف عنه شيئا، ومن بين هذه القطارات كان قطار السابعة صباحًا –الفاخر– وقطار السابعة مساء– النوم– تابعين لشركة عربات النوم البلجيكية، وعندما بدئ العمل في السد العالي في أبريل ١٩٦٠– ولسنوات تالية كانت واضحة فخامة عربات هذا القطار، وكانوا يطلقون عليه القطار الملكي، حيث كانت العربات مزخرفة ومجملة بالأطر الذهبية. وعندما ركبته أول مرة مغامرًا– حبًا للاستطلاع– من أسوان عام ١٩٦٤. جابهتني الفخامة العارمة في المقصورات. ثم في عربة الأكل، وفي عربة المشروبات، لم يكن للفئات الشعبية أي موقع في هذا القطار،

سواء بسبب متطلباته المالية العاليــة، أو لعــدم قبــول إدارة القطار للاستمارات الحكومية التــي أفســدت وأتلفــت كــل القطارات فيما بعد، في عربة الأكل كان بعيدًا –وفي الركن– جالسًا الكاتب الألمعي محمد حسنين هيكــل ومعــه حســن التهامي النجم اللامع في حاشية الزعيم جمال عبــد الناصــر أيامها (انقلب حسن التهامي على عبد الناصر بعــد رحيلــه بشكل مسرحي واستعراضي يثير السخرية) واضطربت حين رأيت محمد حسنين هيكل، فهربت من عربة الأكل إلى حيث أقيم في الدرجة الثانية (نوم)، بعدها عدت إلى عربة الأكــل فلم أجدهن فجلست قليلاً في عربة المشروبات (البار)، كنــت أحس بأنني غريب، وكان القطار المتحرك من أسوان يقــف كثيرًا، لم يكن في هذه الرحلة أية متعــة، ولا ســيما حــين يحاصرك الليل فلا يمتد بصرك إلى ما وراء القطار..

أما أيام ملحقنا الثقافي فقد كان نفــس القطــار، ونفــس المواعيد، ونفس الزخارف الذهبية، الفرق أن عدد مستخدميه كان قليلاً – ما لم يكن في القطار وفود من السائحين– وبعد أسيوط ظل القطار يسرع، ثم يتوقف حسبما تقضي التعليمات والأوامر الخاصة بالسلامة والأمان على القضبان المفــردة،

وكان ملحقنا جالسًا في مقصورته وقريبًا منها سريره، حينما وقف ليريح نفسه قليلاً، تحرك، وخرج من المقصورة، كان عامل العربة الذي ارتدى زيًا خاصاً يعرف انه في خدمة الملحق الثقافي، ولذا، وكلما حاول أحد فتح باب عربة القطار أثناء هذا الوقوف، فإنه يسرع لمعالجة الأمر، لكنه بعد ذلك كان يضطر لفتح الباب وطرد الناس عنوة، إذ أن الناس في بلادنا –حين يقف القطار لا يدركون– في تلك العصور– إذا ما كان هو قطارهم المقصود، وبالتالي فيجب على عمال العربات التنبيه لذلك دائمًا، وكلما اخترق القطار بلادنا والشوم، وأي مساس بأي فرد هو مساس بالبلد كلها. عامل عربة القطار يعرف ذلك. ولابد من معالجة الأمور برفق. وطول بال. أشخاص مملوءون جهلاً وحسنو النيات يخترقون في لهفة جاهلة أي عربة في القطار، ومع الصراخ الدائم والتحذير الدائم من مسئولي العربات الفاخرة، فإن التجاوب يكون بطيئًا، لا تنزعج إذا ما خرج عمال القطار عن صبرهم ودفعوا بواحد –أو واحدة– عنوة خارج العربة، إن مشهد اختراق القطارات الفاخرة– في ذلك العصر وطردهم بهذه

الصورة، وما يحدث بين فترة وأخرى من سقوط البعض تحت عجلات القطار، لم يكن يدهش أحدًا في ذلك العصر.

لكن الأمر بدأ يأخذ اتجاهًا آخر بالنسبة للملحق الثقافي، كان الوقت يمر بطيئا ثقيلا وهو محاصر –ليلا– في مقصورته الخانقة، قرأ صحفًا وتململ، وقرأ صفحات من كتاب وتململ، وكتب نقاطًا ذات أهمية في مذكرته الخاصة، ثم تململ، وذهب إلى عربة الأكل ذات الطراز الأوروبي وتناول كأسين من الويسكي وظل يسرح بعيونه في الجالسين، حاول أن يرد كل ملامح وجهه إلى أصوله وجنسيته، أي حاول أن يعرف جنسية كل فرد من هذه الوجوه غير المصرية، كان الملحق الثقافي يمارس ذلك في العواصم الأوروبية، وقد وجدها ممتعة ومسلية الآن بالذات وفي هذا الوقت الذي يحبو على القضبان في ملل كالقطار تمامًا، وجه متألق بحمرة الألمان شخص يبدو طويلاً كالمارد ومعه فتاة قصيرة ذات ملامح آسيوية، واضح أنه يستمتع بهذا التناقض، واحدة– فريدة في ابتسامتها الرقيقة وذات جسد رفيع وكأنها ظل ممتد لراقصة باليه، أوروبا كلها تنفرط وتتحلل إلى

مجموعة أفراد، ثم أصبحت المسألة كلها مملة وبالغة السأم، ولم تكن الساعة قد تجاوزت منتصف الليل.

كان القطار قد ركن على رصيف محطة ثانوية حينما تحرك الملحق الثقافي إلى باب العربة، فتح له العامل الباب فرأي نفسه يخرج من القطار، وقف على الرصيف، كان الجو حارًا مناقضًا لجو القطار المكيف، وكان المكان يبدو خاليًا حينما جاءت امرأة –قروية– وهي تعدو وبيدها صينية وعلى رأسها شندة، والشندة هي نوع من الحصير المصنوع من جريد النخيل توضع عليها كمية اللبن المتجبن –أو المجبون– أي الذي أصبح جبنًا، وذلك لتخليصه من سوائل الشرش والأملاح، وللتمكن من صياغة الجبن بالشكل الذي يسهل به أن يصبح قطعًا، وتكون رائحتها –دائمًا– نفاذة بسبب عوامل تفاعل الأملاح مع الأنزيمات والنواتج اللبنية الأخرى، واندفعت المرأة –بحسن نية– إلى باب العربة المفتوحة، وألقت بأشيائها على أرض العربة دون اهتمام كبير بصراخ عامل العربة، ونشبت معركة مثيرة بينهما، والملحق الثقافي نفسه يتعاطف معها. أمر العامل أن يتوقف عن دفعها إلى الخارج، وعند نزولها مدت ذراعها كي تستند فكادت

تسقط، مما دفع الملحق الثقافي أن يمد ذراعه إليهـــا لتســـتند عليه.

كان الضوء الباهت القادم من أعلـــى الســـماء يســـمح للملحق أن يرى وجهها حين تناولها للخارج، لكن المرأة –مع ذلك– كبت على الرصيف، وكادت تســـقط، كانـــت عيونهـــا قادرة على أن تظل عيونًا في الظلام، لها ومضـــات بالغـــة السحر، وبالغة النفاذ، وقادرة على أن تصيب كـــل تجـــارب الملحق الثقافي بالانزياح جانبًا، وحتى بعد أن لملمت المـــرأة نفسها. وحين كان التعاطف الإنساني يتراجـــع للخلـــف، لـــم يستطع الملحق أن يرفع عيونه عن عيونها، حتى أنه –وفـــي انزعاج واضح– سألها: إلى أين يا ســـت؟؟ ركنـــت المـــرأة حاجياتها على الرصيف غاضبة، وكان صوت الملحق الثقافي المنزعج قد أصاب المرأة بنوع من الحرج، فأعطته ظهرها، وبدأت ـــ في صمت تنزوي –جالسة– بعيدة عـــن القطـــار الواقف وحيدًا في ذاك الوقت الليلي الذي يبحث عن بـــوادر الفجر، حيث تحرك إليها الملحق الثقافي، وأقعي على خلفيته جالساً، كان يود الاطمئنان عليها، كانت المرة الأولى التـــي يجلس فيها هذا الرجل هـــذه الجلســـة دون اهتمـــام بقواعـــد

البروتوكول التي مارسها طوال عشرين عامًا، ذلك أن طفولته كلها منذ ما يقرب من نصف قرن بدأت في هذه الأماكن، وذاكرته تحوي بقايا مشاهد لقصرهم الصغير في قريتهم الموغلة تحت أجناب جبال الوادي، وشيخ الكتاب يهتم به مبكرًا، قبل أن يرسله أبوه إلى باقي العائلة في القاهرة، فلم يعد للقرية مرة أخرى، كل أهله كانت عيونهم مصوبة نحو القاهرة، وقد فجرت عيون المرأة في ذاكرته شيخ الكتاب أولاً، ثم مشاهد معتمة لأعياد ومراجيح وقبول ورقصات خيول وأفراح عرائس ورقص غوازي، كان الملحق يطيب خاطر المرأة هذه التي ابتسمت. فازدادت عيونها إشعاعًا، كانت جميلة. هذه الملامح السمراء القادرة على احتواء العالم لتضيئه مهما كانت العتمة، وكان الظلام، حيث وقف صديقنا في هدوء طالبًا من عامل العربة أن يتيح لها الركوب في القطار..!!

لم يرفض العامل الذي تعود على خدمة هذه الشريحة الممتازة من راكبي القطار، لكنه اضطرب. فإذا بالملحق يأمره أن يسمع كلامه، وينفذ كلامه، كان الملحق غاضبًا، وكان يزيح كل رقة التعامل التي تعلمها وأصبحت جزءًا من

تكوينات علاقته بالبشر، أي بشر؟؟ فاخترق في هذه اللحظة العواصم المضيئة بما فيها من حفلات استقبال وكوكتيل وتعارف، والمثول بين يدي الحكام وأصحاب الأمر، مقصورات دور الأوبرا ومسارح البالية وقاعات الموسيقي، الجدل الهادئ حول هايدن وبيتهوفن وفاجنر، لحظات اندفاع المياه الموسيقية لهاندل تحت أحاسيس الرقة والفلسفة وأشعار طاغور وإليوت، والصياغات الجديدة لشكسبير، اندحار البجعة السوداء أمام رقة البجعات البيضاء عن تشايكوفسكي، استعراضات أزياء سان لوران في الخرف الماسي حيث التقي بأميرة موناكو، مذيعة راديو أوسلو التي حاولت إقناعه بأن يغني لحناً شرقيًا واستجاب لها لكنه اكتشف أن كل ألحان مصر لصالح عبد الحي ومحمد عبد الوهاب قد هربت منه، حتى ألحام أم كلثوم لم يتذكر منها شيئًا، هذه العيون التي تتحرك الآن لتدخل عربة القطار تكوين حي، شيء آخر، إشعاع غريب يجذب ملحقنا الثقافي جذبًا من كل أوروبا بعواصمها وأضوائها ومناقشاتها وحكامها ورائحتها وبروتوكولاتها. تجذبه إلى الخلف، الخلف البعيد حيث تتكور وتتقلص في نهاية آخر عمق من الذاكرة.

ودخلت المرأة عربة القطار بصينيتها وشنطتها، وجلست –في رضا– على أرضية العربة..

وانزوى حارس القطار مندهشًا أو ساخطًا.

عند ذلك جلس ملحقنا الثقافي على مقعد، ثم لم يلبث أن جلس أمام المرأة على أرضية العربة، ليصبح أكثر قربًا من هذه العيون.

ولا نعرف ماذا حدث بعد ذلك.

عام ١٩٩٦

الجميل القاسي المتضخم!

بدأ هذا العام ١٩٩٦- والذي سوف ينتهي في الساعات القادمة بإذن الله -هادئًا، وجميلا، ومحملاً بأمنيات عذبة، وحتى في رأس هذه السنة، ولأول مرة منذ أعوام طويلة، لم أغادر المنزل كي أنضم إلى الجماعات الفاحشة الصاخبة خلال تبادل أنخاب العام الجديد، بل واستقبلت العام باستعراض -ليلتها- لإنجازاتي الشخصية، السرية، والمعلنة، للعام السابق ١٩٩٥، فهالني ما كان فيه من أمور تشيب بشأنها الولدان، الظروف الشاذة والسخيفة التي أصابت ابن خالي الوحيد- والضابط الوحيد- في الجيش- من أهلي، والتي أودت بحياته، والابتزاز النفسي والوحشي الذي مارسه بعض ذوي الرحم ضدي استغلالا لما قد حبانا الله من أريحية وتساهل إزاءهم، ثم كانت - في ١٩٩٥ أيضًا- تلك الموجة الوجدانية العارمة، والتي دفعتني للبحث عن مصير من جمعتهن ظروف العمر الأول معي في تجارب مبكرة، تجارب صبيانية تثير المرح الحزين الهابط، أيامها كنا نتأثر بشاشة السينما وقصص إحسان عبد القدوس، وما إلى ذلك

من إنجازات تحملها ذاك العام المنصرم، ثم فاضت فاخترق بعضها عام ١٩٩٦..

لعل أخطر ما حدث في عام ١٩٩٦ هو وصول نتانياهو الإسرائيلي إلى الحكم، وقيمته الحقيقية أنه يمثل الوجه الحقيقي لإسرائيل الحقيقية. ونسبة المدارة والمواراة للأهداف الإسرائيلية ضد العرب أقل مما كان يداري به ويواري بيريز وصحبه السابقان، ونحن العرب انزعجنا من هذا الوجه المكشوف الذي يمارس به هذا الرجل سياسته إزاءنا. وكأننا نطلب منه أن يعود إلى الأسلوب الإنشائي الهائم العائم الذي يتكلم به هؤلاء الساسة وفي هذا الأسلوب الإنشائي كثير مما يرضينا ويجعلنا نعتقد أن إسرائيل قد غيرت من مفهومها (النازي) الاستيطاني الدموي وأصبحت دولة جديرة بالمدارسة والمباحثة، وفي الوقت نفسه تعمل المؤسسة العسكرية ما يتراءى لها وما تريده قتلا ومداهمة للفلسطينيين واللبنانيين منفصلة عن التصريحات المريحة والمباحثات الأكثر راحة، جاء نتانياهو ليكون الإسرائيلي الواضح سلوكًا وتصريحات وسياسة وتخطيطًا، وقح؟! نعم، سافل؟! نعم، لكنه وجه إسرائيلي حقيقي، وانزعاجنا الواضح نابع من أنه

يجبرنا أن نعيد ترتيب أوراقنا التي تطاير منها الكثير، وهـو ما أتاح لوجهات النظر المتشددة عربيًا، والتي معظمها فـي موقع المعارضة في بلادهم، أن تفرح فينا، وأن تشمت فـي السياسات الراهنة، وتعود للتنبيه إلى ما قالتـه أيـام كامـب دافيد، ولها كل الحق.

بعيدًا عن السياسة فإن التعويض الذي جـاء لصـالحنا حتى نتوازن عائليًا مع الكوارث: إنجاب ابني الأكبـر بنتًـا صغيرة سمراء مشاغبة، هي أول سيل الأحفاد، لاحظ أن أمي وخالتي وخالي وعددًا مهولاً من العائلة والأقارب يفتتحـون مواسم إنجاب الورثة بالبنات، فكـرت أن اسـتعين بمعامـل التأثير في خلايا الإخصاب بالهندسة الوراثيـة التـي يقـود فلسفتها الدكتور الصديق أحمد مستجير لتعديل ذلـك، ولـه كتاب جميل من جزءين عن عصرنا هو (رحلة فـي بحـر العالم) من أجمل ما قرأت هذا العام، والأعوام السابقة أيضًا، كما أن كتاب محمد الخولي- الذي يعمل في الأمم المتحـدة- عن القاهرة في الحرب العالمية الثانية- يحتل موقعًا ممتـازًا في العقل الذي يود أن يرى التـاريخ الصـحيح وعليـك أن تضيف كلمة الشاعر الكبير أحمد عبد المعطي حجازي

أمام وزير الثقافة فاروق حسني حول الأخطار التـــي تجابـــه اللغة العربية في مقام كتاب أيضًا، وقد استراح بهاء طـــاهر هذا العام دون إصدار الجديد من رواياته، واكتفى بإعادة طبع بعض المحصول السابق والذي تقف روايتـــاه: الحـــب فـــي المنفى، وخالتي صفية والدير على قمة متعة ١٩٩٥، حيـــث حصلت روايته الأولى على أحسن رواية في ذاك العام، وهو ما حدث لي (نعم هي نرجسية) مـــن حصـــول مجمـــوعتي القصصية: قيام وانهيار آل مســـتجاب علـــى لقـــب أحســـن مجموعة عام ١٩٩٥، وترتب عن ذلك إعادة طبعها ثـــلاث مرات في شهرين، وهو أمر نادر الحدوث لكتابـــات جيلنـــا، القصصية بالذات، وقد أدى ذلك إلى الاحتفـــال بنـــا- مـــع أصحاب كتب آخرين في تخصصات وأنشطة فكرية أخـــرى في مكتبة القاهرة الكبرى، كان العشاء جميلا فـــي الحديقـــة المطلة على النيل، وكانت هي المرة الثانية التي أحببت فيهـــا الحكومة منذ أن بدأت الكتابة، الأولى حين حصـــلت علـــى جائزة الدولة التشجيعية في الرواية عـــام ١٩٨٤ (الجـــوائز أعلنت أيامها عام ١٩٨٦)، وبعد العشاء الجميل المشار إليـــه أيام المعرض- أول عام ١٩٩٦- وحصولنا على مشغولات

تبدو ذهبية محفورة عليها أسماؤنا، استرحنا أيضًا من كتابة القصة، إنها منهكة ومرهقة وشديدة العذوبة أيضًا، مما أتاح لي إنجاز كتابين، الأول صدر عن هيئة قصور الثقافة (حسين مهران وشركاه) هو بوابة جبر الخواطر، وفي طياته سياحة حول عالم الأدب: قصة ورواية وتنظيرا ومؤتمرات وندوات، خلال الأعوام القليلة الماضية، وجهة نظري الخاصة عن كثير من كتابات أبنائنا وزملائنا وأساتذتنا، ولا سيما هؤلاء الذين لا ذهب لهم ولا منصب ولا شلة ولا موقع، والكتاب الثاني هو مجموعة أخرى من مقالاتي (حرق الدم)، وقد صدرت في سلسلة (كتاب اليوم)، حيث كانت المجموعة الأولى قد صدرت من سنوات، ثم كان صدور الطبعة الجديدة (السابعة) من بعض أعمالي السابقة في مكتبة الأسرة، وخلال ذلك أنهينا تأثيث شقتي الخاصة الواقعة على حرف شاطئ الإبراهيمية في ديروط، حيث أهرع إليها – بين وقت وآخر– لأنعم بالهدوء ولا سيما بعد أن استطعت تنقية أجوائي من ضجيج الحب المفتعل للأقارب والأخوات، كذلك فقد تخلصت– حتى في القاهرة– من كثير من الصداقات المرهقة نفسيًا، ولا سيما هؤلاء الذين لا يعملون ولا يتركون

غيرهم يعمل، واحد منهم يرى أن يصف القادرين على الحركة والكتابة والإنتاج نوعًا من السقوط الأناني في براثن الحكومة، وماذا تفعل أنت؟! لا نعرف، مجرد وجه كالح صامت يرقب الحركة في صمت الشهداء.

ومن ناحية تالية ستظل حفلات الأوبرا التي شاهدتها في العروض الأجنبية (وأعتقد أن لا يوجد نص أوبرالي مصري حتى الآن، وإن كان ثمة أصوات أوبرالية تعمل على نصوص لغوية وموسيقية أجنبية)، وأضيف إليها حفلات الأوركسترا السيمفوني المصري- بقيادة أحمد الصعيدي، وفرقة الموسيقي العربية بقيادة سليم سحاب، كل ذلك صنع انتشاء فينا للوجدان بكثافة لم تحدث لي منذ أوائل السبعينيات منذ كانت قاعة سيد درويش -القريبة من البيت- مركزًا لهذه الأعمال الفنية العظيمة، ثم لم تلبث أن تناثرت وتوزعت في أوقات متباعدة على مسرح الجمهورية، بعدها جاءت دار الأوبرا الجديدة، والتي أصبحت مزارًا أتوجه إليه كلما تثاقلت في الفؤاد رواسب السلوك غير المريح في الشارع الثقافي المصري.

* * *

ومن أهم الأحداث هذا العام –١٩٩٦– مؤتمر عبـــد الله النديم شاعر الثورة العرابية في الإسكندرية، أهميته تأتي على إيجابيات قد تزعزعها سلبيات التنظيم، وهناك عرفت الدكتور عبد الله سرور ذا الطاقة اللغوية العالية، كما راعنـــي هنـــاك رجل رأيته لأول مرة في حياتي – مع أنـــي زائـــر مـــداوم للإسكندرية وأدبائها، إن هذا الرجـــل فقيـــر رث الملابـــس ويحمل كمية كبيرة من الكتب والمجلات، كنت أقـــف أمـــام مديرية ثقافة الإسكندرية مع بعض الرفاق حينما ناولني فـــي إرهاق عددًا من مجلة"الثقافة الجديدة" التي تصدر من الثقافـــة الجماهيرية، وهذا العدد يحوي ملفًا عني وبعض نصوصـــي القصصية مع دراسات عنها لبعض الـــزملاء، واعتقـــدت أن الرجل يريد مقابلاً كريمًا ولا سيما أن هذا العدد صدر مـــن سنوات، غير أن الرجل رفض في خشونة، بل وســـبب لـــي حرجًا كأني سببت له إهانة فأخبرني الرفاق بأن هذا الرجـــل الفقير يفعل ذلك لوجه الله، وأحببت أن أتقصى عن سبب هذا السلوك الغريب، والمتميز، فأشار بعضهم أنـــه كـــان محبًـــا للثقافة ثم حدثت له ظروف أحبطته في الحقيقة لم يقولوا ذلك بالجدية اللازمة المناسبة لمثل هذا التصـــرف، مـــن ناحيـــة

أخرى تظل حكاية قبض الأمن المركزي في ديـــروط علـــى صديقي ابن المنصورة ياسر العدل، الأستاذ الـــدكتور بكليـــة تجارة المنصورة، أمرًا لا يمكن نسيانه، ذلك أن ياسر العدل يحب الرحلات، لكنها رحلات لا تنتهي عنه متعة المتفـــرج على الآثار والمناظر الطبيعية، دون الاحتكاك والتفاعل مـــع البشر، وبالتالي فقد زار الصعيد كثيرًا مستخدمًا عيونه فقط، أي دون امتزاج الناس، وهو يحاول أن يكون كاتبًـــا، ولـــه محاولات في ذلك، لكنها تتوقف عند الرؤيـــة دون أحـــداث، وصحبته معي إلى ديروط -بلدنا- فوقف مبســـوطًا ســـعيدًا، يصور مشاهد القناطر فوق ترعة الإبراهيمية وبحر يوسف، فتربص به أفراد من الأمن المركزي- ولا سيما أن ديـــروط تقع في خط طوارئ أعمال العنف من الجماعات المتطرفـــة، واصطحبوه مقبوضًا عليه إلى إدارتهم في مدينة القوصية، لقد استعدناه آخر النهار، لكن هذا الحادث أصبح مثل نقطة الحبر حين تسقط في كوب ماء رائق، وفي منتصف العـــام ظلـــت أختي الكبرى في مستشفى قصر العيني حيـــث بتـــروا لهـــا فخذها بسبب مرض عضال، لقد أدمت قلوبنا- وحاولت منـــذ البداية استبعادها، لكنه كان هروبًا لم أنجح فيه، وكـــاد هـــذا

الموضوع ينزف دمًا على أرواحنا وورقنا وحديثنا وكتاباتنا وتصرفاتنا، بعدها بأيام تمارضت أخت أخرى وادعت أنها سوف يستأصلون إحدى الكليتين، فقمنا بدفع المال الذي نراه جديرًا بمثل هذه العمليات الجراحية الخطيرة، ثم نما إلى علمنا بأنه تمارض وليس مرضًا، وأن الأمر انتهى فور حصولها على فدية الابتزاز، إن هذه المسائل تأخذ جلالها وبهاءها من سريتها، فكيف بالله تصبح الأمور سرية ما دامت تقع بهذه الكيفية؟ ولماذا لا تكون السرية وخشية الفضائح وراء الابتزاز المالي والنفسي من أقاربنا؟ وقد أدى بي الجدل في هذه المسألة الحساسة أن داهمتني أزمة قلبية، إذ أنني اشعر بضعف وتراحم نحو أخواتي البنات وأخي الأصغر، وهذا أمر قديم حتى قبل أن يرحل أبي عام ١٩٦٢، أمي لم تكن ترتاح لذلك، لكنها تصمت مع أن عيونها تقول الكثير، وخلال هذه الأزمة الصحية القاسية أعدت من جديد صياغة أموري، ولم يعد سهلا استدراجي، أو هكذا تبدو الأمور.

* * *

خلال عام ١٩٩٦ أيضًا بدأت الكتابة في مجلة"المصور"، لم أكن أعاني أو أجد صعوبة في الكتابة داخل مصر، وتربطني بمجلة"الهلال" بالذات علاقة عضوية منذ كتبت أولى قصصي فيها عام ١٩٦٩، لكن العائد المادي لا يشجع على النشر في مصر إلا هؤلاء القادرين الذين يحميهم وضع مادي خاص، ليكتفوا بالوجاهة الثقافية والشهرة العامة، غير أن أموري تختلف عن كل هؤلاء، وأثناء ظروفي المرضية أعدت النظر في غيابي عن الكتابة المنتظمة في مصر، وأمعنت في أكثر من عرض، وقع اختياري في نهاية الأمر على"المصور"، دعوني أعترف بأن ما أكتبه في هذه المجلة هو ما أريده دون أي تدخل، حتى الجمل الشائكة الحمقاء والتعبيرات الساخرة المعارضة، لا أحد يقترب منها، إن ذلك سبب لي نوعًا من الراحة النفسية لا تعادلها راحة.

* * *

سيول ١٩٩٦:

كانت فيما يروى- أكثر خطورة وأنتجت خسائر رهيبة أكبر مما حدث في الأعوام السابقة، ويقال إن الإعلام لم يكن

في مستوى هذه المصائب كما حدث من اهتمام سابق رافقته اهتمامات واضحة من جميع المستويات الحاكمة، وقد روى صديقنا الشاعر عبد الرحمن الأبنودي في يومياته بجريدة الأخبار ما حدث لقرية تقع فوق تلال قريته أبنود، لقد ذهب بنفسه، وروى ذلك بنفسه، وجهودنا- نحن الكتاب المستقلين- تنتهي عند الوصف وإثارة التعاطف، وبمناسبة الأبنودي، فقد نجحت مساعي الصلح بين قلمه وقبائل الهلالية، إذ إنه تناول حادث خطف الطائرة من مطار الأقصر إلى ليبيا بشكل رأى به الهلاليون- وهم قبائل متعددة- ما يمسهم، كان أحد الخاطفين للطائرة منهم، ولم يكن أحد الخاطفين للطائرة منهم، ولم يكن الأبنودي سيئ النية عند إبداء انزعاجه لذلك، وحجتهم- التي أؤيدها وأتعاطف معها- أن الفنان الشاعر له من المشاعر ما يجب أن يتعاطف به مع الذين تؤدي بهم الأحداث وتطورات الأفعال إلى ما قد يبدو للعامة أو لغير الفنانين أو للسلطة في عمومها أنه فعل أحمق، إن عبد الرحمن الأبنودي هو شاعر المهمشين والذين يكسرون قيود الضغوط عليهم، وبالفعل، عبد الرحمن الأبنودي يتسم بتعاطف ساخن وعميق مع آل حراجي القط وعائشة أحمد

عبد الغفار ومن شابه من أهالينا الذين يسرحون بين السطور وفوق السطور وتحت السطور، يحملون في جوانحهم العذاب والصبر والأمل، إن الأبنودي يتعاطف مع كل هؤلاء شعرًا، وسلوكًا، وله إسهامات مادية واضحة يعجز عنها كثير من أثرياء الأدباء، إسهامات تفوق قدرات الرجل العادي، رعاه الله.

لعل كتاب محمد عبد الفتاح عن ماري كويني هو واحد من أهم الكتب العذبة التي قرأتها خلال عام ١٩٩٦، من ناحية أولية هو أنني كنت أحب ماري كويني، حيث كانت أعلى من مستوى النوق وأحلام الصبيان المراهقة (مثل فاتن حمامة)، لكن جمالها كان ذا سطوة مبكرة على نفوسنا الغضة، ومع أن الكتاب لم يدخل عالم الأسرار الخاصة بماري كويني وأمها الراحلة الممثلة والمنتجة آسيا، ثم زوجها الممثل الذي لم يكن ناجحًا أحمد جلال، ومع ذلك فإن مجرد التأريخ لنجمة مثلها يضعها في مجال الثقافة السينمائية اللائقة بنا وبها، ابنهما نادر جلال يستكمل المسيرة في الإخراج ليصبح واحدًا من نجوم هذا الفن الآن، ومن ناحية أخرى فإن كتب الصديق أحمد عمر شاهين المترجمة عن القصة

والرواية لها أهمية كبرى في تجديـد المفـاهيم الكلاسـيكية والحداثية عن الفن، ثم هناك أيضًا كتابة المترجم عن جـان بول سارتر، والذي في مجمله كان حوارًا عميقًا بين فيلسوف الوجودية في نهاية عمره وواحد من شباب الكتاب المهتمـين بالثقافة، إن ما يقوم به هذا الصديق العذب في هذا المضمار يعطينا حق الإقرار بصنائعه الثقافية الجميلة، حتى ولو كانت مجهدة، وهنا لنا حق في الكشف عن جهود الشـاعر محمـد عيد إبراهيم في دأبه المثابر بحثًا عن أعمال أجنبية يقـدمها للقارئ المصري، داخل المطبوعات التـي يشـرف علـى إصدارها في الثقافة الجماهيرية، ثم قيامه أخيـرًا باسـتكتاب الأدباء ليتناولوا الفنون التشكيلية وأصحابها بنوع من الكتابـة الإبداعية التي تهيئ ذهن القارئ لتذوق هذه الفنون، هذا ركن ضعيف يكاد يكون فارغًا في المكتبة العربية.

* * *

ثمة عملية جراحية أجريت لزوجتي منذ أسابيع، وهـي الآن تتماثل للشفاء، ولذا فقد ظللت فترة مضطربًا، ثم راكنـا أنظر للعالم بعيون الكسول، متظاهرًا بالقوة وعدم الاستكانة، مرض أحد أفراد الأسرة اختبار لكثير مـن قـدراتنا علـى

الاحتمال، ومن ناحية أخرى فقد جاءني خبر من الصديقة نشوى الأزهري عن قرب صدر ترجمتها لروايتي (من التاريخ السري لنعمان عبد الحافظ)- إلى الفرنسية اشتراكًا مع ستيفاني، ولا أعرف الاسم الكامل لاستيفاني، لكنها دعتنا أوائل هذا العام إلى لقاء تعارف في مسكنها الذي يحتل سفينة صغيرة أمام ساحل إمبابة مواجهة مع الزمالك، كان الجو لطيفًا، وكانت ستيفاني بالغة اللطيف والجمال أيضًا، وكانت نشوى الأزهري تشيع في الجو نوعًا من الحبور الأليف، كذلك فإن صدور مختارات الصديق الفنان محمد بغدادي من أشعار عبد الرحمن الأبنودي يضع يدنا على تضاريس إنتاج هذا الشاعر الكبير، لقد عاني الأبنودي من بعض المنغصات هذا العام، ومن حقه علينا أن نحبه، ونظل نحبه، ونفرح دائمًا له كلما كان في المستوى الصحي والنفسي المأمول في ظل أسرته الصغيرة الجميلة.

* * *

من أهم علامات هذا العام المنصرم رحيل الرائد القوي الدكتور إبراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية، الذي ترك فراغًا واضحًا في هذه المؤسسة اللغوية الراقية، وإن كان -

في السنوات العشر الأخيرة- قد عانى من ظروف عاقته عن أن يكون كما عهدناه من قوة وحسم ونبل وقدرة على الحوار وإتاحة الفرصة لنا- نحن موظفي مجمع اللغة العربية- كي نبرز أفكارنا دون وجل أو اعتراض، لقد عايشت هذا الرجل ما يقرب من ربع قرت فأحسست بالمعدن النادر الذي يشكل كثيرين من رواد التنوير أوائل هذا القرن، كان الرجل متخصصًا في الفلسفة الإسلامية، وكان عضوًا لسنوات طويلة في مجلس النواب أو الشيوخ، وشارك في استجواب قضية الأسلحة الفاسدة التي تعد التمهيد النفسي لقيام ثورة جمال عبد الناصر عام ١٩٥٢، ثم- بعد كل ذلك- كان من أقوى الرجال بالمعنى الإداري الحازم دون أن يكون مغلقًا على رأيه الشخصي، كان رجلا عظيما.

وعند هذا الحد يصبح مناسبًا أن نترك عام ١٩٩٦ يذهب إلى عالم الذكريات لنستقبل عامًا جديدًا بإذن الله آملين أن يكون أكثر رحمة، وأكثر تحقيقًا لآمالنا، السرية والمعلنة.

هذا وذاك.. مع قليل من المشاكسة

كأن الرغبة في المشاكسة أصبحت الأمل الملتهب المعاصر عند الناس، يظلون مفغوري -أي مفتوحي- الفم أمام تفاهة مسلسلات التليفزيون، والتقافز- الذي لا جمال فيه- والذي يمارسه باسم الغناء أصحاب الحناجر الحديثة في هذا الفيديو كليب، ثم إن الكلمات المتقاطعة التي تقدمها الجرائد والمجلات بالغة السذاجة -وفي أحيان كثيرة تكون خاطئة (ما ينتج من النحل، والإجابة في ثلاثة حروف ستكون: العسل أو الشمع، ومع ذلك وجدتها- بعد مثابرة- اللسع، فأي سخف أكثر من ذلك). إن المهيمن على التحرير يعتقد أن الكلمات المتقاطعة موضوع ثانوي قليل الأهمية، وبعض الناس ذوي الشأن يخفون استمتاعهم بحل الكلمات المتقاطعة عن أفراد الأسرة، وكل هذا خطأ، بل وجريمة من الأصل: أن نترك الكلمات المتقاطعة لمن لا يجيد تجهيزها بشكل راق كي يصبح حلها ممتعًا، ثم إننا نخفي هذه المتعة عن أصدقائنا وأفراد أسرتنا على أساس أنها نشاط (سري)، إنني أسلم نفسي لنوم الظهيرة من خلال حل الكلمات المتقاطعة، أما القراءة – فإنها تحتاج إلى انتباه ويقظة وشدة

في التعامل، وخصوصًا في الموضوعات الصعبة التي تنتفي المتعة السهلة منها، أقول كل ذلك بسبب أنواع مــن رســائل المشاكسة التي تصل إلى درجة الردح والتشاجر..

فهل يجوز أن تأتيني رسالة تسألني عن أمي إن كانــت مسلمة؟! ولو عرفت أمي شيئا عن هــذا الخطــاب لقامــت بالسعي لتصل إلى عنق الذين أرسلوه، ثــم تشــعلها حربًــا انتقامية، واليوم -٢١ مارس- عيدها، وسوف نتوجه جميعًــا إلى الحوامدية جنوب الجيزة كي نقدم لها الطاعــة والــولاء وقطع القماش والمناديــل وزجاجــة -أو زجــاجتين- مــن الكولونيا متعددة الخمسات، لكنها سوف تهمس -آخر الأمر- في غضب مكتوم: أين المصلية؟- أي سجادة الصلاة- هي لا تشبع من كثرة استئثارها كل موسم بسجادات الصلاة، انتقامًا من أيام كانت تصلي فيها على الحصير، ثم هنــاك رســالة أخرى ذات خط مدبب واضح النسائية، تنبهني إلى أن واحدًا من أقاربها أساتذة جامعة أسيوط يحكى أنني كنت طالبًا عنده في الكلية، وأنني مشاغب ذو أخلاق شرسة، ولهذا فصلت من الكلية، وأقر وأعترف بأن هذه الرسالة أســعدتني، لاتهــامي بأنني من أبناء الجامعة- ولو لم أتخرج فيها، غير أن الواقع

المؤلم يقول بأن جامعة أسيوط أنشئت أوائل الستينات وأواخر الخمسينات، حينما كنت عاملاً بمعامل أبو الهول للسينما في الدقي بالجيزة، مكان محلات عبد الرحيم عمرة بتاع الأثاث، وكنت أتقاضى ستة جنيهات شهريًا، وهو مبلغ زهيد حتى ولو كان العصر رخيصًا، القليل قليل، والواقع المؤلم أيضًا يقر بأنني لم أدخل الجامعة –أي جامعة– في حياتي إلا من سنوات، أي لكوني ضيفًا مبدعًا يصلح إبداعه لكي يكون موضوع حوار مع أبنائه الطلبة، وأنا لا أميل للمصمصة والثرثرة في هذا الموضوع البايخ، ذلك أن اتجاه البعض – ممن فاتهم قطار التعليم العالي –لنوال الإعجاب بالكفاح والاعتماد على النفس– وما إلى ذلك من (عقد عقادية) كانت مناسبة لعباس محمود العقاد، وأدت إلى اشتعال إعجاب الجماهيرية به على خير درجة وكثافة، أما الآن فإن التجربة بشقيها: الحياتي والثقافي، إضافة بالطبع إلى الموهبة الأصيلة، وهي التي تصنع المبدع، إن عددًا مهولاً من الزملاء المبدعين المهيمنين على الحركة الأدبية العربية المعاصرة، لم يحصلوا على الشهادات الجامعية، فلإبداع ليس جدولاً وظيفيًا، غير أنني أشير بكل ثقة بأن الدراسات

الجامعية لها أهميتها المؤثرة في تنظيم عقل المبدع، ولا سيما أن الإبداع لا يؤتي أكله لمجرد أنه إبداع. إن الإهمال في الحصول على الشهادات الجامعية (تحت وطأة تأثير الحالة العقادية) يجب أن ينتفي ويلغي إلغاء تامًا، إذ لا يزال هذا الجيل – الذي ينتمي إليه– يعاني من عدم إجادته للغات الأجنبية، وعدم استمتاعه بقراءة النصوص في لغتها الأصيلة، كما لا يزال كثيرون منا مصابين بقصور في التذوق الموسيقي والتشكيلي والجمالي، وإدراك فلسفة الرحلات والانتقال، وضعف في آليات وقواعد اللغة العربية، ولو شاءت الظروف وقام أحد الدارسين المهتمين بالنص الأدبي– مثل الدكتور شاكر عبد الحميد مثلا– فنشر مسودات وأصول كتاباتنا، لهالكم مدى ما فيها من أخطاء وعدم إدراك الأسس اللغوية في النحو والأسلوب وغياب فن الترقيم الأسلوبي، إن البعض يعتقد أن هذه الأمور شكلية، حتى المجلس الأعلى للثقافة منح جائزة الدولة التشجيعية لرواية (ركيكة الأسلوب) كما جاء في التقرير، غير أني أود أن أزيد على ذلك أن الكاتب نفسه غير مدرك (جاهل) بعلم النحو والصرف، ويريد أن نعتبر ذلك تطويرًا في فن الكتابة

العربية واستحداثًا لها، الجهل بقواعد اللغة العربية استحداث، وركاكة الأسلوب تبيح الحصول على جائزة الدولة الأدبيـــة، الناس يزعمون أن المجلس الأعلى للثقافة يختـــار النمـــوذج الذي يحتذى من النصوص المرشحة فإذا ما كان الأمر قائما على غير هذا يصبح الحصول على هذه الجائزة يتم بطريقة (الثلاث ورقات) _لاحظ أن صحة التعبير لغويا (الورقـــات الثلاث)، لكن المحافظة على السليقة الشعبية تقتضي (الثلاث ورقات)، تمامًا كما يتساوى ذلك مع أمور كثيرة ينجح فـــي الاستئثار بها المتحنجلون المتراقصون دون توافر عناصــــر الاستحقاق فيهم، وهو ما يجعلنا نجنح قليلاً إزاء هذا العصر الذي خرج علينا بقواعد للفوز لا يملكها المستحقون للفور.

تعمدت أن أسقط من هذه الرسائل أسماء كاتبيهـــا– إن كان لها كاتبون أشرار أو ذوو نيات حسنة– مع أهمية التنبيه إلى ضرورة وصول الكاتب إلى الناس بوسائل إبداعية ثقافية (النص الأدبي) دون إثارة إعجاب الآخرين بمسائل لا علاقة لها بالنص الأدبي، مثل العيوب والعوائق الجسدية أو التـــي تمس قدرات الحواس، أو الفقر، أو السجن أو المـــرض، أو عدم التعليم الكافي، سيظل التعليم لأقصى درجات التعليم هدفًا

راقيًا لا عوض له ولا بديل، وكل أنـــواع الكفـــاح لا تعنـــي التقليل من شأن هذا العنصر المهم جدًا في الثقافة الإبداعيـــة في جميع الفنون.

لكن رسالة لها أهميتها -بالنسبة لشخصي على الأقـــل- جاءت من السيد أحمد أبو القمصان من منفلـــوط، يســـألني أ يستفسر عما إذا كانت إجادتي للغة العربية ترجع إلى عملـــي بالمجمع اللغوي، وسوف أشكر صاحب الرسالة الذي هو من بلد جنب بلدنا- على لفظ الإجادة للغة العربية الذي وصـــفني به حتى لو كان مجاملاً، لكنه يغفل عن بعض الأمور التـــي جعلته يعتقد أن كل من كان في مجمع اللغة العربية فلابد أن يكون مجيدًا للغة العربية، وهو ما يمكن أن ينســـحب علـــى عمال وموظفي مصلحة الكيمياء (وزارة الصناعة) الذين لابد أن يلموا، ويجيدوا، ويستوعبوا، علـــم الكيميـــاء، كالطبيعـــة والرياضة والأحياء؟ من أول الموظف المسئول عن حضور وانصراف وغياب موظفي مصلحة الكيمياء؟. وما قد يتســـع أكثر فينصرف إلى مـــوظفي شـــئون العـــاملين والمخـــازن والعلاقات العامة والعلاقـــات الخاصـــة وأعمـــال المتابعـــة والصادر والوارد والخدمات المعاونة؟ وهل يمكن النظـــر -

بالتصـــور نفســـه- إلـــى وزارة الخارجيـــة- المفعمـــة بالمتخصصين في الدبلوماسية فيستبعد كل الخلايا العاملة في هذا المكان والتي تضم تنظيمات كاملة ممـــن لا يجيـــد ولا يدرك ولا يفهم في علوم السياسة والعلاقات الدولية؟ بـــل إن بعضهم -بالتأكيد- لا يجيد القـــراءة أصـــلاً!! ثـــم دعنـــي أصارحك: هل لو كان جارك طويل البال شديد المرونة فـــي مواجهة الأحداث، يكون ذلك راجعًا لمكان عمله بصفته أمين مخزن مطبوعات جنوب أفريقيا بوزارة الخارجية؟؟

فإذا تكن هذه الأسئلة تكفي لأقول لك إنني جئـــت إلـــى مجمع اللغة العربية من شركة (المقـــاولون العـــرب) التـــي ساهمت في إنشاء السد العالي بسبب هذا الغضـــب المـــروع الذي عاملني به المرحوم المهندس جمال البطراوي -عضـــو مجلس إدارة الشركة ومدير عـــام المشـــروعات الخارجيـــة حينذاك- حينما عرف أن مجلة (الهلال) نشرت لي قصـــتين متواليتين، أي قصور يراه في عملي الوظيفي فإنما هو راجع -من وجهة نظره- لانشغالي بكتابة القصـــص، إنـــه يريـــد موظفًا وليس صحفيًا - بصفته لا يعرف الفرق بين النشاطين الصحفي والأدبي، ثم كان إبراهيم شهاب- مدير فرع أسوان

أثناء إنهاء آخر لمسات السد العالي، الذب رأى في غضب جمال البطراوي في القاهرة والعراق، مبررًا لأن يضطهدني في أسوان ذاتها عند عودتي إليها، كنا في نهاية حكم جمال عبد الناصر عندما اتصلت به الدكتورة حكمت أبو زيد- - في أواخر ١٩٦٩- كي يأذن لي بحضور المؤتمر الأول الشهير لأدباء مصر في الزقازيق، لكن إبراهيم شهاب رفض، ثم أسس رفضه على أنني مجنون، أسير في الشارع عاريًا وأجلس في البلكونة عاريًا، اتهام رخيص لم أكن أعرف أنه أحاط بسمعتي في السد العالي- الذي كنا نقيم في مستعمرته دون وجود بلكونة واحدة عندي أو عند غيري، كانت مجرد (بلوكات)، وفور أن عرفت بما لوثني به صاحبنا هذا، سعيت للنقل من الشركة، وساعدني أناس طيبون منهم الوزير ثروت عكاشة الذي نقلني إلى وزارته في القاهرة، وكان مجمع اللغة العربية يتبع وزارة الثقافة أيامها، فانتقلت إليه لأعمل في الجهاز الإداري بالمجمع اللغوي، والذي يماثل أي جهاز إداري في مؤسسة، هو قائم لحماية اللغة العربية، لكني لم أذهب إليه لهذا السبب حتى لو كنت – بالمصادفة البحتة- أديبًا، وإحقاقًا للحق فإن وجودي

في المجمع اللغوي أتاح لي أن أفخر بأن رئيسي هــو طــه حسين، الذي يختلف بالطبع عن جمال البطراوي وإبــراهيم شهاب، مع أن نسبة احتكاكي بالرئيس طه حسين نادرة جدًا، فقد كان عمالقة الجهاز الإداري والفني فــي المجمــع علــى اتصال به دون صغار الموظفين، لكني التقيت بكاتب كنــت أحفظ كثيرًا من وسائله الأسلوبية في قصصه ورواياته، محمد عبد الحليم عبد الله، ثم الكاتب الكبير صاحب (العــودة إلــى المنفي) محمد أبو المعاطي أبو النجا، وهذا الأخيــر أفــادني كثيرًا في جدله الدائم معي، وعدم رضاه عني لأني (ناشز)، وكان في درجة وظيفية أعلى، ويعمل في الجهــاز اللغــوي للمجمع، إنسان مهذب، يمكنه أن يقتلك حتــى لا يصــارحك بأمور يتكلم فيها كل الناس، نجحت ألا أكون مثله، أما محمد عبد الحليم عبد الله فقد رحل ســريعا دون أن أقتــرب منــه اقترابًا كبيرا لكني راقبته، كان طيبًا شديد الاعتزاز بكرامته، وقد أدى ذلك إلى مصرعه، واستفدت حينــذاك بمــا ينتجــه المجمع اللغوي من معايرة ودراسات للأصول والمصطلحات اليومية الحضارية، ومن معاجمه في اللغــة، وفــي القــرآن الكريم، وفي العلوم المختلفة: الطب وعلم النفس، والاجتماع،

والصيدلة، والأحياء، وعلوم المياه، والجغرافيا، وغير ذلــك، كان الدكتور إبراهيم مدكور الرئيس والأستاذ خير من أدرك ما أنا فيه، وساعدني كثيرًا، بل وحافظ على إزاء الهجمــات المتوالية من البيروقراطية المصرية التي تحب وتتلذذ وتسعد بانتهاك المواهب، وتلقي بين وقت وآخر بموجات من الأفكار الضالة المفترسة، خلا كل ذلك اطلعت على كثير من البحوث اللغوية التي لا علاقة لها بعملي اللغــوي لا يتحمــل أدبــاء جادين من موظفيه، وقد عذب المرحوم عبد الحليم عبــد الله هذا الأديب العظيم يرفع دعوى قضائية ليسترد حقه، وعلــى أي شكل من الأشكال فإن استفادتي من المجمع اللغوي تأتي لأسباب شخصية وليست وظيفية، كنت قويًا في اللغة العربية قبل المجمع، وبعد المجمع سأظل أيضًا- رعانا الله جميعًا.

الدكتور محمد حسن غانم -من حلوان- أرسل دراســة نفسية (سريعة) عن بعض قصصي القصيرة: (القربان، عباد الشمس)، كما أنجز -كما قال فــي رســالته- عــددًا مــن الدراسات النفسية حول: بيع نفس بشــرية لمحمــد المنســي قنديل، خالتي صفية والدير لبهاء طــاهر، صــاحب البيــت للطيفة الزيات، وستر العــورة لســعيد الكفــراوي، ووادي

السلطان لإسماعيل ولي الدين، والنداهة وحادثة شرف والمرتبة المقعرة وسره الباتع ليوسف إدريس، والزعبلاوي، وأهل الهوى والحقيقة والقناع لنجيب محفوظ، وهو –بعد كل هذا الجهد– والمرفق معه مجموعة قصصية من تأليفه عنوانها (قتل عضو مجلس الشعب)– يلوذ بي كي ينشر بعض ما أفرزته قدراته النقدية.

وسيكون مؤلما ألا أكون المعاون المناسب في نشر كتاباته، لأنني أرى أن يتوجه الكاتب بنفسه إلى الدوريات المهتمة بذلك، وأي كاتب منا يسعده أن يكون موضع اهتمام الدراسات، لكن الأمر يجب ألا يتجاوز هذا الإعجاب، صعب يا دكتور أن يرعى الواحد منا هذه الدراسات ويسعى في نشرها، بل إنها أمور لا يصح أن يمارسها أحدنا بالمرة لأنها مكتوبة عنه، وحتى ولو كان كثير من الأساتذة الأدباء يقومون بذلك، هناك مسألة أود أن ينتبه إليها وهو أن عامل الاستعجال يؤثر في إتقانه لهذه الدراسات، ولعله من المدهش أن يكون اهتمامك بالأدب واسعًا شاملاً كل هؤلاء الأدباء (في سلة واحدة إسماعيل ولي الدين مع باقي الجماعة المناقضة لاتجاهاته)، إنني سعيد بك دون أن أقدم أية مساعدة، لأنني لا

أملك ذلك، بالمناسبة فقد عجزت عن قراءة مجموعة قصصك (قتل عضو مجلس الشعب) بسبب سوء الطباعة مع أن أسلوبك جميل وأفكارك ساخنة، اذهب مباشرة إلى المجلة التي تراها مناسبة لك ولا تترك مقالاتك لغير مسئولي التحرير.

السيدة (س.أ)- من رفح تسألني عن سبب حبي للصياعة والصعلكة، وعما إذا كان ذلك يؤثر على حياتي. دعيني يا سيدتي أعترف بحبي وعشقي -بالفعل- للصياعة والصعلكة، لكن هذا لا يؤثر على حياتي لأني لا أمارسهما بسب ارتفاع تكاليفها عن حياة الاستقرار والخمول والنوم بعد صلاة العشاء مباشرة. أود أن أشير إلى أن النظرة الأخلاقية لهذا السلوك الذي يرفل فيه الصعاليك والصيع، إنما هي نظرة ظالمة، ألمر يحتاج إلى نظرة وعي وإدراك، إن هذا العالم فيه من البهجة مما قد لا يتحقق مع أي استقرار.

السيد عبد الفتاح أحمد المورلي من الإسكندرية يخط رسالة طويلة موجزها أننا تركنا الحبل على الغارب للكتابات التي تدعي الحداثة فأصبحت تيارًا عارمًا، وهو التيار الذي امتلأ بالألفاظ النابية والمواقف السخيفة المناقصة للدين

والأخلاق والذوق السليم، ويرى أن يعقد مؤتمر لمناقشة هذه القضية.

المؤتمر الذي تدعو إليه منعقد الآن على قدم وساق ليحارب ويطارد أية أفكار يراها البعض نابية أو جارحة أو تتسق مع الدين الحنيف، وهو أمر يثير الاندهاش، إذ أن كتب التراث –الديني أو الفكري– بها الكثير مما يعتبر ممجوجًا وسخيفًا ونابيًا، ومع ذلك ظل احترامنا قائمًا لهذه الكتب دون اهتمام – بالمرة– بتلك الألفاظ، الأغاني وألف ليلة وليلة اخترقا كل العصور، وكل الثقافات، مع ما فيهما من ألفاظ ومواقف تخجل، كما أن كثيرين من المؤلفين المعاصرين والفنانين التشكيليين– قديمًا وحديثًا– يرون أن الإبداع كل متكامل لا نبو فيه ولا سخف ولا قلة أدب، وأن تكوين الإنسان، وتصرفات البشر هي الحقيقة الكامنة وراء الإبداع، وهذه مسألة مختلفة عن السلوك الذي يجب أن يكون مهذبًا، سوف أضرب مثلا مدرسيًا: هل يضطر الطبيب أن يلتف حول أعضاء التناسل رافضًا الدخول في تكويناتها بسبب ما يختمر في العقل من وظائف وألفاظ؟ هل ننزع من علوم الأحياء والتشريح والعلاج الموضعي هذه المسائل كي يظل

العلم مهذبًا؟ ومع ذلك فإن تناول بعض الأدباء لمثـــل هـــذه الموضوعات- الشائكة أخلاقيا- يتم في أضيق الحدود، وفي مساحة اقل مما استعمله الأجداد، عندنا وعند غيرنا من الأمم والثقافات، الفن إحساس راق وعالي القيمة يرتفع بمـــا نـــراه نابيًا وسخيفًا إلى درجة من السمو لا يجوز لنا أن نسقطه بها أرضًا، صحيح أنني أرى - من وجهة نظـــر خاصــــة- أن الأديب الحقيقي يمكنه أن يعبر عن أكثر المواقـــف حساســـية بطريقة تحول دون التعبير الفج- أو الذي يراه الآخرون فجا، لكن الصحيح أيضا أن حرية الإبداع يجب ألا تخضـــع لأي عائق أو حصار. ويصبح الجو مناسبًا كي نطرح للجدل مـــا ورد في رسالة الأخ ساويرس عطية - من بني مزار، والتي يرى فيها أن هذا العصر الذي نعيشـــه عصـــر الأقـــزام، لا بطولة فيه، ولا قيم أخلاقية، ولا أدب عالي القيمة، وما إلـــى ذلك من توصيفات يجب أن نراعي الموضوعية في رصدها هنا، والحقيقة أن عصر الأقزام مقابل عصر العمالقة يضعنا في معادلة هابطة، فكيف يمكن لنا أن نتهم الأقزام بأخلاقيات وضيعة؟ ومن قال إن الأقزام لا قيم عندهم ولا مبادئ؟ ولماذا لا يتسم بعض العمالقة بما يتسم به بغض الأقزام؟؟

غير أنه من الملاحظ أن كل واحد منا يسب العصر الذي يعيش فيه، إنها سمة غالبة في الفكر المتمرد الذي يصطدم دائمًا ما هو كائن وقائم، في كل العصور سوف تجد مفكرًا أو أديبا يدعو إلى لعنة عصره، وعدم رضا المبدع عن عصره لا يعني -بشكل مطلق- أن العصر يستحق ذلك، هذه عملية تدخل في خصوصية التمرد، غير أن ما نحن فيه الآن يدعو لعدم الرضا، الأفكار والسلوك والفضائح، والرشوة والفساد المتفشي في النظام الأسري، والتكالب على المال دون اهتمام بالوسائل، وغياب المشروع القومي الذي يجمع الأمة حوله، واضطراب المجتمع مع سقوط قواعده وأساساته، وتقلص التقاليد وسيادة الفهلوة، واختلاط الأوراق، والعنف، والدم الذي يقومون بتهميشه إعلاميا بدعوى المحافظة على الوطن- مع أن المواجهة الصريحة هي لب سلامة الوطن، والزج بقيادات هذا الوطن لحساب التعصب، والتمويل الخارجي السري لأنشطة تحاصر أعصاب بلادنا، إذ أن الأمة المصرية- خلال تاريخها الطويل- كانت هي الأساس الضخم القادر الذي تلف وتدور حوله بقية أمم منطقة الشرق الأوسط، الأمة المصرية لا يمكن قياس أمة بجوارها في المنطقة طوال التاريخ كله، والواضح الآن أن هدف كل دول المنطقة -بدرجات متفاوتة- هو إتعاس هذا الشعب

المصري والحد من إحساسه المصري العربي وتهميش دوره واختصار قدراته، والسعي الدائم كي ينكفئ على جراحه فلا يرى ما حوله، هذا الانكفاء المملوكي المؤلم الذي نرى ظواهره واضحة، والمؤامرة واضحة، ولا سيما بعد أن تم تدمير العراق وامتصاص بترول وأموال منطقة الخليج، وحصار ليبيا، وإدخال السودان في دائرة التمزق، واعتبار لبنان والأردن وسوريا مناطق تحت الابتزاز، كل هذا يتم لحساب حصار هذه الأمة المصرية بالذات، حتى لو كان ما أراه نرجسية سوداء، لكن الزج بالمشاكل وإثارة النعرات وإلقاء القاذورات على جسد هذا الوطن تبرر لي ما أفكر فيه، ويجب أن يدرك أبناؤه أبعاد كل هذه المؤامرة الواضحة، والتي تستنزف القدرة المصرية العربية، وتحليها إلى دخان يفسد كل الأجواء.

أعرف أن الجزء السوداوي من النفس الممرورة يطفو فوق سطح سطور اليوم، لكن ما باليد حيلة، أو ما بالنفس راحة، أيهما أكثر وخزًا، حتى لو كانت الرغبة في المشاكسة أصبحت هي الأمل الملتهب عند الجميع، لنظل جالسين مفتوحي الأفواه أمام التليفزيون.

سيدة القطار

تتمدد خطوط القطارات– في بدن الصعيد– كما يتمـــدد النهر والمواويل والتقاليد والثأر وأصول العائلات، وكل واحد يزعم أنه يعرف كل شيء اعتبارًا من الـــذين لهـم علاقـــة مباشرة ومؤثرة بمدير المباحث، وانتهاء بالذين يزعمـــون أن الجميع كاذبون، وهكذا وجدت نفســي ذات منتصــف ليــل محصورًا بين ركاب القطار القادم مــن القــاهرة العاصــمة والمتجه إلى آخر نقطة في الشلال جنوب أسوان..

ركبت هذا القطار من بلدنا حيث عصــرتني الدرجــة الثالثة بزحامها المرير إلى ديوان مضغوط بالدرجة الثانيـــة، ولمن لا يعرف من أبناء اليوم فقد كانت الدرجة الثانية– فـــي ذلك الزمن– عبارة عن غرفة صغيرة بها أريكتـــان وفوقهـــا اثنان من الرفوف ذات الشكل الهندسي، وكل أريكة – كنبة– عليها ثلاثة ركاب، أو من المفروض أن يحتل كـــل أريكـــة ثلاثة، والدنيا ليل وإضاءة القطار باهتة والناس مغمورون في تعاطف وأخوة –الأمر النادر الآن– وأفسح لي أحدهم فجلست بينهم مزنوقًا لكن خلخلة الأجساد صنعت لكل الأجساد مساحة مريحة على الأريكة، وضعت حقيبتي– من النـــوع المربـــع

الجلدي الذي تراجع استخدامه الآن- على الـرف، وبدأت أمعن في وجوه الرفاق، ثم لم البـث أن أشـعلت سـيجارة وأخذت أستنتج نم الملامح واللغة المتناثرة أصل أو بلد كـل كل واحد، هي عادة في أهلي تقودنا دائما إلى نتائج خاطئـة لكننا لا نرتدع، إذ أنني خلال الكلام أيقنت أن الذي يجلـس أمامي مباشرة من العـريش أو رفـح أو أي بلـد مجـاور لفلسطين المحتلة، ومن اثر الدهانات بين أصابعه أصبح مـن اليقين أنه نجار، لكنني بعد ذلـك- أي بعـد التعمـق فـي التعارف- اكتشفت أن الرجل من دلجا القريبة من بلدنا، وأنه تومرجي في مستشفى، وهكذا ظللت أعاني من انهيار قدراتي الاستنتاجية والقطار يخترق أسيوط إلى سوهاج، حتى وصلت عيوني إليها.

(١)

كانت جالسة في الركن الأول اليمين الذي صنعه بـاب الغرفة أو الكابينة أو القمرة أو أي اسم تراه ذاكرتك ملائمًـا، وكانت بيضاء، ونحن نتشهى الأبيض ونريقـه عشـقًا فـي مواويلنا، ليست بيضاء فقط بل وبنية الشعر، أو هذا اللـون الذي يندرج بين البني والأصفر: في الحواجب ومـا ظهـر

على مقدمة الرأس تحت الطرحة السوداء المحكمــة – فــي أناقة– التفافًا حول الوجه الجميل، وجه جميل يحمل أثر العز والأصل الجيد– استنتاج لا يمكن العبث به، لم تكن بدينة وأن كانت ممتلئة، ثم يا الله على عيونها، واسعة بما يناســب أن يكون لها هذا الوجه الممتلئ، ثم ذات أهداب خالية من الكحل تتماوج أيضًا في درجة البني والأصفر، ســيكون حتمًــا أن أفشل في نقل الجمال المترع في الخدود، هي امرأة وليســت بنتًا، وكان الأسود الذي يصنع إطارًا حول جسدها قد اندرج إلى جسدها الممتلئ في تشكيل لم نألفه في بلادنا، أو لم نألفه إلا في اللاتي خرجن من بيئات متعلمة، وعندما اضــطربت عيوني– فور اصطدامها الأول بعيونها– لم تتغيــر نظرتهــا مستقبلة أو مرسلة أي رد فعل، تقلص طفيف أصاب تقــوس الحاجب الأيسر لا يعني أكثر من مجرد النظر للقادم، وحتى بعد أن جلست– عنوة أو في صعوبة– بين الرفاق، وبــدأت أستنتج وأستقرئ وأستنبط البلاد والصناعات والأصل الــذين ينتمي إليه الرفاق، ثم بدأت عيوني تحاصرها، لم تهتز، إنما هي ترمش بشكل عادي وفي إيقاع عادي، ثم لما تقافز الكلام بيننا –نحن الرجال– بالتعريف أو التعليق ظلت هي ســاكنة،

ثم- ونحن نخترق منطقة سوهاج بعد منتصف الليل- كانـــت الحكايات قد تورطت في مسائل يصعب، حتى الإشارة إليها، استمرت هي واضحة البعد عما يجرى، أو عـــدم الاهتمـــام بالمرة، ذلك أن التومرجي وقع في آبار التومرجية ففاضـــت ذاكرته بالغريب من الحوادث التي انتهت إلـــى تلصـــيم أي رأس مع أي جسد في تلك المجازر القبلية التي كان تقع بين وقت وآخر قبل ظهور جمال عبد الناصر، وذات مرة- هكذا كان الرجل يحكي- تم توفيق الأبدان مع الرؤوس، ومع ذلك ظل أحد الأبدان بون أي راس باقية يمكن تلصـــميها معـــه، فقررنا- وكأن هذا التومرجي هو إدارة المستشفى- أن نقـــوم بتكفين الجثة على حساب المستشفى ولا نترك أي واحد مـــن أهل القتيل يفتش فيها حتى لا يكتشفوا ضياع الـــدماغ. إنـــه يبالغ، لكن السفر يحب المبالغة، وكنا نضحك لأن السفر يميل للمازحة، لكن هذه الجميلة لم تبتسم ولم تضطرب ولم يصدر منها ما يجعلنا نتحرز قليلاً في الممازحة أو المبالغة، ســـألني الذي يجلس بجوارها هل أستطيع تخمين عدد سنوات عمره. قلت: مائة وعشرون عامًا..!! وضحكنا بصوت عابث، كان رجلاً عاديا بالتأكيد قد تجاوز الأربعين؟، يعمـــل بمصـــلحة

المساحة في إدفو، فقال الرجل في هدوء إنه لم يتجاوز الثلاثين، ثلاثون فقط؟؟ وأضاف الرجل في هدوء أكثر: وابني متزوج؟؟!! يعني إيه؟؟ يعني أبني تزوج بعد أداء الخدمة العسكرية. كمان!!! لقد أنجبته وأنا في السابعة من العمر. أصبح موضوع بتاع المساحة قابلاً للسخرية بل والمهارتة أيضا، في السابعة من عمره وينجب ابنا تزوج وأنجب وينجب؟! نعم: ابني أنجب بنتا. يا سلام، قال الرجل – متجاوزًا كل سخرية كي لا يسقط فيها: إن جده الكبير تزوج وأنجب قبل سن المائة. وأنجب أيضاً؟ قال الرجل الأكثر ضجيجا وأعلى صوتا: مسألة إنجاب الشيوخ في أي سن واردة، قال الرجل الذي تزوج في السابعة من عمره: يعني ربنا يقدر يخللى أبو ميت سنة يخلف وأبو سبعة عاجز؟؟ حينئذ استغلق الأمر على الجميع، وضعنا الملعون في مواجهة القدرة الإلهية فارتبكنا، وحينما نظرت إلى الجالسة ثابتة جميلة في الركن، كانت شبه ابتسامة مرت سريعًا على شفتها المكتنزة، أسرعت بمسحها من فوق فمها بمنديل صغير.

لكن الأمر بعد ذلك ظل على حاله -رغم شبه الابتسامة- التي أشارت إلى حيويتها ويقظتها وانتباهها، بعدها أصبح مناسبا أن يقترب الفجر ونحن على أبواب نجع حمادة، ليقف أحدنا متشبثا بالرف العلوي ليسحب عدة جرائد، ضحك واحد وقال: إنه فرح. معتقدًا أنه سوف يحضر مأكولات، حينئذ وقف واحد وسحب لفافة مأكولات، وقمت أنا وتناولت حقيبتي الضخمة لأخرج منها ثلاث طبقات من الفطير الصعيدي المشلتت الذي ينز بالسمن، وانفتحت اللفافات على الركب ووسط السيقان: اتفضل، اتفضل، شكرا، هناك من شكر وأقسم أنه شبعان، وهناك من امتدت يده أو يداه كي يستطيع تقطيع أقراص الفطير، وأمسك الذي يجلس بجواري بقطعة فطير ضخمة ووضعها في ورقة وقال للسيدة الجميلة:

– اتفضلي، فحولت عيونها إليه، وبعد إمعان رفعت يدها رافضة أو شاكرة، قال لها واحد: تفضلي يا ستى. وكانت الأيدي كلها مهيأة لتمنحها الفطير اللائق، لكنها – دون أن تتحرك كثيرًا- أشارت بكفها ممتنة وشاكرة، دون أن يصيب نظراتها أي تغير، أغلقت عيونها فقط وكأنها تود أن تنام.

(٢)

يتثعبن القطار في وش الفجر زاحفًا من قنا إلى الأقصر، رائحة الصباح أشاعت في الجو إحساسًا بالسفر، هناك على البعد بدأ شجر الدوم يخترق الأفق، ولو كان السفر نهارًا فسوف تلحظ أن شجر الدوم لا يظهر قبل محطة قنا، وكان واضحًا أن الجميع قاوموا كثيرًا النوم، عيوننا ذبلت والإحساس بالوخم امتلك مشاعرنا، والدوم –بشكله المتفرد– يتحول إلى لمسات جمالية بالغة التأثير وسط النخل المتراقص في الأفق، وجاءنا الشاي مع العيال الباعة في القطارات فشربنا جميعًا، بتاع المساحة الذي تزوج في السابعة من عمره قدم كوبًا من الشاي للسيدة الثابتة في موقعها، لكنها رفعت عيونها –من جديد– رافضة، ودون أن تتكلم بالمرة، كأن قدرتنا على الجدل قد سقطت في النور القادم من الوادي، وارتفعت تدخين السجاير، ولما وقف القطار في الأقصر قام بعضنا وخرج من الديوان ثم عاد، كنا نتثاءب ونتبادل صباحات الخير دون حاجة حقيقية، ولم يكد القطار يتحرك من الأقصر حتى جاء من يبحث عن مكان في دواوين

الدرجة الثانية، نزل كثيرون في محطة الأقصر لكن أحدًا من ديواننا المزدحم لم ينزل.

وبالفعل بدأنا ننام حتى غادر القطار محطة إسنا، وكنت قد تحركت قليلاً في جوف القطار فهالني العدد الذي يــزدحم كل فراغات العربات بالدرجة الثالثة، عيال ورجال ونســاء ونائمون على المقاعد وفوق الرفوف وتحت المقاعد، وعدت إلى مقعدي أستمتع بمشــاهد الــتلال والرمــال والمنــاطق الخضراء التي تتبادل مواقعهــا بجــوار القطــار، ذلــك أن القطارات لا تسير –في مناطقنا– قريبًا من الجبــال، بعــدها وقف القطار في محطة السباعية والتي –مــن المفــروش ألا يقف عليها أصلاً، ثم لم يلبث أي أن تحرك، والأمر بالنســبة لهذا النوع من القطارات أنه يتحرك فوق قضبان مفردة، أي أن الخط المزدوج الذي يتحمل القطارات الذاهبة والآيبة فــي –الوقت نفسه– ينتهي عند أسيوط، وبعدها لابد من وقف أي قطار على خطوط جانبية في المحطات كــي يمــر القطــار الآخر– وتسمى هذه بالمقابلة، ولذا فإن وقتًا كبيرًا يضيع في انتظار القطارات على القضبان الجانبية، وقد تعــود النــاس على ذلك دون أن تندثر الشكوى الدائمة من الوقوف، ولهذا،

وفي ظهيرة ذلك اليوم، حينما وقف قطارنـــا علـــى محطـــة السباعية، ترجمنا وقوفه بأن ثمة قطارًا آخر قادمًا من الاتجاه المضاد، أو أنه يجيء من الخلف فيتم إفساح الطريق له، ومع ذلك ظل القطار واقفًـــا علـــى القضـــبان الجانبيـــة لمحطـــة السباعية.

كان الجو حارًا، لم نحس به ليلاً، لكن الشمس كانت قد فرشت بطن الوادي حرارة، وبدأ كثيرون يخرجون من جوف العربات ويسيرون على الرصيف، ولما كانت بعض عربات بعيدة عن الرصيف، فقد جلس عدد من ركابها على الرمال، كان الوادي الأخضر بعيدًا، ومحطة السباعية مجرد ثلاثة أو أربعة أكشاك مع عدة أشخاص قليلين، وتلال الرمال تحـــيط بنا من كل جانب، ولا أثر لحياة حولنا، حين جاء الخبـــر أن القطار سوف يسير بعد قليل، ما سبب الوقوف؟ انقلبت عـــدة عربات من قطار الحديد الصلب القادم من أسوان، وقد طلبوا الونش من أسوان، ثم قيل إن الونش سوف يأتي من الأقصر، ثم قال العالمون ببواطن الأمور أن سائق هذا القطار تعود أن يذهب إلى بيت أقاربه وراء هذه التلال ليـــزورهم ويتنـــاول

الغداء، ثم قبل إن قطارًا به شخصية مهمة سوف يمـــر بعـــد قليل بعد أن أخلوا له الطريق.

كنت قد مللت الجلوس في عربة القطار حينما خرجـــت مثل غيري، وكانت السيدة لا تزال في جلستها داخل ركـــن العربة، وبعد الظهر بقليل أحصر أحدنا بـــواقي المـــأكولات لنقتسمها خارج العربة، ثم جاء أحد الركاب الذي أبلغنـــا أن الماء بدأ ينفذ من القطار، فجرى واحد ليعود بتوثيق الخبـــر المؤكد، خمس دقائق أو عشر وبعدها يتحرك القطار.

(٣)

لكن القطار ظل جامدًا..

حتى السجاير انتهت، وظهر عيال يملئون صفائح صدئة بالمياه، ويبيعون الكوب –الذي هو مـــن الصـــفيح أيضًـــا– بخمسة مليمات، (ما يساوى من ثلاث جنيهات الآن)، والذين كانوا يمتلكون قلة أو براد شاي أو زمزمية ملأوهـــا بقـــرش صاغ، وظهر عيال يبيعون السجاير، كانت علبـــة الســـجاير الكليوباترا أيامها –عشرون سيجارة– بـــ ١٢ قرشًـــا، إنهـــم يبيعونها بريال، وبدأ كل واحد معه لقمة عيش –من أي نوع– يحافظ عليها، ولا سيما وأن الليل أقبـــل، وقـــال لنـــا عيـــال

المنطقة: إن أقرب بيوت يمكن الاستعانة بها علـــى مســـافة نصف ساعة كاملة. ودخلت (الديوان) كـــي أســـتريح علـــى الأريكة، وعلى الضوء الخابي للعربة وجدت اثنين من رفاق العربة نائمين، والسيدة نعم السيدة الجميلة الرصينة الواثقـــة، قد انحنت تمعن في الأرض.

في الأول اعتقدت أنها تبحث عن فردة حذائها، ثم فـــي الثاني اعتقدت أنها تبحث عن شيء وقع منهـــا، لكنـــي لـــم أستطع أن أتصور أن هاتين الكفين ذوات الأصـــابع كانـــت تتلمس بقايا فتات العيش والفطير المستهلك، وعندما رفعـــت جسدها لتعتدل، ونفضت يديها، كانت كسيرات الخبر في يدها قد تناثرت من جديد تحت وقع تصفيق الكفين لتنظيفهما، وبعد أن استوت في جلستها كانت عيونها قد ضاقت وهي تحيطني بألم، ألم واضح ودفين أخذ حزنه من كبريائها الجميلـــة ذات الشعر البني، نفضت يديها مرارًا بالتصفيق، ثم بخبطهما على أوراكها، لتظل كسيرات الخبز المعدودات تشـــير إلـــى مـــا تعانيه.

لكني ابتسمت، ووقفت على الأريكة ساحبًا حقيبتي باحثًا عما يكون قد سقط أو تناثر من بقايا الفطير داخلها، وحـــين

جلست وبدأت أبحث عن رقائق الفطير أحسست بأن الله لـــن يخذلني، وخصوصًا أنني لم أحاول أن أدعى بأني تزوجــت في السابعة من عمري وأنني جد لأبن ابني، رجــوت الله ألا يكسفني أمام هذا الجمال، بالفعل دعــوت الله فـــي تمتمـــات واضحة: استر يارب، وسترني الله، كانت الحقيبة خالية تمامًا من أي خبز أو عيش أو فطائر، لكنني رأيـــت قطعـــة مـــن (البتاو) الصعيدي الطري مثنية في ركـــن حقيبتـــي جانبًـــا، وبدأت –في هوادة– أحاول أن أسحب قطعة (البتاو) حتى لا تنفصل بالتمزق، لكن الأمر أصبح صعبًا، فرفعت وجه حقيبة جاري، لأجد قطعة واسعة من البتاو، وما كدت أحتويها بين كفي حتى فوجئت بعيونها التي تتابعني تنغلق وتنفتح مرات، كانت منغمسة –في حرج شفاف يكاد يضحك– في مشـــهدي، وحين تحركت بقطعة البتاو – مادا يدي إليها، أشارت– كانت تضحك بفم مفتوح وصوت واضح– وهـــي تـــرفض لأنهـــا شبعانة، وأن الأمر لا يصل إلى هذه الدرجة، فأحسست بـــأن الواجب يفرض عليّ أن أنسحب من الديوان، وأخـــرج مـــن عربة القطار كلها، تاركًا فمها الجميل وهو يتلمس في بـــطء قطعة البتاو الصغيرة.

ظللت خارج القطار أتشمم أحدًا تكون معه مأكولات دون جدوى، ثم لم يلبث القطار أن أصدر من الحركات ما يعني نيته في التحرك، ثم أطلق صفارته الضخمة العاوية التي أطلقت بدورها أصواتًا بعيدة لكلاب بعيدة وراء التلال، ليبدأ ضجيج حركة القطار.

دخلت القطار الذي تحرك وبدأ يسرع وأمعنت في وجه المرأة الجميلة، وقلت: سوف نصل إلى إدفو بعد قليل حيث سوف نجد من يبيع الأكل والشرب، لكن عيونها ظلت ثابتة في الأفق الليلي البعيد/ ذلك أنها لم ترد، وحين وصلنا إلى إدفو بعد ساعات قمت معها كي أساعدها في حمل حقائبهما، فأتضح لي أنها لا تملك سوى حقيبة صغيرة لا تستحق أي عناء، قلت لها مع السلامة، لكنها لم ترد، وعلى الباب قلت من جديد: مع السلامة، وقال لها من يقف بجواري: مع السلامة. أيضًا لم ترد، ولم تنظر خلفها.

وبدأ القطار يتحرك من جديد، ومن يومها وأنا أفتح ذاكرتي على سيدة القطار هذه، كلما دخلت إلى أي قطار.

سعد الدين وهبة
والكاتب الجالس القرفصاء

أعتقد أن سعد الدين وهبة فوجئ- كما فوجئنا جميعًا- بانحياز مجلس إدارة اتحاد الكتاب -كاملاً- إليه، متراجعاً عن تراث مصري أصيل قادر على تمزيق وتفتيت وتحطيم النظريات الثورية والديمقراطية والديكتاتورية وقواعد مصطبة العمدة، عندما منح ثقته -تسعة وعشرون عضوًا- إلى سعد الدين متخليًا عن قواعد الأحقاب الماضية التي جعلته لا يرى سوى الكاتب الكبير الداعي الدائم للديمقراطية ثروت أباظة بمفهومه الخاص، ممثلا ورئيسًا وراعيًا للاتحاد، دعك مما يقوله الحانقون الساخطون ويردده الثوريون الشيوعيون الأفاقون من أن مجلس إدارة اتحاد الكتاب أثبت ولأول مرة- أنه مجلس اتحاد الكتاب لمجرد أنه اختار - وبالإجماع- سعد الدين وهبة..

ذلك أنني أحب ثروت أباظة، لم يرهقني أبدًا ولم يسبب لي تعبًا، أتصل به في أي موضوع -يخصني أو يخص غيري- فيندفع لمناصرتي، والوقوف معي ضد الأهواء والأنواء والناصرية دون أن ينتبه إلى أنني ناصري، ناصري

بشروطي وبقواعد مستجابية لا يدركها الكثيـــرون، ولكنهـــا واضحة، في حين أن سعد الدين وهبة أرهقني وســـبب لـــي مشاكل عديدة دون أن ينتبه بالمرة إن كنت –أنا– يســـاريًا أو ناصريًا أو صعيديًا أو أفريقيًا، وفي المرات القلائـــل التـــي التقيت فيها بسعد الدين وهبة: كنت أقدم له نفســـي فيســـرع بالتسلح بتلك الابتسامة التي تنفرج عن فم واسع عريض ناجم عن جمجمة ضخمة وجسد ضخم (دعك مما أصـــاب هيكلـــه الآن): أهلاً وسهلاً. ويعطيني إحساسًا قرويًا أنه يعرفني اشد المعرفة وأوثقها: أهلاً وسهلاً، وتمتد كفه العريضة القوية إلى يدي المعروفة من اثر الكفاح ليشد عليها، فأحس باطمئنـــان غامر يداهم خلايا هذا الولد القادم من الصعيد، ويريحني أن أعتقد أن سعد الدين وهبة قرأ فرائدي في القصـــة القصـــيرة والرواية التي سار بذكرها الركبان، وأكاد أتوقف لأستمتع بما قرأ لي، لكني أملك من الذكاء ما يجعلني ألا أدخل في هـــذا الاختبار بالمرة، حيث أودعه شديد الامتنان.

الأمر بيني وبين سعد الدين وهبة كان أخطر من ذلـــك بكثير، فالمراهقون والوافدون من الأرياف هم الذين يتوقفون عند شكليات اللقاءات المستقرة أو العابرة، وقد تجاوزت هذه

المراحل بزمن، لم أعد مراهقًا على الأقل، وإن كنت مازلت أعاني من أخلاق الوافد من الأرياف، ذلك أنني واجهت أوائل الستينيات أمرًا أزعم أن أحدًا سواي لم يواجه مثله، كنت في السد العالي بأسوان، وخلال هذا الانغماس في العمل الـــدائب بالمشروع كنت أرنو للقاهرة، أي كنت –بين ورديـــة عمـــل وأخرى– أخترق بنظراتي وبتصوراتي وباستلهاماتي، ألـــف كيلو متر من أسوان إلى القاهرة، هذه العاصـــمة الناصـــرية الزاهية التي لا خلاص لأي فرد منها إلا بمعايشتها، شـــارع كلوت بك ومحمد على وسور كتب الأزبكية وسينما كـــايرو والغسالة الغلبانة التي كانت تأتي لتأوي على الســـطوح فـــي المأوى الذي أعيش فيه بشارع الخولة بجوار جامع الخولـــة وراء ميدان الجيزة، جاءت مرتين وفي الثالثة صعد وراءها من يوم الإمساك بها متلبسة، فلما فطنت لذلك سألت عن أي اسم في الدور الثاني لتتيح لنفسها فرصة الهروب، كنت أفكر في الرومانسية المدرسية التي دمرت عـــددًا معقـــولاً مـــن قصص حب توقف عند الملامسات السريعة، وفي الاســـتثناء قبلة مسروقة تصلح وقودًا لرسالة ساخنة ألعن فيها الأقـــدار، وبين البلدوزرات والتفجيـــر والشـــعارات وتنفيـــذ البـــرامج

وانتظار صراف المرتبات تظل القاهرة مثل عروس البحر التي تخرج وسط الضجيج بين الفينة والفينة، كنت قررت أن أزداد ثقافة، أو بمعنى أصح أن أفعل ما لا يفعله كل العاملين في السد العالي، وماذا يمكنني أن افعل؟ كل نجوم الكتابة في القاهرة يأتون إلى المشروع، ويقيمون في فندق كتراكت الفخم، ويتزاورون موقع العمل في سيارة مجهزة، يقودهم محيي عبد الستار- الموظف الوحيد الدائم والمستمر في العلاقات العامة- وبعد ذلك بأيام تأتي المقالات والتي تتوجها صورة الكاتب بين الثنايا والآلات وقد ارتدى قبعة صفراء معدنية، ارتداها إيهاب نافع في قصة حب هابطة مع ماجدة في فيلم عن السد العالي، يحدث ذلك دائمًا في أواخر الخريف وعلى مدى فصل الشتاء وجزء من الربيع بعدها يتوقف ركب الزيارات: أسوان نار حقيقية في الصيف.

كنت أنظر جيدًا إلى المعرض من الأفلام في دور السينما بالقاهرة، كي أرتب نفسي -خلال الصيف- فأشهد ما أحب أن أراه، ولم يكن يطوف في بالي أن أضع المسرح وعروضه في اهتمامي، لكني -فجأة- وجدت حظوة واضحة بمسرحية (سكة السلامة)، وفور وصولي للقاهرة، وبعد أولى

الجوالات بجوار سور الأزبكية الذي يغذينا بالكتب المهمة والرخيصة، وجدت نفسي أقف أمام المسرح، ولم يسبق لي دخول مسرح من قبل، وكان سكة السلامية قد فتحت عيونها الواسعة تقطع طريقي، وحجزت مقعدًا، وعدت في المساء لأدخل المسرح، وأول ما واجهت من كوارث أنه ممنوع التدخين، كان ذلك ساريًا أيضًا في دور السينما دون اهتمام بتنفيذه، لكن الأمر في المسرح الساخر، ضحكنا: نعم، أثارت تعليقات المسرحية تعليقات الصالة: نعم، لكن الجميع استقبلها بطريقة راقية، ومنفعلة أيضًا، كانت الثورة أيامها خارجة منذ سنوات من مأزق الوحدة مع سوريا وحرب اليمن، وكانت جماعة المسرح الموهوب قد قطعت شوطًا كبيرًا في توطيد طريقها: نعمان عاشور وميخائيل رومان وسعد الدين وهبة وألفريد فرج ثم جماعة المسرح الصادر من بطن الجامعة وفق أصول المسرح كما يراه أساتذة المسرح: رشاد رشدي، وبعده سمير سرحان وحمد عناني وفوزي فهمي وآخرون، ومهما قيل – مدحًا أو هجومًا– ستظل هذه الفترة– الستينات– بكل ما فيها من أحداث، ستظل المزرعة الأصيلة التي نمت فيها التجربة الثقافية المصرية أروع نمو، كل المدارس

أنتجت ثمرها في تلك المزرعة: من أول توفيق الحكيم إلى جليل البنداري، أي من أول مسرحية الصفقة وحتى مسرحية وداد الغازية، مرورًا بالأوبرات المتعددة وقاعة سيد درويش للعزف الأوركسترالي، إنني أقول ذلك الآن بعد أن رحل من رحل وكبا من كبا وأعاد صياغة نفسه من رأي أن الواقع لن ينصفه إذا احتفظ بصياغته السابقة، أو من داهمه الإحباط أو الأمل الكبير، بما فيهم هؤلاء النائحون ضد الثورة كلها.

وهكذا رجعت إلى أسوان أحكي عن سعد الدين وهبة ومسرحية سعد الدين وهبة، وما فعلته سميحة أيوب في دور الممثلة الفاتنة الجاهلة في أداء مفرد يبرز كارثة الفتنة الفنية الجاهلة، وما فعلته رجاء حسين الزوجة الخائنة الهاربة، أما شفيق نور الدين فكان هو السلطة الطبية التي تبدو حاسمة مع أنها واقعة في مجال التضليل، ضع تحت التضليل عشرين خطًا، وخلال حديثي عن سكة السلامة تساقطت جميع المسرحيات تحت أقدامها، وكان واضحًا أنني لم اشهد المسرحية فقط، بل إنني قضيت الإجازة كلها في رحاب أهلها، سعد الدين وهبة بالذات، ذلك الذي ضغط على توفيق الحكيم إلى الوراء ليجد له في الفؤاد مكانًا مناسبًا، تمامًا كما

تراجعت ذكرياتنا عن القناطر الخيرية وحديقة الحيوانات ومشرب الكورسال والبنت بتاعة معهد التربية البدنية وما إلى ذلك من أمور متعددة، كان القلب يزهو بها، وأصبح سهلاً أن أرتب إجازاتي في أسوان حسب برامج المسرح في القاهرة، أعني مسرح سعد الدين وهبة بالذات الذي جعل مسرحيته – سكة السلامة– لها هذا الحلول في الذاكرة: التجربة البكر والمبكرة لرؤية المسرح، كما أن التليفزيون في المليون عام الأخيرة لا يذيع لسعد وهبة سوى أجزاء منها، وعندما أصبح عندي فيديو لم نسجل سواها، دون أن أشبع اهتماماتنا بتسجيل: كوبري الناموس، وبير السلم، والمحروسة (وهما درس في تضليل السلطات الثورية أيضًا)، كل ذلك وسعد وهبة لم ينتبه لهذه العلاقة الرومانسية في اللقاءات العابرة السريعة: أهلاً وسهلاً. مع إبداء الانشراح المناسب لأنه رآني كما يفعل مع الجميع، والتي انتهت بأن يصبح زعيمًا– أقصد رئيسا لاتحاد كتاب مصر، ليكمل الدورة النفسية في القلب، بإحساسه المصري الغامر الذي غمرنا به في مواقفه المتعددة ضد التصرفات الإسرائيلية بالذات، وهذا ما قادني إلى ما لم يقدني إليه ثروت أباظة: أن أقرأ قصص سعد الدين وهبة،

لقد عرفت أنه بدأ كاتبًا للقصة القصيرة، كما تسلل إلى علمي أنه كان ضابطًا للشرطة جديرًا بأن يرمز للقوة التي نكلت كثيرًا بالناس وأنا منهم، وزاد الطين وحلاً أنه كان رئيسا لتحرير مجلة البوليس، وكلما دست على سعد الدين وهبة يبرز منه جانب خفي، بل أيضًا كان يكتب مذكراته أو مقالاته في كتب للجميع التي كانت تصدر من دار التحرير (الجمهورية)، وذات إجازة جئت من أسوان وتفرجت على (بير السلم) ثم ذهبت لدار الكتب في باب الخلق كي أقرأ له بعضًا من القصص في (البوليس): الحقيبة أو الشنطة، ثم قصة أخرى اسمها بريزة، لكني حين تعرفت على مؤرخ حركة القصة القصيرة في مصر الصديق المرحوم الدكتور سيد النساج، قال لي: إن سعد وهبة من أحسن كتاب القصة القصيرة، وله مجموعة قصصية، كما نشر قصصه في المجلات السائرة في الخمسينات، الجمهورية والإذاعة والتحرير والشهر، وقد توقف بعد ذلك حين اتجه للمسرح. الحمد لله، لأن ثروت أباظة لم يفعل معي ذلك أبدًا، إن ثروت أباظة رجل طيب يخلو من الشراسة ومن السهل جدًا أن أنسى قراءة مقاله الأسبوعي حتى لو نبهني إليه أحد

الأصدقاء الناصريين الممرورين ، ولقد لقن اتحــاد الكتــاب درسًا حينما استقال، ليبقى الرجل ذا موقف إلى النهاية، هكذا قال المؤرخ العصري عبد العظيم رمضان، رعاه الله حتــى نهاية المقال.

أما ما أحاول تأجيله – من يدري– فهو حكايــة أفــراد الكتاب المنضمين لاتحاد الكتاب، إنني سمعت أن ثمة اتجاهًا قائمًا الآن في مجلس اتحاد الكتاب الجديد، لمراجعة ملفــات الأعضاء، إنني أرجو الإسراع في هذا الأمر، لوضع ضوابط دخول هذه النقابة، ذلك أن الكتاب الحقيقيين وجدوا نفسهم في مأزق عدة مرات أمام طوفان من زملاء لا تعرف أين وكيف ومتى كتبوا، ثم إن الدوائر التي أغلقت زمنا ضد زملائنا من اليسار بالذات لم تغلق أبدًا ضد شرائح وأفراد لا علاقة لهــم بالكتابة، وآمل أن تتوقف أنواع الكتابة التي يقوم بها الكتــاب على القصة والرواية والمقال والبحث والمسرحية والقصــيدة – مع الاعتداد بالنشر كاعتراف أصلي سابق على عضــوية الاتحاد– أما كتبة الطواحين وأنفار جنــي القطــن وحصــر أرادب القمح ودفتر (الأستاذ) في دكاكين البقالــة أو تقــارير المباحث أو المعلومات السريعة التي يتطلبها برنامج ســاهر

عن (الكاهرة عاسمة الدنيا) وترجمتها: القاهرة عاصمة الدنيا. هو ما يقوم به الكاتب المرسوم على حوائط ومداخل ومطبوعات هيئة الكتاب والمنقول من أعمدة وحوائط المعابد القديمة، والأمر ببساطة أن هذا الكاتب الجالس القرفصاء على الأرض وقد وضع الدفتر في حجره وأمسك بالقلم، إنما هو كاتب حصر الأغنام وكيلات البرسيم والأبقار الراجعة من السوق، وليس الكاتب الذي أنجب محمود سامي البارودي والجبرتي وأحمد شوقي وصلاح عبد الصبور، إذ لا يمكن للكاتب المبدع – الذي سيصبح بعد ذلك عضوًا في اتحاد الكتاب – أن يجلس هذه الجلسة: القرفصاء على الأرض، ثم يبدع، حتى بدون طبلية (وكأن المكتب اكتشاف عصري) القادر على ذلك – مرة أخرى– هو كاتب الحصر الشهير في الضياع والأجران والطواحين والمنقولات، فهل يصبح هذا عضوًا في اتحاد الكتاب؟ لقد أسرع المعجبون بهذا الكاتب باعتباره رمزًا لأكبر هيئة نشر في العالم العربي وأدخلوه الاتحاد، وبذلك دخل أبناؤه وورثته القادمون من بين النوارج وحوائط صناعة العسل ليصبحوا زملاء لنا في اتحاد الكتاب.

افتح الملفات يا حاج سعد، وتوكل على الله، والله يرعاك، مع يقيني أن الأمر صعب، لكنه -فيما أزعم- ليس صعبًا على رجل مثلك، أو هكذا تبدو الأمور.

وخلال فتح الملفات سيكون من العدل إعادة النظر في المادة ٣٢ من قانون اتحاد الكتاب، حتى تتيح تصعيد العضو الحائز على أصوات تؤهله أن يحتل موقع زميل له استقال أو حدث له ما يعطله عن أداء مهام مجلس الإدارة، وذلك بأن يكون هذا العضو الحائز على الأصوات من قائمة العضو السابق نفسها، أي أن من يحل في موقع أحمد خميس المستقيل تضامنًا مع ثروت أباظة يجب أن يكون من القائمة الأولى التي منها أحمد خميس، فإذا كانت المادة ٣٢ تقول بغير ذلك فهي جديرة بالتعديل، إذ لا يعقل -ولا بالمنطق- أن يكون الأمر على خلاف ذلك، علمًا بأن هذا ليس موجهًا ضد أحد بالتحديد، لكن الأمر- مع أمور أخرى كثيرة- يجب أن يكون موضع نظر، أما ما يرد على ألسنة بعض المتشيعين باتهامات منفرة لمجلس إدارة الاتحاد وصفًا له بالشيوعيين والناصريين، فإنما هذه اتجاهات قديمة، ظهرت أيام كارثة امرؤ القيس: اليوم خمر وغدًا أمر، فأصبحت الساحة

السياسية منقسمة بين الخمريين والأمريين، أو هكـــذا يفهـــم السادة الذين يجلسون القرفصاء ويزعمون أنهم يفهمـــون، أي الذين ليس من بينهم صاحب سكة الســـلامة، وبيـــر الســـلم، والذي كان يجعلني أسافر من أسوان كي أرى مسرحياته في العاصمة فأعود للرفاق لأحكى شـــيئًا مخالفًـــا لمـــا نحكـــى، وبالذات مشهد فؤاد شفيق المتوجس الخائف، وبيـــده حقيبـــة، والذي نجح في الاختفاء ثم ظهر سليمًا بعد ذلك بسنوات، وقد أمر كاتبه المفضل -الذي يجلس القرفصاء علـــى الأرض- كي يحصي ويعد ويجرد ما في حقيبته من كنوز، تمهيدًا لأن يدخل اتحاد الكتاب، مع أن نموذج فؤاد شـــفيق فـــي ســـكة السلامة لا يساعد على دخوله اتحاد الكتاب بالمرة.

جمال عبد الناصر

بعد أن كففنا الدموع حسرة على رحيل جمال عبد الناصر، أي بعد أن بدأنا في تنظيف وتنظيم الجوانح والمكاتب استقبالاً للحاكم الجديد: محمد أنور السادات، وبعد أن وثقنا أن أنور السادات سوف يسير على درب عبد الناصر، وهو ما يحدث دائمًا فور رحيل شيخ القبيلة، جاءت التعليمات التي تنص على أن يكتفي بصورة السادات معلقة خلف المديرين (على رأسهم مباشرة) على أن توضع صورة عبد الناصر في المواجهة، أو على أي حائط آخر، وبعد أن داهم السادات إسرائيل في تلك المعركة المهمة والمؤثرة في ٦ أكتوبر ١٩٧٣، وبغض النظر عما حدث بعد الأيام الأولى الكاسحة فيها، وخلال زهو الانتصار الذي لم نكن قد جربناه من قبل، جاءت التعليمات بالاكتفاء بصورة السادات فقط في جميع الدواوين، وبالفعل بدأ عمال المخازن في جمع جمال عبد الناصر من حوائط الدواوين تمهيدًا لتكهينها، وكانت صورة هذا الرجل- خلال انتقالها من حائط لحائط تخلق حولي جوا من الدراما العبثية المؤلمة، ولذا فقد فوجئت بنفسي أعترض طريق أمين المخزن الذي جذب صورة عبد

الناصر من فوق الجدار، لا أعترض فقط، بل وأشد الصورة الكبيرة بإطارها الحكومي الذهبي الخشن، ثم أحول بين الصورة وتنفيذ التعليمات، أحتويها بين ذراعي، ثم أنزل الدرج بسرعة لأصحبها معي -في توتر مرهق- إلى البيت، خصم عشرة جنيهات من مرتبي بسبب تبديد إطار الصورة وخصم يومين من مرتبي لإعاقتي تنفيذ التعليمات، ونقل مكتبي المجاور لمكتب المراقب العام الذي تقبع فوقه صورة السادات وحيدًا، إلى حجرة صغيرة قضى فيها المرحوم محمد عبد الحليم عبد الله -الروائي الشهير- معظم أيام حياتي الوظيفية وحيدًا - كان مغضوبًا عليه من الدكتور طه حسين رئيس مجمع اللغة العربية آنذاك..

عانيت كثيرًا من جمال عبد الناصر، فقد جاء -كالحلم- في الوقت كنت في أشد الحاجة إليه، كنت صبيًا معروفًا مصابًا بالأنيميا ويعاني من فقر مدقع، وأثرياء البلد يهلكون في الحشيش والقمار والغوازي ما يدفع الناس إلى القيام بعشرين ثورة شيوعية، ومشهد الفلاح العائد من الغيط وأمامه البدالة- وهي الطنبورة في عرف البعض- على حمارته المنهكة، وعندما يقترب من مجلس أحد الثراة سادة القرية في

الشارع يجب أن ينزل من فوق الحمارة ليسند الطنبورة على الحائط، ثم يهرع إلى يد هذا السيد ليبوسها، وسعود فيسحب الحمارة حتى تتجاوز مجلس السيد، ويركنها، ثم يعود مرة أخرى لينقل الطنبورة بمساعدة العابرين حتى يصل إلى موقع الحمارة، مشهد هذا الرجل وهو يفعل ذلك تحت سطوة قاعدة تمنعه من المرور على مثل هؤلاء السادة وهو يمتطي الحمارة، إذ لابد أن يسير على قدميه حتى ولو كان من غير المكلفين بتقبيل اليد، هذا المشهد -عندما تراه- فإنه يدفعك دفعًا لكراهية كل ذوي السطوة، والانضمام إلى أي تشكيل- ولو كان عصابيًا ضد كل جماعات الأثرياء الذين يمتلكون الأرض (الطين) ويتحكمون في الناس، أبي كان من هؤلاء، ولم أره يفعل ذلك بسبب عدم وقوع خطوط سيره في مجال جلوس السادة، فإذا بجمال عبد الناصر يقطع الطريق على هذا الفعل الذميم، وأصبح متاحًا للكثيرين أن يمروا على واحد من الشناوية أو المعارضة أو القمامصة دون أن يحفل كثيرًا بهذه الطقوس المفزعة المرهقة.

ثم كانت الخطوة الخطر والأكثر تأثيرًا في حياة الجميع وعلاقاتهم هي تثبيت وتمكين المستأجر من المساحة الزراعية

التي يستأجرها دون أن يتمكن الثراة –الشديد منهم والضعيف– أن يستعيد هذه المساحة أو أن يؤجرها لأحد آخر، وقد استخدم المستأجرون– وليسوا كلهم غلابة بل منهم ثراة أيضًا– هذا النص بشكل فاجر ومؤلم، حتى أحالوا معظم أصحاب الأراضي إلى محتاجين معوزين يسعون خلف المستأجرين الذين يستخدمون لؤمهم ومكرهم في الإيقاع بهذه الطبقة مع إضحاك الناس عليهم، إن منظر أحد هؤلاء أبناء العلائلات حينما كأن يأتي إلى قبلي البلد حيث أولاد عبد العزيز خليل –طالبًا بعض حقوقه، منظر يقطع القلب، ويجعلنا نحن الذين من الطبقة الأدنى سعداء سعادة فاضحة، ذلك أن ثورة عبد الناصر كانت أرقى من جموع الذين استفادوا بها، وقد ظللت –ومازلت– أحب عبد الناصر، حبًا لا منازع فيه حبًا يصل في غلوه أن يصبح حبا أحمق يمكن لي –بسببه– أن أداهم وأسب وأشتم وأقلب الدنيا على رأس من ينال جمال عبد الناصر بكلمة واحدة، ولذا فقد صعب على– بعد رحيل عبد الناصر بسنوات– أن يلقى بصورته في المخازن مع المقاعد والأدوات المكهنة، واصطحبتها إلى بيتي حيث تم تبطين الحائط بالخشب، وتعليق الصورة عليه،

حيث لا تزال –في المكان نفسه– جزءاً– من تكوينات منزلي.

(٢)

كنت أحد المتعطلين الباحثين عن عمل في السنوات العشر الأولى من حكم جمال عبد الناصر، كان واضحًا أن العرب– مع إسرائيل– لا يريد لهذا الرجل الاستمرار، وليس هذا الرجل فقط ولا نظامه، بل هذا الشعب المصري بالذات، أقوي شعوب المنطقة وأكثرها حضارة ورسوخاً وعمقًا تاريخيا، ولذا فإن الغرب يلجأ دائمًا إلى تنويم مصر أو تخديرها أو توثيقها بسلاسل مرئية أو غير مرئية، حينما يرغب وينوي تنفيذ سياسته في بقية البلاد العربية، ولأني لست كاتبًا سياسيًا فسوف أغمض عيوني عن العبارة السابقة، وأعود شابًا متعطلاً، لا يجد عملا ذا شأن، ولا سيما أن عيني اليمنى لا ترى، ومن السهل سقوطي في الكشف الطبي، اشتغلت مهناً عديدة غير مستقرة كان آخرها عملين: مساعد خطاط لافتات بشارع محمد على، وعامل بمعمل تحميض وطبع الأفلام السينمائية، في العاصمة بالطبع، ثم هجرت العاصمة إلى أسوان بسبب عبثي جدًا، فقد كان صديقي

المسيحي الذي يشاركني في الشقة الصغيرة بميت عقبة قد جعلني أواجه موقفًا لم يكن في الحسبان، ذلك أن أباه البناء في ديروط الشريف قتل، نعم اغتاله أحد الأثرياء المتعطلين في الشارع عيني عيك، لأنه توقف عن دفع المطلوب ابتزازًا أو جزية أو أي مسمى آخر، وسافر (وديع ابن ميخائيل البناء) ليدفن أباه ويعود بأمه وأخته ليعيشا معنا في العاصمة، وكان الموقف صعبًا، ولابد لأحدنا أن يترك المسكن للآخر.

كان أبي قد مات أثناء مناقشة خالد محمد خالد لجمال عبد الناصر في بنود الميثاق في ٢١ مايو ١٩٦٢، وقبل ذلك -وبعد ذلك- تزوج إخوتي البنات، ولم يبق في القرية سوى أخي الوحيد وأمي -الوحيدة أيضًا واستولى زوج أختي على قطع الأرض الصغيرة المملوكة لنا ليزرعها لحساب أمي، ثم اعتبر نفسه مستأجرًا، وقد استطاع صهرنا الجميل أن يذيق أمي كل مرارات حنظل العالم وهي تسعى كي يدفع لها قروشًا تعيش بها، فاضطررت أن أغادر العاصمة بحثًا عن عمل ينقذ أمي من شباك عبد الناصر، حيث وصلت إلى أسوان في أكتوبر ١٩٦٢، عملت فترة كاتب محام هناك ثم

في السد العالي بشركة (المقاولون العرب)، يوم ٢٣ يوليو ١٩٦٤، وهو عيد الثورة، ويوم مولدي في الوقت نفسه.

وإلى هذا الموقع سحبت أخي ليكمل دراسته، وتركت أمي خلفي في القرية تناضل ضد الاشتراكية بمفردها، وبدأت أواجه عظمة عبد الناصر..

(٣)

بكل المقاييس –حتى بمنطق العداء– كان عبد الناصر عظيمًا، ولم يكن السد العالي مجرد مروع لحساب البروباجندا السياسية، لقد كان موقع السد العالي يغص بكارهي عبد الناصر وضحاياه، ولاسيما جماعات الإخوان المسلمين الذين ألقى لهم عثمان أحمد عثمان طوق النجاة، كان هذا المهندس الكبير أثيرًا عند جمال عبد الناصر، وفي عز الحرب الاقتصادية ضد مصر والتي أوجبت على عبد الناصر قيودًا مالية في التحويل إلى الخارج، كان عثمان مستثني منها، احتاج موقع العمل إلى سيارات ضخمة (بارفورد) وهي إنجليزية ذات كفاءة عالية وقدرات فائقة تفوق مرارًا السيارة الروسية (الماز والكراز وما شابه)، واحتاجت الشركة إلى آلات تخريم الصخور (سويدية) تمهيدًا لملئها بالمتفجرات، واحتاجت الشركة إلى كراكات ضخمة –إنجليزية أيضًا– طاقتها العملية لا توازيها أية طاقة للكراكات

الروسية، ثم احتاجت الشركة إلى آلات غربية –بعـد عـام ١٩٦٦– لاستصلاح وادي الصالحية جنوب محافظة الشرقية والممتد حتى الإسماعيلية، واحتاجت الشـركة إلـى أنـواع متعددة من الآلات (غير الروسية الشرقية) فـي استصـلاح وادي النوبارية، كل ذلك كان عثمان يستورده بحرية كاملـة ودون أية قيود كتلك التي عانـت منهـا جميـع القطاعـات والأنشطة –حتى التي تعمل في السد العالي بعيدًا عن عثمان أحمد عثمان.

سيكون من عسف الكلام أن نقر بحقيقة مؤلمة أن حبنـا لعثمان أحمد عثمان جاء نتيجة الوله أو الغرام الذي ربطنـا بعبد الناصر، حتى حينما كانت شركة (المقـاولون العـرب) تضم تحت أجنحتها مجالات شركات أخرى– مثـل شـركة مصر لأعمال الأسمنت المسلح– كنا نفخر بذلك، فقد بـدأت شركة الأسمنت أعمالها في السد العالي بنصيب وافـر مـن المشروع، أكبر بكثير من (المقاولون العرب)، وبعد سـنوات قليلة تقلصت أنشطتها تحت سطوة الاحتواء العثملِّـي، وقـل نصيبها في العمل وإن كانت ظلت تعمل بالنصـيب المتـاح حتى نهاية السد العالي.

(٤)

في ٥ يونيو ١٩٦٧ قتل جمال عبد الناصر، لقد أعلن أنور السادات –بعد ذلك بسنوات طويلة– أن جمال عبد الناصر مات يوم هزيمة يونيو ١٩٦٧، وهو كلام صحيح أقر بصحته رغم كراهيتي –وكراهية أمي– لأنور السادات، وإذا لم يكن للاجتياح الإسرائيلي من هدف سوى التأثير على أعمال السد العالي، لكفاها هذا هدفًا استراتيجيًا.

ولو كان عبد الناصر محتفظًا بلياقته النفسية في ذلك الوقت لصمم على ترك الحكم تمهيدًا لحكومة جديدة لا أثر للعسكريين فيها..

لكن الأمر سار في غير ما نحب (وإن كان ذلك في وقته قد سار في وهم أنه الذي نحب).

في يوم ٧ يونيو –الأربعاء– انتشر خبر أن إسرائيل سوف تضرب بالقنابل محطة السد العالي، كان العمل –من يومين– قد توقف ليلاً في المشروع (من غروب الشمس حتى الشروق)، وقام المهندسون بتحميل وردية النهار بما يمكن تحميله من العاملين، فأصيب العمل في كل الأنشطة بالاضطراب والفوضى، غير أن المهندسين أحكموا قبضتهم

وهيمنوا على حركة العمل بسرعة وطلبوا ممن لا عمل لـــه أن يترك الموقع، ثم جاء خبر نية إسرائيل ضـــرب محطـــة كهرباء السد العالى، ثم كان التوقيت- عند غـــروب شـــمس الأربعاء ٧ يونيو.

لم تكن محطة كهرباء السد العالي قد أصبحت محطـــة كهرباء بعد، كانت مجرد أنفاق بها قناة التحويل في طريقهـــا لتركيب الآلات والمعدات والقطاعات والعناصر الهندسية.

وكنا نعلم -عن ثقة- أن جسم السد العالي الذي ظهـــر واضحًا قويًا يقطع عرض النهر العتيد لا تؤثر فيه القنابـــل، لأنه منشأ بالتراكم الصخري والترابي وليس بالمداميك كمـــا هو في خزان أسوان، وكان اختيارًا ذكياً ومرعبًا، لأن القنابل سوف تحطم مداخل ومخارج قناة التحويل وتدمر ما يكـــون فوقها من صخور، وهو ما يؤدي إلى انهيار هذا الجزء الذي سيصعب إقامته مرة أخرى..

بعد العصر بقليل -في ذاك اليوم- وقبل أن يتنحى عبد الناصر بيومين، حدث شيء غريب من هذا الذي لم تقدمـــه خيالات الروايات السينما والحكايات..

فقد ترك جميع العاملين –وغير العاملين– في منطقة السد العالي أماكنهم، وتوجهوا في حرارة وقيظ ذلك اليوم، إلى أين؟ إلى موقع محطة الكهرباء، وجلسوا القرفصاء فوقها، آلاف من العاملين في جميع قطاعات السد العالي، حتى أصحاب الأنشطة الأخرى التجار وباعة الشاي وأصحاب الأكشاك والدكاكين وعمال السكة الحديدية وعمال الطرق والعاملين في مطار أسوان وعمال المحاجر والمشرفين على النوادي ومستعمرات الإسكان والمطاعم والأمن، كل من وجد في هذه البقعة الواسعة، ذهب إلى موقع محطة الكهرباء.

فعلوا ذلك المشهد، والذي يعلو على أي تصور فني أو خيالي، وناموا كالنمل حول قطعة الحلوى (يا له من تصوير شديد الهوان) دون تعليمات من أحد، مع إقرار كل هذه الجحافل أن أجسادهم لن تحول بين القنابل وتدمير الموقع، هذا الذي ظلوا يحمونه بأجسادهم حتى الصباح، وهم أنفسهم الذين خرجوا يوم) و ١٠ يونيو مطالبين –دون أي تخطيط– بعودة جمال عبد الناصر، بعد أن تنحى، وكنت أنا واحدًا

منهم، وكنا نبكي ونلطم ونمزق الجيوب، مغمورين في حزن جارف..

وبعـــــد

لقد امتلأت قصصي -بعد ذلك- بنقد مؤلم لعبد الناصر ونظامه، وما ترتب عليه، في الوقت الذي ظللت أحب هــذا الرجل، وأعادي من يعاديه.

نعم، انقسام واضح، لكني أعتنقه وأمارسه، وأرفع بسببه صورة جمال عبد الناصر ليعلو حائط بيتي المبطنة بالخشب، تاركًا جانبًا أمر زوج أختي الذي استولى على ما نملك مــن أرض يسيرة مقابل ملاليم زهيدة تنفيذاً للمسيرة الاشتراكية.

رأس التسكع الصالح

جاءني ملاك في المنام وتحدث معي في شئون كثيـــرة، كان مرحًا وكنت سعيدًا، ثم اســتيقظت دون يقظـــة كاملـــة، ونمت دون نوم صحيح، بعدها اتضح لي أن الأمر أفلت من يدي، وأن الفرصة ضاعت، حيث كان من الواجب أن يسألني عما أحب أن يتحقق لا هو سأل، ولا أنا طــرأ فـــي بـــالي، فقضيت وقتًا تعيسًا، إذ نادرًا ما يزور أحد الملائكة واحدًا من الأدباء مرتين قلت في نفسي: ربما تتغير الأمور هذه المرة، لا قاعدة تحكم ما ندركه، والقواعد –دائمًــا– تحكــم مـــا لا ندركه، أعجبتني هذه الحكمة فقررت أن أمارس أحلام اليقظة علها تستحضر هذا الملاك، ثم انهمكت فـــي حـــل الكلمـــات المتقاطعة، وبعدها اجتاحتني تلك الرياح التي تداهمني بـــين وقت وآخر: أن أقضي آخر لحظات عمري، أي أن أمـــوت، بعيدًا عن هذا الفراش، هناك وسط غابات النباتـــات البريـــة على شواطئ النيل، أو على كويمات رمال شواطئ البحـــر، صدقوني إن الموت في الفراش إهانة واضحة للحياة..

١– دفش.. سمالوط

أراحني أن سوسن –أصغر عيالي مع أن عمرها دخل في العشرين– وافقت أن تصحبني في رحلة تسكع، نتجول فيها حسبما تأتي الرياح، ونقطة البدء قطار العاشرة صباحًا، ثم النزول في الواحدة والنصف.. مدينة سمالوط من أشهر مدن محافظة المنيا، وصحبنا الصديق مدحت يوسف –في سيارته– إلى قريته (دفش)، والتي تبعد عدة كيلو مترات عن المدينة، ثم هي القرية التي يمر قريبًا منها الطريق المرصوف إلى (أسطال) بلد عبد الحكيم عامر، ومن اللحظات الأولى وضح أن لقرية (دفش) شخصية خاصة، إذ إنها متخصصة في إنتاج العنب قصير القامة– أي هذا النوع الجديد الذي لا تعريشة واسعة له، وعلى الطرق كنا نشهد أكوامًا من أغصان الأشجار المشذبة على هيئة شعبة تحميل الثمار أي التي تحمل شجيرات العنب القصير وعناقيده المتعددة، وقادنا صديقنا إلى بيته الريفي، فقد طلبت منه أن يبعدنا عن شقق المدن– رغم سهولة الخدمات وتيسير الحركة في الشقق دون المنازل الريفية– ووسط حبال الليف والأجولة والأخشاب، التي هي قطع غيار الطنابير (نسميها نحن

البدالات) والفئوس والصفائح، تقافزنا لنصعد للدور الأعلـــى، حيث المكان براح متعدد الغرف الواسعة النظيفة، تلك التـــي تنتشر على حوائطها –بتلقائية واضحة– صـــور القديســـين، موضوعه دون دراية بوسائل حمايتها وتعريضها للتمزق كما يحدث في جميع بيوتنا، وساعد اتساع الغرف علـــى زيـــادة استنشاق الهواء المريح، وكانت أسرة مـــدحت يوســـف قـــد غمرتنا بالود وكأننا في حالة تعارف وتعـــاطف منـــذ طـــرد الهكسوس أيام أحمس الأول حتى انتحار عبد الحكيم عـــامر، ما دخل الهكسوس في عبد الحكيم عـــامر؟ لا يهـــم، وكـــان الجور رائقًا والجوع يدعونا للحب الكبير، هذا الـــذي التـــف حول صواني الدجاج المتألق مع النسيم– مع أن الجو في كل مكان بعيد عنا كان حارًا، لقد بدأت أحس بالهدوء والارتيـــاح والسكينة نتيجة البعد الجغرافي والنفسي عن الكتاب والكتـــب والحداثة والشعر والأتيليه والندوات ومجمع اللغـــة العربيـــة ومصاريف البيت والذين سافروا إلى المغرب أو ســـوريا أو الأردن أو فرنسا، والإلحاح المستمر من المعارف بحثًا عـــن مكان للنشر، أو اختلاق فرصة في دوريات حسين مهـــران،

كل شيء هادئ دون تليفون أو ضجيج الأغاني الإيقاعية التي تبطش بالجمجمة، بعدها نمت أكثر من ساعة.

في المساء بدأت المدينة تطالب بحقها فينا، توجهنا إلى المنيا، وكان صديقنا مدحت يوسف يتكلم متحمسًا لزيارة هذا الفنان، التجارب أثبتت أن كثيرًا من الحمال في هذه المسائل يتغذى على العاطفة والانتصار لأبناء المنطقة مع إثبات أن الأدباء الأكثر إبداعًا والفنانين الأكثر عبقرية سيظلون دائمًا خارج العاصمة، ومع أني من المعدودين خارج العاصمة إلا أني أقاوم هذا الحماس الذي أدى في مواقع سابقة إلى نوعية من الأدب والفن لها عبقريتها المساوية لهذا الحماس، ووصلنا إلى المنيا –نادي هيئة تدرس الجامعة– متأخرين، كان مدحت يوسف قد اتصل بأصدقائه من الأدباء، وكان هذا يعاكس فكرة التسكع خارج المجال الأدبي ذي الألفاظ الضخمة التي توحي بخطورة المثقفين، إلا أن الأمر كان غير ما كنت أخشى، ظلت سوسن ابنتي مع أسرة صديقي في الحديقة على شاطئ النيل، وقمنا باحتلال موقع آخر من الحديقة، وبعد دقائق كان أصدقاؤنا من أدباء المنيا قد صحبونا إلى معمعة الكتابة والنشر والظلم الواقع على المبدعين، وقد يكون للأمر

بعض دلائل الصحة، مثل جهود شطبي يوسف في (عصفور النار)، كما أن ما قام به حسين مهران من مداهمة هذه المشكلة بإتاحة النشر –حتى لمن قد لا يستحق النشر– خفف من غلواء هذه الدعوى، لكن النقنقة فيها لا تزال تسري تحت الصوت الواضح.

٢– فنان خالص

اخترقنا المنيا شرقًا عابرين نهر النيل فوق الكوبري الجديد، الناس من الحرارة استلقوا –أو استرخوا– في هدوء على الكوبري بنفس الطريقة التي كان أهل القاهرة يسترخون فيها في عز الحرارة على كوبري قصر النيل وحدائق الأندلس والأورمان، لعل ذلك من المستحدثات في صعيد بلادنا، وهناك في أعصاب الجبل الشرقي، وفي الشريط الضيق الذي يصنعه الجبل مع النهر، وصلنا قرب منتصف الليل إلى هذا الفنان الذي ظل أصدقاؤنا منفعلين في الكلام عنه، والذي لم أكن شديد الحماس لزيارته: حسن الشرق.

وأعجبني الاسم: حسن الشرق، كانت المرة السابقة الوحيدة التي زرت فيها فنانًا تلقائيًا، تلك التي كانت فيها في الواحات، حيث شاهدت ما أبدعته أصابع (مبروك) من

تماثيل، ولم أجده يومها، لكني قضيت وقتًا فائق السعادة شديد الانفعال وسط تماثيله المعبرة الطازجة الشعبية الساخرة..

تكوين مدهش آخر حسن الشرق، لوحاته تتجاوز كثيرًا من الأبعاد التي تتصور أنها هي العبقرية عند غيره ممن نحب أن نثرثر باسمه كثيرًا، ونلوي أعناقنا غربًا لتظل ثقافتنا وضاءة منيرة، مقابل خفوت إحساسنا بثقافتنا الوطنية أو المحلية، مع أن أعمال كثيرين من الفنانين، ومنهم تلقائيون لم تنتظمهم حلقات الدراسة والتعليم، تثير عوامل الكبرياء الوطنية، وكان انحدار الجبل بشكل المسقط الرأسي قد أعطي المكان بعدًا أسطوريًا، مع أن نفس هذا الانحدار قد يثير فينا عوامل الهروب والمطاردة، لكن لوحات حسن الشرق كانت شيئًا آخر، انطلاقة واسعة مضاءة بالنور الأخاذ، مبهرة بالفعل، إنه يعيش الحالة الفنية بما فيها من شحنة الإحساس الصافي بالبيئة والانتماء، والفولكلور المتناثر في تعبيرات بالغة التعبير والوضوح: أفكار الناس وأغانيهم وأمثالهم وتفسيراتهم للحياة والكون. ولأن حسن الشرق لا يملك سوى الذكاء التلقائي والموهبة التلقائية دون الثقافة الأكاديمية، فقد ظلت لوحاته تشع بجماليات مخطوطاتها القدرية والتصورية،

ليفرز في خطوطه المعبرة الطيور والسحب والنساء والولادة وأبو زيد الهلالي وأبناء أخته ودياب أبن غانم وكل عناصر التشكيل التي يعيشها، تلك التي أخذت من الزخرفة إيقاعاتها المتكررة ووحداتها الثابتة، ومن الانطلاق الخيالي الواسع زهو التصور والقدرة على الإمساك به، صحيح أن الجماليات الخارجية– في كثير من اللوحات– كانت أعلى وأكثر وضاءة وتألقًا، لكن ذلك مطلوب الآن بعد أن غرقنا في اكتئاب اللون والخط والمضمون في الرسم والتصوير، وفي الكتابة الشعرية والنثرية أيضًا..

أعترف بقصوري الناجم عن عدم معرفة هذا الفنان – حسن الشرق– من قبل، مع أنه منتشر ومعروف، ويزوره كثيرون من دارسي الفنون التشكيلية والمغرمين بها، في ذلك البيت الريفي المتداخل، والتي تتراقص لوحاته فوق حوائطه، فإذا نظرت إلى حسن الشرق، بجلبابه وتكوينه، فسوف تجده متناسقًا مع البيت الريفي الضيق الذي جعله (معرضًا خاصًا)، تتداخل فيه حياته، لكن طموحه يفيض خارجًا على محدودية المكان، فقد عرف طريقه وسطاء تجارة اللوحات الفنية، ورأوا في لوحاته خير نموذج جمالي يتناسب مع

العصر الجديد للثراء بما فيه من قصور ورياش ورفاهية، وها هو حسن الشرق قد اشتري قطعة أرض تصلح لبناء (فيلا) عليها، لقد تكلم كثيرًا هذا الفنان عن رغبته في امتلاك الفيلا، وهو يسعى حثيثًا لإنشائها، لكننا نضع أيدينا على قلوبنا خشية أن تتضاءل الموهبة التلقائية عندما تسترخي في نوع آخر من الترف الذي د لا يكون لائقًا بما ولا بقدرتنا التي تستثير الدهشة في الآخرين.

٣- الطحلاوي

بعد أن وصلت -أنا وابنتي- إلى بيتنا في ديروط، وفي غمرة استقبالنا لبعض الأقارب والأصدقاء- أي بعد أن استغرقت في النون نصف يوم، جاءت ورقة صغيرة- كتلك التي كان يلجأ إليها العشاق قبل عصر التليفزيون- ورقة صغيرة في حجم ورقة (الباخرة) التي تعودنا أن نراها بين أصابع مدمني السجائر اللف توقفت الآن عند مدمني سجاير الحشيش- والورقة قادمة من ثقافة أسيوط، من مدير الإقليم الثقافي، صلاح شريت (رجاء كتابتها صحيحة: شين، راء، ياء، تاء) وليست (شريف)، ولما كنت لا أملك تليفونًا فقد أجلت الاستجابة لما في الورقة في اليوم التالي، حيث طلب

مني صديقي العزيز أن نلتقي ظهر اليوم التالي، وأخفي- كعادته، بصفته مدركًا للدوافع الإنسانية السرية في تكوين الموظفين الذين أنا منهم أيضًا- أخفي الأسباب الحقيقية للاتصال، لكني أعرف صلاح شريت، وهو من أكثر قيادات الثقافة استيعابًا لمتطلبات الثقافة والمثقفين، فهو لا يزعم أنه أفضل من أي واحد، لكنه استطاع- خلال الألف عام الأخيرة- أن يتألف وينجح ويقود قطاع ثقافة الصعيد بعيدًا عن نماذج متباينة ومختلفة لمحافظين، تعودت الحكومة أن ترعى أن يكونوا ذوي صفات معينة ليكونوا في أسيوط: من وزارة الداخلية بالذات، ثم واحد من الجيش، ولاسيما وأن النشاط الثقافي لا يزال رهينًا بمدى اعتراف المحافظ بالثقافة، ومدى تقييمه لها، لابد أن نعلن هنا أن كثيرين من المسئولين الرسميين يرون النشاط الثقافي معادلاً لنشاط اللهو والتسلية، صلاح شريت عانى كثيرًا وصبر كثيرًا وتحمل كثيرًا كيلا يبطش مسئول بالثقافة في إقليم الصعيد، أرجو أن أكون واضح المدح له حيث لم يسبق لي أن قلت في حقه كلمة واحدة خلال الألقاب الماضية.

الأمر الآن اختلف، فمحافظ أسيوط هو الآن من رجال الجامعة، وكان رئيسًا لها أيضًا، محمد رجائي الطحلاوي، وأهم ما فيه أنه يقرأ ويطلع، إذ نادرًا ما تجد هذه (الهواية) عند الكثيرين، وصلاح شريت يريدني أن أتلقى بالدكتور المحافظ لأنه يقرأ لي ويحبني في عصر لا يقرأ فيه أحد شيئًا..

وكلنا نحب السعي إلى المسئولين، لكنني أعاني دائماً من عدم القدرة على التوفيق المناسب بين ما في القلب وما يريده المسئول، ولاسيما هذا الضجيج الذي يحيط بالمسئول عادة، والمفعم بالامتثال والتهذيب والانحناء وعدم القدرة على الجدل، لا أجد نفسي أبدًا عندما تضعني الظروف في حضرة أي مسئول كبير، بل وتنتابني الرغبة في التعليقات الساخرة أو السخيفة.

تناولت الغذاء مع مدير الإقليم الثقافي في أسيوط، وبالليل التقينا بالمحافظ، كان مفاجأة لي، مجرد إنسان بسيط قادم في الفجر من رومانيا، ووصل أسيوط ظهرًا، ويحكي ما يعن له من أمور دون أن تصاب كلماته بالعضلات الرئاسية، كما كان شديد الاهتمام والإفراط فيما قرأ لي- وبالذات

مقالات المصور– وكنت أنا في حالة من اليمن والاستبشار جعلتني أعتز به لهذا السبب بالذات، ثم لأسباب أخرى عديدة: أولها صدور الترجمة الفرنسية لبعض أعمالي، ثم مشاهدة معرض حسن الشرق، ثم إصابة ابن عمي– والذي اجتمع كل جمهور القرية على كراهيته بسبب استعلائه وسوء سيرته وجفاف علاقاته وخلوها من الإنسانية– لقد أصيب بمرض مداهم، أعوذ بالله، لا يصح أن يتشفى مؤمن في مؤمن، لكني كنت سعيدًا لأني تناقشت سريعًا مع الدكتور الطحلاوي، دون الدخول في تفاصيل مرهقة، كان الرجل بسيطًا وشديد الحيوية ومبتسمًا، ووديعًا أيضًا..

ثم بدأت أستعيد نفسي سعيدًا كي أعود إلى قريتي، وبالتالي فقد ظللت رافضًا أن أسعى في السبب الأصلي الكامن دون إفصاح وراء دعوتي من صلاح شريت، ولماذا لا يكون أي سبب آخر سببًا أصليًا؟

٤– القطار

القطار يقوم من ديروط في السابعة مساء، ودخلنا إلى مقاعدنا، كانت سوسن ابنتي مرهقة من أثر العزومة التي أقمناها لبعض الأصدقاء احتفالاً بالترجمة الفرنسية، أو

بمقابلتي للمحافظ، لقد توافد كثيرون مهنئين وصلوا إلى ستة عشر فردًا، وكانت سوسن قد قامت بإعداد لحم جدي كامل دفعنا فيه ما يقرب من المائتي جنيه، أكثر من خمسة عشر كيلو مع أطباق الأرز، كنت أود أن أنقل إلى (روح الجماعة) في بلدنا طريقة تناول المأكولات المشتركة في المدن بأن تأخذ طبقًا وتضع فيه شوية رز وقطعة أو قطعتين من اللحوم وشرائح سلاطة أو طورشي، وكالعادة فإن كل جماعة تتجمع وفي أيديها الأطباق، وكل من يريد شيئًا آخر عليه أن يعود ليستزيد..

في أقل من ربع ساعة كان الجميع قد التهم اللحم، دون مساس حقيقي بالأرز أو السلاطة أو الطورشي، وكانت المفاجأة مذهلة على وجه ابنتي والقطار يتحرك من ديروط، وقلت لها: إن تقديم المأكولات بهذه الطريقة- التي تبدو حديثة- إنما هو يشابه الطريقة التي يأكل بها (الذكارة) ومريدو أولياء الله الصالحين، وبالتالي فنحن في واد وهم في واد، وهذه أهم عناصر التسكع، حيث يظل الاحتكاك الذي تحكمه المصادفة، وما يفرزه من أخلاقيات هو الأساس في المتعة، وظللت أحكى لابنتي عن أشهر الصعاليك المتسكعين،

وكل وقت يمر يقترب بنا القطار من القاهرة، ويبدو أن شروط التسكع لم تكن كاملة في أذهاننا..

فبعد اختراق القطار منطقة المنيا، بدأ يتوقف، يسير قليلاً، ليتلكأ ويتوقف، أو يتوقف نهائيًا دون سير، والناس – في موقع كثيرة– هجروا العربات إلى الرصيف، قالوا: إن حادثًا وقع في منطقة المرازيق التي تؤدي إلى حلوان، وجاء منتصف الليل، وهجر كثيرون القطار، كل الذين ارتبطوا بمواعيد لها أهميتها نزلوا إلى الطرق بحثًا عن وسائل تنقلهم إلى حيث يريدون: رجال الجيش والموظفون بالذات.

وظللنا نتسكع دون أن نغادر مقاعدنا، حتى وصل القطار إلى الجيزة في الساعة السابعة صباحًا..

ولم أكن أملك حين عدت إلى فراشي، سوى التثاؤب، والتناوم، ومحاولة إدراك مغزى آخر للتسكع الجميل أو الصالح، منتظرًا أن يأتيني ملاك في هذا النوم المتقلب، ويتحدث معي في شئون كثيرة، ثم يسألني عما أريده أو أتمنى تحقيقه..

لكني لم أستطع الانتظار طويلاً، فقد عدت للاستيقاظ وهو ما يحول بين الملائكة والحضور في الأحلام.

عن ديانا وذكاء طوال القامة
وحدائق بيوتي وأمور أخرى

كنا في حاجة قصوى إلى دودي وديانا حتى (يهتز القارب كي نحس بالحياة)، وكأننا لم نشهد فاجعة مماثلة في الأحقاب الأخيرة، عدد مهول من المحبين والعشاق يتم تدميرهم يوميًا وأقصى ما يستطيعون الوصول إليه من مجد: مقطع في صفحة حوادث جريدة يومية يحتل منه السيد اللواء مدير الأمن والعميد رئيس المباحث والعقيد مأمور القسم سبعة سطور من ثمانية، هذا ما لم يكن رئيس النيابة قد أهتم بالأمر فيحتل السطر الأخير، فإذا أضفت إلى ذلك عددًا آخر من الذين يستشهدون بسبب نقص الحب أو الغرام أو سوء التغذية أو الجهل الفاضح أو العلم الفاضح، فإن الكارثة المشار إليها أول السطور تصبح خبرًا لطيفًا يمكن قراءته مع قليل من (الدولسي) أو أي مثلجات أخرى..

لكنني –أقول الحق– أقلب في صور ديانا– عيونها بالذات– فأحس بغضب، ذلك أنني أفاجأ بنفسي –سرًا– وقد قمت بمجموعة من المقارنات بين هذه العيون وعيون أخرى كثيرة، مما يستلزم التنويه بعدم الإمعان في مثل عيون ديانا

حتى انتهاء الشتاء، أما حكاية أنها طويلة، فإن ديانـــا تبـــدو وبالفعل وكأنها فارعة، ربما لأن تقاطيعها ذات خطوط رأسية متوازية مما يجعل الطول أكثر طولاً، إذ أن ديانـــا- وســـط الناس- ليست أطول من الجميع، ومن باب الملاحظة، فـــإن سائس الخيول الذي سبق لديانا - الله يرحمها- أن اعترفـــت تليفزيونيا أنه قد حدث بينهما- لا مؤاخذة- الذي حدث بينهما منذ أسابيع قليلة، وكان واضحًا أنها تلقى بقنابلها على الجبهة المضادة التي يقيم فيها السيد الأمير تشـــارلز مـــع كـــاميللا عشيقته، كل هذا سقط من الحكاية، وتبخر في النفـــق الـــذي اصطاد السيارة التي كانت وكرًا لها مع السيد دودي، دعونا نقرأ الفاتحة علـــى روح الجميـــع، ونحـــاول التســـلل إلـــى مشاكساتكم، والتي استبعدت بعضًا منها، حيث لا أستطيع أن أتظاهر بالشجاعة في مواجهة ما تثيرونه أحيانًا مـــن أمـــور تثبت أنكم تحررون خطاباتكم في الهـــواء الطلـــق- أي دون الإحساس بالمسئولية.

أي كلام

- لماذا يتسم طوال القامة بالذكاء أقل مـــن القصـــار؟ ولماذا تتركز العبقرية في الفقراء؟!

(آمال إميل- الأقصر)

– أنت تعرفين أن معظم ما جاء بخطابــك لا يصـــلح للنشر، وأنني لجأت إلى صياغة القليل منه بطريقة متعســفة، إذ أن اتهام طوال القامة بالسذاجة أو عدم الـــذكاء لحســـاب قصار القامة الذين –في هذه الحالة– سوف يتسمون بدرجـــة أعلى من الذكاء، إنما هذا من الأفكار الهائمة أو الطائشة التي تقف أيضا وراء حكمة تصمم على أن كل ذي عاهة جبار – مثلاً، أو ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع، وواضح أن تعميم الجبروت على ذوي العاهات –رعاهم الله– يناقضه أن كثيرين من الجبابرة لا أثر لعاهات معروفة فـــيهم، كمـــا أن المثل الذي يحتوى الطير للتنبيـــه والإشـــارة التـــي تحمـــل الموعظة إلى أن كل من ارتفع وعلا سوف يقع حتمًا لـــيس صحيحًا بالمرة، وكتب التاريخ تحمل عددًا مهولاً من هؤلاء الذين ارتفعوا وظلوا في حالة ارتفاع –بالمفهوم المعنـــوي أو المادي– حتى انتهى أجلهم، أما المثال المطروح في مســـألة (القصيرين) الأذكى من (الطوال) في أدولف هتلر، الـــزعيم الألماني الشهير، فقد هزمه – وأودى به– الســـيد ونســـتون تشرشل الطويل والعريض أيضًا، كما أن الذين قادوا الجيوش التي هزمته كانوا طوالاً: أيزنهاور الزاحـــف إلـــى فرنســـا،

ومونتجمري الذي دمر القوات الألمانية في شمال أفريقيا بقيادة روميل، وعلى هذا الأساس يمكن النظر إلى نماذج قصار القامة التي وردت في رسالتك: شارلي شابلن وسارتر وهوشي منَّه (قائد فيتنام) وغير ذلك من عباقرة هم أصلاً عباقرة لأسباب إلهية ولا تخضع للطول أو العرض، حيث يصبح صعبًا أن نسقط من النظر ديجول وبرنارد شو وبرتراند راسل وألبير كامي وعباس العقاد وطه حسين، وأقصى ما يمكن قوله أن هذه الموهبة- التي لا تفسير لظهورها في أشخاص بعينهم - تنمو في ظروف مناسبة لتشكل التكوين النهائي للشخصية العبقرية.

وهذا نفسه ينطبق على مقولة عبقرية أبناء الفقراء التي تفوق مثيلتها في أبناء الأغنياء، مع أننا - نحن أبناء الطبقات الكادحة الفقيرة- نميل إلى احتساب العبقرية والموهبة لصالحنا، بحثًا عن التوازن الذي يجعل من الفقر امتيازًا والغنى مثلبة، ونسقط ذلك إذا ما أصبحنا - إن أصبحنا- أغنياء، وسوف أتوسع في هذه النقطة لأنبه إلى أن يحيى حقي ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وعبد الرحمن الشرقاوي لم يكونوا أبدًا من أبناء الفقراء، ومع ذلك فإنهم

ذوو موهبة راقية استطاعت أن تعبر عن هموم الفقراء والكادحين، كذلك كان تشيكوف العظيم، كان طبيبا في عصر معروف بأن طبقاته المرتاحة هي التي تنجب غالبية الأطباء والضباط والسياسيين، وهذا إجابة في حدود السؤال أو التساؤل، دون أن نبخس حق الطبقات الكادحة في إنتاج الموهوبين، والتفاخر بهم بعيدًا عن الطول والعرض والفقر والغنى، مع الإقرار بأن الفقر يمكنه أن يدمر أي موهبة، والثراء كذلك.

وجع الدماغ

– هل يعتقد أن الإبداع المصري –حاليًا– يواكب الإبداع العالمي، ونرجو ألا تتمحك في موضوع حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل..

(محمود سيد عبد الباسط، سعيد أمير– عابد أبو اليمين– بولاق أبو العلا– القاهرة)

– لماذا لا أتمحك كي أفخر بحصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل إثباتًا للقدرات العالية للإبداع المصري؟ ولماذا– أيضًا– الإبداع المصري فقط دون أن تكون (المنازلة) شاملة الإبداع العربي كله؟

ومع ذلك فإن الإبداع العربي –والمصري في موقع القلب منه– يحتل موقعًا معقولاً في الساحة العالمية، ومنذ

بواكير ظهور الفن والأدب- في مصر بالذات- أوائل هذا القرن العشرين، والعالم يندهش ويسرع فيترجم ما يتاح له من اطلاع على إنتاجنا في كل المجالات: المسرح والشعر والرسم والنحت والقصة القصيرة والرواية، وعرف العالم رواد حركتنا الفنية والفكرية مبكرًا: طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم ومحمود مختار ويوسف كامل ومصطفى مشرفة وعبد الهادي الجزار وعبد الرحمن بدوي، وآخرين كثيرين، لكن الأمر ضاق -بعد ذلك- حينما جاءت ثورة يوليو ١٩٥٢، إذ أن الحصار الأوروبي الذي قادته الصهيونية العالمية ضد مصر حال دون أن يعرف العالم الغربي حركتنا الأدبية والفكرية والفنية بشكل واسع وصحيح، لدرجة أن كاتبة سويدية وضعت كتابًا -في السنوات الأخيرة- حول الأدباء الذين سجنوا أيام عبد الناصر، وكان من بينهم الشاعر أمل دنقل- الذي لم يحدث له أن سجن في أي عصر، أقصد أن صورتنا عندهم كانت واقعة تحت التشويش والتشويه والمعاداة، ولذا فقد تم -في الستينات- ترجمة كثير من الأدب العربي لأوروبا الغربية والوسطى (ألمانيا وفرنسا وإنجلترا) دون الإنتاج المصري، إلا القليل

جدًا، الاتحاد السوفيتي فقد كان شديد الحرص أيامها على ترجمة الأعمال المصرية لأسباب أيديولوجية بحتة، لكن الأمر تغير بعد ذلك –وبالذات بعد عام ١٩٧٧– حيث أصبحت مصر نقطة استقطاب للمترجمين ناقلي أعمالي إلى هذه البلدان، إذن فإن الأدب المصري استطاع أن يحقق نجاحات واسعة في الحركة الثقافية العالمية، وفي مواقع الدراسات الأكاديمية أيضًا، وهناك درجات علمية عديدة حصل عليها باحثون في الجامعات الأوروبية والأمريكية حول أدباء العصر الحالي للوطن: يوسف إدريس وصلاح عبد الصبور ونجيب سرور وأحمد عبد المعطي حجازي وعبد الرحمن الأبنودي وجمال الغيطاني ويوسف القعيد وغيرهم، كما أن أدباء جددًا– لم نسمع عنهم أو نعترف بهم في مصر– وجدوا طريقهم للترجمة عن طريق الشلل والقوميسيرات (أي الوسطاء)، أو لأنهم يعملون في مجال يتصل بمراكز الترجمة هناك، كما أن بعض الذين يدرسون الأدب في الأكاديميات الأوروبية والأمريكية يقومون بجهد واضح في التعريف بأدبنا، وهو أمر له أهميته حتى ولو كان

هؤلاء الذين يقومون بذلك ذو نظـرة قاصـرة لا تتجـاوز معارفهم.

بالتأكيد عرفتنا أقطار أوروبا، وبعض مراكز التخصص في اليابان، لكن العالم الأوسع: باقي أفريقيا وآسـيا وكنـدا وأمريكا الجنوبية، وغير ذلك من مناطق، فإنها تنـأى بعيـدًا عن الاهتمام بنا، إلا فيما ندر، غير أن الاهتمـام الأوروبـي سوف يؤثر في اتساع نقل أدبنا إلى باقي العالم، وخصوصًـا أن أقطارًا كثيرة خارج أوروبا لا تزال لغتها القومية أوروبية منذ عصور الاستعمار.

نود التنبيه إلى أن أدباء في بلد ضخم مثل تركيا، يطـل ويتماس مع أوروبا، غير معروفين في أوروبا، قد لا أكـون مخاطرًا إذا ما قلت إن البلاد الأوروبية لا تعرف من أدبـاء تركيا سوى ناظم حكمت، ونحن كذلك.

ويكفينا فخرًا أن واحدًا من مصر حصل علـى جـائزة نوبل هو نجيب محفوظ، وليس هذا من باب التمحك، يوسف إدريس كان يستحقها أيضًا.

نصيحة

– ما نصيحتك لمن يتمنى أن يصبح أديبًا يشار إليه بالبنان؟

(عبد الله صعب– السويس– مدينة الشيخ زايد)

– أن ينسى حكاية يشار إليه بالبنات.

الاحتفال بالحمامصي

– لماذا تحتفل أخميم بالأديب عبد العال الحمامصي كل عام، ولا تفعل ذلك أي مدينة أخرى مع أبنائها؟

صديقة عبد الوهاب – سوهاج

– ظاهرة لم يقم بدراستها أحد حتى الآن، وأعتقد أنها ترجع إلى المستوى التعليمي لمدينة أخميم، وبالذات بالنسبة لقياداتها الثقافية، وعبد العال الحمامصي يستحق ذلك وأكثر، وعليه أن يحمد الله أنه لم يولد في مكان آخر غير أخميم، كما أرجو ألا ينفتح باب احتفالات مختلف البقاع بأبنائهم الأدباء، لا لكثرتهم، ولكن خشية أن تتوجه الاحتفالات إلى من لا يستحق، ولاسيما أن عددًا من الذين حازوا وضعًا أدبيًا في السنوات الأخيرة لا علاقة لهم بالأدب أساسًا، نود أن يتوقف هذا الاحتفال عند أخميم وعبد العال الحمامصي، وبعد عمر

طويل سوف يرثه –في الاحتفال– الشاعر الجميل محمد الحمامصي.

اتهام

– يقال إنك شديد القسوة على الأدباء الجدد!!

(محمد عبد النبي إبراهيم– كرموز)

– ومع ذلك استفحل أمرهم.

الوهم الأكبر

– في جلسة سمر حكى واحد من أقاربنا الأدباء في القاهرة أنك تملك بيتًا ذا حديقة واسعة، فلماذا تحاول الادعاء بالفقر والانتماء للفقراء؟

(مديحة وليلى عبد المؤمن– الفيوم)

– الحدائق التي أعرفها: حديقة الحيوان بالجيزة، وحديقة بالجزيرة، وحديقة مستشفى ديروط التي كنت أذهب غليها وأنا صغير بحثًا عن علاج عيني، وحديقة مصلحة الري على قناطر ديروط (وقد تم تدمير الحديقتين)، وحديقة إسماعيل كامل بديروط الشريف، وحديقة واسعة في الإسكندرية، وحديقة النباتات في أسوان، وحديقة شركة السكر في كوم أمبو، وحدائق متناثرة في الإسماعيلية وإدفو

والغردقة والعريش ومطروح، فأيها كان يقصد قريبكم الأديب الذي زارني في واحد من بيوتي؟

وبعد، فقد جاء عم عثمان في موعد تسليم أوراقي هـذه للمصور، دون أن أنتبه لمرور الوقت، مع أن فـي جعبتـي رسائل أخرى، ومكالمات تليفونية، تستفسر عن أمور عديـدة أخرى، مثل حبي للحوم، والورد، والشعر، ومسك السـيرة، وما أعانيه من قلة النوم، وقلة النقود، وندرة الوفاء أيضًا..

وسوف أعمل حسابي كي أكتب عن ذلك بمعزل عن عم عثمان.

ليالي الأنس
والثقافة والضجيج
في الفيوم

أنصت للفيوم وسحرها وأغانيها واتساع آفاقها، لها شخصية مميزة سواء في كتلة الوادي الذي تعلو هامته بحيرة قارون، أو في المنخفض الساحر الذي تكون لؤلؤته مدينة الفيوم ذاتها، ومع ذلك فإننا –نحن أهل ديروط– تربطنا أسطورة بالفيوم، ذلك أن سيدنا يوسف كان قد خرج من السجن الذي دخله في قضية اتهامه بمراودة زوجة عزيز مصرن وذلك كي يحقق تفسير الحلم المقلق الخاص بالبقرات الشبعانة والسنابل المكتنزة، فامتطى سيدنا يوسف جواده واختراق الفيافي من الجنوب متجهًا شمالاً، وعند ديروط –بلدنا– أصابه إرهاق الرحلة فنام وهو على حصانه، لكن عكازته ظلت معلقة في ركابه ترسم خطا على الأرض، هذا الخط الذي اندفعت فيه مياه النيل لتصنع مجرى موازيًا للنيل ذاته هو بحر يوسف، ولم يستيقظ سيدنا يوسف إلا في الفيوم، حيث أصبح من المناسب أن يبدأ الزراعة والتخزين في الوادي المستحدث، ليواجهوا بسنوات الرخاء السنوات القادمة

العجاف، ولذلك فإنني- وأنا أتحرك في الفيوم أكاد أحس أنني أشم رائحة ديروط، ولا أحس بأية غربة مع أن المسافة التي يقطعها بحر يوسف من ديروط إلى الفيوم تتجاوز مائتي كيلو متر، وعندما جاءني خبر عودتي للمشاركة في المؤتمر الأدبي الذي سوف تعقده هيئة قصور الثقافة بالفيوم، عن واقع القصة والرواية في مصر، لبيت الدعوة سريعًا لأسباب تخص الفيوم ولا علاقة لها بمسائل الرواية والقصة إطلاقًا..

١- الافتتاح

كان الافتتاح مثيرًا للسخرية من أوله، جلسنا طويلاً في انتظار المحافظ محمد حسن طنطاوي وكبار القوم، وليس لأي اجتماع حساب للوقت دون أن يأتي كبار القوم (وهذه مسألة مصرية خالدة)، الجو حار وغير مباح لنا أن نشرب ماء أو شايًا أو حاجة صاقعة، نحن محاصرون -وأغراب- في قاعة المحافظ، والوقت يمر بطيئًا، ونحن الأدباء رأس رمح الحرية والتمرد وانتقاد كل الأوضاع، لكن الحكومة المحلية في الفيوم ظلت تنظر للأبواب دون إنصات لحركة العراق التي تسح في رقابنا، ثم ظهرت مشكلة نواجهها دائمًا دون أن نملك حلاً، فمن الملاحظ أن موظفي المحليات يخلون

من الخيال الذي يتيح لهم إدراك معنى (كبـــار الـــزوار)، إذ بدأوا يضغطون على مسئولي الثقافة – محمد عبد المعطـــي ويسري ناصر وشركائهما– كي يقوموا بـــإخلاء الصـــفوف الأولى، أو الصف الأول على الأقل، وهـــو الصـــف الـــذي يجلس فيه يسري العزب وأحمد الشيخ وعبد العزيز مـــوافي، وغيرهم من الأدباء، بالإضافة إلى شخصي الغلبـــان الـــذي يرتدي جلبابًا، وموظفو المحافظة يرتدون– في هذه اللحظات الخالدة خلود النار– البدلة الكاملة والكرافتة الكاملة والأحذية الكاملة، إنه احتفال يمثلون فيه تحت سطوة ظل الفرعون في القاعة، ولكي يخف الضغط على ممثلي الثقافة قلت بصـــوت واضح: إنهم يجب أن يعلموا أننا لن نقوم من المقاعـــد ولـــو انطبقت سماء الفيوم على أرض ديـــروط، فـــاهتز الوســـط البيروقراطي والجمجمة الثقافية وجاء أبنـــاء ثقافـــة الفيـــوم ليشيعوا بيننا الاطمئنان المناسب، فحمدنا الله، بعـــدها جـــاء الحل البيروقراطي: صف من المقاعد العالية أمامنا (ونحـــن نجلس على مقاعد واطية)، فكدنا نختنق، وكان كبار الزوار– بالنسبة لموظفي المحليات: ضابط كبير (يهيأ لي انـــه مـــن الجيش) ثم شيخان معممان، ثم موظف يرتدي البدلة كاملـــة

أيضًا، ثم..، فتحملنا الأمر وقرونا أن نعتقد أن هؤلاء هم لب الرواية والقصة القصيرة في مصر، بعدها بأيام طويلة مرهقة جاء السيد المحافظ –وهو رجل طيب بالفعل– وبجواره: مدير الأمن ورئيس المجلس المحلي ومدير تحريك نجوم السماء ورئيس قطاع العفاريت الحمراء، ثم –بين كل هؤلاء– أو على أطراف هؤلاء: جلس الدكتور صلاح فضل رئيس المؤتمر من ناحية، وبجواره أحمد لبنة رئيس القطاع الثقافي، ومن الناحية الأخرى باشاوات آخرون يكون في نهاية طابورهم عزيزنا محمد عبد المعطي أمين المؤتمر، كل رجالات المحافظة جاءوا ليشرفوا الرواية والقصة القصيرة ويحلو مشكلة الحداثة فيها، مع أن الأمر ليس فرحًا أو مولدًا، إنما كان يكفي أن يشرفنا السيد المحافظ ومعه مسئولو الثقافة فقط، لكن ذلك يحتاج إلى مفاهيم أخرى غير المطروح في بلادنا العزيزة، والتي وصلت إلى قمتها في الكلمة التي ألقاها الشيخ السنراوي.

٢- الشيخ السنراوي

دعك مما أثاره الدكتور صلاح فضل من تحرير العقل من تراكمات مجهدة تحول دون إدراكه معنى الحرية وما يعنيه ذلك من أن يتخلص العقل المبدع من تلك الرقابة المؤثرة التي تدمر الإحساس بحرية النص الأدبي، وما إلى ذلك من أمور نعاني منها، ولا سيما بعد أن تفشت الرقابة الأخلاقية على الإبداع في الأعوام الأخيرة، إذ أن الشيخ السنراوي جاء إلى منصة الخطابة بتقديم واضح أنه مستشار المحافظ للشئون الدينية، أي أن الرجل يحمل أرقى الأفكار عن الدين والدنيا، السلوك والإبداع، ولاسيما أن الرجل كان يتكلم جادًا -لكنه آثار كثيرًا من المرح فمن حقه علينا أن يطالبنا بمراعاة الأدب (أدبني ربي فأحسن تأديبي)، وأن نلتزم بمفهوم الأدب عند الصحابة، رضوان الله عليهم، وقص حكايات طويلة مثيرة للمرح الشديد- دون أن يدرك في كثير منها أنها تثير المرح، فلما فطن الرجل لذلك بدأ يثير المرح أكثر، وكان واضحًا أن الأدب الذي يمارسه كل أدباء القرن العشرين المستشرف للقرن الحادي والعشرين لا علاقة له بأدب الشيخ السنراوي، قلنا له: لماذا لا تكتب أنت بهذا

المفهوم القصة والرواية فقال: وكأنه على منبر الجمعة– أنا القصة، وأنا الرواية، أعطاك الله الصحة. لقد سعدنا بالفعل وتفاءلنا بحركة القصة والرواية؟ كنا نخاف على النص الأدبي من التيارات السلفية قبل وصولنا للفيوم، لكننا الآن شعرنا باطمئنان طاحن قوي ونحن نسمع الشيخ السنراوي، مستشار محافظ الفيوم للشئون الدينية، وسوف نعمل على تنفيذ ما رآه واجبًا في مواصفات الإبداع من الآن، وهو ما يذكرني بما قام به خالي أحمد خميس الشاعر، والذي كان يرى فيما أكتب تحللاً من الأخلاق (هذا دون أن يقرأ شيئًا حقيقًا لي– أو لغيري)، إذ كان يصرخ في والدتي التي ترى فيه العالم ببواطن أمور الثقافة: اسمعي يا أم محمد، فتنصت إليه أمي رافعة عيونها فيه امتثالاً، فيقول بصوت جهوري: القصة إن لم تنه عن الرذيلة، وتحض على الفضيلة، فهي ليست قصة، فتقول أمي في امتثال وحزن: طيب يا خوي، محمد –الذي هو أنا– هياخد باله، ولم نخرج بعيدًا جدًا عن جو خالي وأمي ونحن في حضرة الشيخ السنراوي الذي يشارك في افتتاح مؤتمر الفيوم الثقافي الثالث، المنعقد لمناقشة: واقع القصة والرواية في مصر.

٣- أخاديد الفيوم والضجيج

كان واضحًا أن رؤساء قطاعات الثقافة في أقاليم مصر يعانون في سبيل إرضاء كل الأطراف، وقد تركنا العزيز أحمد لبنة مشغولاً بذلك، وبعد الغداء في نادي المحافظة والنوم ساعة الظهيرة- جاء الدكتور نجدي إبراهيم ليصحبنا في سيارته إلى رحلة ليلية نحن في حاجة إليها، لعل مرافقنا الجميل النادر هبة عنايت هو خير من يفيض علينا بحديثه الطلي وتجاربه وعدم ادعائه بتحقيق ما لم يحققه أحد، إنه لا يضع مسافة بينك وبينه، هادئ هامس مرح، تنقله إلى ثقافة الجماعات المنتشرة في مصر من بشارية وعبابدة وبدور، فينقلك إلى ذكرياته مع صلاح حافظ وشوقي عبد الحكيم (أبناء الفيوم)، وكان في سمره يطرح المؤتمر الثقافي ذاته، فإذا أضفت أن هبة عنايت جزء من حركة فنية مهمة ومؤثرة، بصفته الشخصية ولأنه رفيق الدرب مع صلاح جاهين وفؤاد حداد وحسن فؤاد وراجي عنايت وشلة رواد الحداثة في التعبير: الرسم والشعر والإدراك العلمي والإحساس بالحياة، تكون المصاحبة -هنا- ذات أثر كبير، أما نجدي إبراهيم- طبيب الأسنان - فهو إنسان دمث

صاحب خيال قصصي رائع في حكايات مصرية– والـــدائرة – وأنا السلطان، كما أن لديه زادًا لا ينضب من تجاربه طالبًا وطبيبًا ومبدعًا، (وكان معنا مدحت الجيار– الـــدكتور– فـــي تلك الليلة لكنه كان طرفًا سلبيا نادرا ما قـــامر أو غـــامر أو تفاعل)، وعندما وصلنا إلى عين السيلين الرائعة بالخضــــرة والتشكيل، كان أضواء الأفــــراح تــتلألأ، وأم كلثـــوم فـــي الميكروفونات تتلألأ أيضًا، ومن المفروض أن هذه منطقـــة سياحية تبيع الهدوء والسكينة لأناس هاربين من الضجيج أيًا كان هذا الضجيج: في الشوارع والمقاهي وأجهزة التســـجيل، ولذا فقد طلبنا إغلاق هذا القلق، كنا وحــــدنا ولا أحـــد فـــي المنطقة كلها سوانا، فلماذا هذا الضجيج؟ واضح أن الضجيج أصبح عادة ممتعة يطلبها الناس عندنا في أي موقع يرومونه. سأشير إلى جماعة من أصدقائنا في ديروط، دعوتهم لقضاء بعض الوقت معًا– مع أهمية المأكول والمشروب هنا، وكـــل واحد يدخل البيت، وقبـــل أن يجلـــس يكتشـــف أن جهـــاز التليفزيون كامن في ركن الصالة، فإذا به يقف ويتوجه إليـــه ويفتحه ويعود ليتكلم، كيـــف؟؟ فأصـــبحت مهمتـــي إغـــلاق التليفزيون بضجيجه وصخبه وقدرته على تمزيـــق أواصـــر

التواصل، لا أحد يريد أن يخلو بأصدقائه إلا تحت سقف من الضجيج، لقد كانت السيلين جنة الله في أرضه، والليل الجميل يحاول أن يظل جميلاً في أتون الأضواء المتراقصة والغناء الصارخ، ومن أسهل الأمور أن تطلب إقفال كل هذا الضجيج، فيتحول الأمر كله إلى أنك لا تحب أم كلثوم، وكأن السماع يشترط الضجيج أصلاً فيه، وهو الأمر الذي نعاني منه حينما يفتح جارك أعلى أصوات القرآن الكريم، متسلحًا بأنه حرام أن تخفض من صوت كلام الله، مع أن القرآن الكريم –حين تسمعه في حدود الهمس الجميل يصبح ساريًا في الروح، وأن الضجيج يؤثر في الولاء نحو القرآن الكريم، والمشهد الدائم لهذا أن تجد الصوت العالي للمسجلات يذيع القرآن الكريم– والعيال والكبار يضحكون ويتناهشون ويتباذءون دون اهتمام، لابد أن تكون هناك تقاليد للسماع حتى لا يحدث مثل كل هذا الذي يحدث.

الطريق من عين السيلين إلى الفيوم جميل بخضرته الرائعة وسكونه الليلي الراقي، حيث تصبح العودة للفندق في الثالثة صباحًا عزفًا ضروريًا للحركة الهادئة من سيمفونية أول أيام الفيوم، والتي سوف تكون أروع لو أن جمال الفيوم

اكتساه الهدوء دون ضجيج أفـراح الحـارات الـذي دمـر التواصل الجميل مع أخاديد الفيوم.

كنت -في دعوتي إلى القاهرة- مشـغولاً بهـذا الـذي يتحفز كي يوقع عملية الإبداع بين مخالبه، كمـا أن زميلـة صحفية وقعت في براثن زميل لها في عملية زواج، ولكـي يفرج عنها سوف يأخذ الشقة ومحتوياتها (وكل ذلـك ملكهـا وصاحبة الحق فيه)، واضطرت -كمحاولة للخروج- أن تلجأ للطب ليكتب تقريره متعاطفًا معها (أعـوذ بـالله)، ولجـأت للقضاء وكان الحكم لصالحها، لكن ذا المخالب استأنف الحكم ليطيل أيام العذاب، ورحت أفكر فـي هـدوء فـي زميلتنـا الصحفية صاحبة الشقة المشار إليها، والتي أنوي أن أتقدم بها لسهرة تليفزيونية، أو مسرحية، أو رواية، ولا سيما أن جـو الفيوم يسمح لـي بـالتفكير الهـادئ بعيـدًا عـن ضـجيج المؤتمرات، والمسجلات وأضواء الموالد، والابتزاز، حيـث تتمدد الآفاق إلى بعيد جاذبة معها كل ما يجب أن نرقي إليـه من المعاني الجليلة، والتي لن يكون فهيا أي ابتذال، لنعـود وندرس من جديد تلك الكوارث التي تحيط بنا نحن أصحاب الرواية والقصة القصيرة في السنوات الأخيرة، والتي تحتاج

إلى مؤتمر آخر، في الفيوم الجميلة أيضًا، والتـــي أفكـــر أن أمتطى مها حصانًا وأتوجه جنوبًا كي اصـــل إلـــى ديـــروط – بلدي– وأكون قد غلبني النعاس، فتقوم عكازتي بعمل خط مجاور لبحر يوسف وحين تجري فيه المياه سوف يطلقـــون عليه بحر مستجاب، لكن المشكلة القائمة: هل رأيت مجـــرى مياه يتجه من الشمال إلى الجنوب؟؟

موقعة قناة كركوك

إلى المهندس/ **أحمد عبد الرحمن عوف**

أينما وكيفما يكون

كنا في عنفوان العمل في مشروع السد العالي بأسوان، حينما سمعنا عن مشروع قناة كركوك بالعراق، كان عثمان أحمد عثمان- المهندس- قد أصبح أهم الشخصيات المحبوبة إلينا، تتسلل أخباره إلى تجمعاتنا ومواقع نومنا بالطريقة السلسلة الجميلة نفسها التي كنا نتتبع فيها أخبار نجوم السينما والسياسة، والأدب أيضًا، ويوم أن كان يحضر إلى موقع العمل في السد العالي نكاد نصبح عمال فرن يتفننون في إبراز أقصى جهد لأن صاحب الفرن يزورهم، مع أن عثمان لم يره معظم الناس إلا أيام تحويل مجرى نهر النيل، حيث جاء قبل وصول الرؤساء الضيوف: عبد الله السلال وبريجنيف وخروشوف والبكر- أو عبد السلام عارف لا أذكر- وآخرون، حينذاك رأى الجميع المهندس عثمان، وفي غير هذه المناسب كان عثمان يحضر إلى أسوان مرة أو مرتين في العام -في الشتاء بالطبع، ويلتقي في مكمنه (الذي لا نعرف إن كان في فندق كتراكت أو في الاستراحات

المتعددة) بأقرب الناس من العاملين إليه: المهندس جمال البطراوي وكمال المهدي وأحمد عبد الرحمن عوف، وهو في كل الحالات حضر أو لم يحضر- أسطورتنا الخاصة..

كما من حبنا له نختلق من الأحداث والأحاديث ما يؤكد هذا الحب، دون تدقيق أو اهتمام بمدى واقعية هذه الأمور، هو الذي كان وراء تغيير موسى عرفة- أول وزير للسد العالي، وهو الذي وراء استبعاد إبراهيم زكي قناوي من هيئة السد العالي، مع أن إبراهيم زكي قناوي شخصية نادرة وقوية وظل مرتبطًا بمشروع السد العالي منذ إنشائه حتى الآن، وهو الذي انبرى كثيرًا للدفاع عن السد العالي خلال الفترة التي تعرض فيه للهجوم، لكن عثمان أحمد عثمان كان – في نظرنا- وراء تقلبات الطقس وتغيير كبار الشخصيات وتحركات التضاريس، فقد كان هذا الرجل محبوبًا من جمال عبد الناصر، وكان -حتى رحل- شديد الاعتزاز به، وعندما اقتربت أكثر من أريكة عثمان أتضح لي مدى اتساع وعمق هذا الحب، حتى أنه- وفي غمار محاصرة الاقتصاد المصري من الدول الأوروبية في الستينات، وما أدى بنا إلى تقليص التعامل المفتوح معها -كان عثمان هو الشخصية

المصرية الوحيدة الذي تحتل شركته –المقــاولون العــرب– موقعًا خاصًا في أرصفة شحن وحســابات بنــوك بــريمن الألماني، كان عبد الناصر شخصيًا يذلل لعثمان أية تعقيدات أو عوائق، وخصوصًــا فيمــا يتعلــق بــالعملات الصــعبة والحصول عليها، نعم: كــان عبــد الناصــر يقــوم بهــذه الاستثناءات والتسهيلات من أجل خاطر مشروع السد العالي، لكن الحب والمنزلة التي أحتلها عثمان كانت ســببًا أصــيلاً أيضًا، إذ لم يكن ميناء بريمن وبنوك بريمن تخدم السد العالي فقط، ولا سيما أن أقطارًا –ثورية– عربية وجدت نفسها فــي موقع مصر نفسه، مثل العراق وسوريا.

العراق بالذات مدت يدها لمصر بعد هزيمة يونيو بقليل، كان العمل في السد العالي قد اضطرب بعض الشيء ثم لــم يلبث أن استوعب الكارثة بعد أن توقف التشغيل الليلي، وجاء مشروع قناة كركوك –شمال شرق العراق– بضجة إعلامية مؤثرة، إنه الذي سوف يحتوى الأيــدي العاملــة المصــرية الفائضة– والنائمة في كسل حول مشــروع أســوان، وفــي الحقيقة كان التخطيط المصري المبكر أن قوات العمل فــي أسوان بكل تنوعاتها سوف تداوم العمل بحماس وطني فــي

المشروعات الضخمة المستحدثة: وادي الصالحية في جنوب الزقازيق حتى يلامس طريق السويس- القاهرة، ثم الوادي الجديد في الواحات الذي كان مركونًا ليكون الخطوة التالية بعد مشروع الصالحية، وبالفعل تم تحريك بعض المعدات من أسوان إلى الصالحية مثل الكراكات الصغيرة والبلدوزرات وآلات البحر والحفر، وكان ذلك قبل حرب يونيو بعام أو أكثر قليلاً، حيث بدأت الأعمال التمهيدية كالتخطيط وتحديد مواقع التجمعات والرسومات ودراسة القطاعات.

وقد تم دفن كل ذلك في هذه المساحة الشاسعة من وادي الصالحية. دفنت في سراديب وأنفاق وخنادق الخطوط الدفاعية للجيش بعد أن دخلت منطقة الصالحية الحرب كمنطقة مواجهة أولى، ووضعنا يدنا على قلوبنا، حيث لم يكن أحد يتصور ذلك، ولذا فإن مشروع قناة كركوك كان يعني فض الحصار النفسي الذي لازمنا بعد الهزيمة، وانتهاك مشروع الصالحية، وهو الذي تم إصلاحه بعد ذلك بشروط وأهداف أخرى.

لا أعرف كثيرًا عن التفاصيل الهندسية لمشروع قناة كركوك، لكني عرفت أن شركات عالمية عديدة- ومنها

شركات مصرية للمقاولات هربت من مصر- وأخرى يوغسلافية- قد تقدمت بدراساتها وأسعارها في التشغيل الخاضعة للمناقصات، وبالفعل كانت المقاولون العرب قد أعدت الدراسات والأسعار للمواصفات، والتي كانت أرخص من أية شركة أخرى كما قيل حينذاك، وقد جاءت الإشارة السياسية من العراق ومصر كي تقوم المقاولون العرب بحفر وتبطين وتسوية قناة كركوك، مع إصلاح ما يكون حولها من أراض دون أية شركة أحرى ودون دخول في المناقصات بالمرة.. ودون المساس بأحد، فقد تولى قيادة المشروع المهندس صلاح حسب الله، لذي الصبح بعد حوالي ثلاثين عامًا وزيرًا للإسكان في مصر.

وبعد عامين -أوائل ١٩٦٩- حدثت أشياء غامضة لا ندرك كنهها نحن صغار العاملين، فقد استدعى المهندس أحمد عبد الرحمن عوف- أخطر مهندسي السد العالي على الإطلاق- ليتولى زمام المشروع العراقي بعودة الأسمر الفارع وجسده النحيف وصمته الطويل وضحكاته المقهقهة..

وكنت أنا أحد رجال أحمد عبد الرحمن عوف.

كان العمل في السد العالي قد اختصر بسبب الظروف، وأصبح إيقاعه نمطيًا، وعاديًا، فقد ظهر جسم السد، وتم إقامة محطة الكهرباء الضخمة، ويصبح الباقي تسويات وتشذيبات وأعمال هندسية ملحقة لا تحتاج إلى الجهود السابقة، وكـــان المهندس عوف شخصية لها مذاق خاص، لمكنـــه أن يعمـــل يومين متواليين، وهو في العمل حاسم بأثر هامس، لكنه- إن فارق العمل- وجلس ليحتسي فنجان قهوة في النادي أو فـــي (نصبة شاي) على ضفاف النهر، فسوف تستمتع بـــابن بلـــد خالص، يعرف معنى المرح والتعليقات الشـــائكة والنكـــات الشائكة أيضًا، ذات مرة قضى وقتًـــا طـــويلاً فـــي عمليـــة (الطمية) التي كنت أعل بها، وتقع بعد ثلاثين كيلو مترا فـــي عمق الصحراء العربية حيث كنا نستخرج الكاولينا أو الطين الأسوانلي أو الطمية لنواة السد العالي، وحـــدثت فـــي هـــذا الموقع أمور رأى أن يسهر عليها بنفسه لإصلاحها، وظللـــت أنا بالموقع معه- في الحقيقة معظم الناس رفضـــوا مغـــادرة الموقع، كانت كميات من الرمال والطميـــة والصـــخور قـــد انهارت فوق إحدى الكراكات الضخمة، وكان لابد أن يظـــل بالموقع حتى ينتهي تجريف كل هذا، انتهى الأمر كلـــه قبـــل الفجر بقليل، وأخذني معه في سيارته لأن (البلوك) الذي أقيم

فيه كان قريبًا من الاستراحة التي يقيم فيها، وعند المسجد نزل لأنه كان مواظبًا على الصلاة، وبالفعل كان أذان الفجر قد بدأ حينما حاولت أن أنام في فراشي، مما أدى إلى التأخر في الصباح عن سيارة الوردية، فاضطررت أن ألجأ للسيارات العاملة في نقل الطمية لأصل إلى الموقع، وصلت هناك بعد الساعة الثامنة بقليل، وبدأت أعد تقارير الإنتاج خلال الورديات السابقة لتصبح تقريرًا واحدًا به بيانات محددة عدد السيارات وعدد النقلات والكمية المنقولة من الطمية بالمتر المكعب في كل وردية، ثم تقرير الأعطال أو معوقات العمل، كنت أعمل بكفاءة يعرفها جميع من عمل معي، وفجأة فوجئت بت (أورنيك) جزاء خصم ثلاثة أيام لوصولي لمنطقة العمل متأخرًا، والتوقيع: المهندس أحمد عبد الرحمن عوف، وعرفت من عام المكتب أن عوف بك في مكتب المهندسين، وذهبت إليه كي أرفع الجزاء ولاسيما وأنني قضيت كل الوقت لغاية قرب أذان الفجر معه، قال في هدوء: أنا اعرف فقط أنك تأخرت عن عملك، ورفض المناقشة على أساس أن سهري لا علاقة له بتأخيري في العمل.

* * *

بعد ذلك بسنوات جاء الخبر أن المهندس عوف سـوف يرأس مشروع قناة كركوك بدلاً من الإدارة القائمة، وبالفعل سافر الرجل للقاهرة، ثم إلى العراق، وعـاد ليختـار -مـن جديد- أفرادًا لهم مواصـفات خاصـة للعمـل معـه، وأول الشروط عدم وجود حافز مادي ذي شأن كبير، وكنـت قـد انتقلت للقاهرة بأمر منه، فقامت إدارة شئون العاملين بالقاهرة بقص مرتبي حينما أصدر المهندس عوف أوامره بنقل أولى مجموعات العمل بمرتب القاهرة مضاعفًا مرة واحدة، يعنـي أحصل على ١٧ جنيها في القاهرة (للأسرة) و١٧ دينارًا في العراق، وكان الدينار العراقي يساوى جنيها وأربعة قـروش أيامها ولك عملة منها تساوي ثلاثة دولارات أمريكية، لكـن العمل مع المهندس عوف كان ممتعًا، وسافرت بالفعـل مـع أولى مجموعات العمل إلى بغداد، وكان هو بنفسه ينتظرنـا في المطار، وأعطى تعليماته لمعاونيه بأن يتوجهوا بالعمـال إلى موقع العمل في قناة كركوك على مسافة أربعمائة كيلـو متر -تقريبًا- من بغداد، واحتفظ بي في مكتب بغداد.

وأول ما فعله هذا الرجل أنه أغلق أكثر من عشر شقق مفروشة في بغداد (شقق فاخرة) مؤجرة كاستراحة للعـاملين

ذوي الشأن والمناصب ولضيوف الشركة من ذوي الشأن والمناصب، واحتفظ فقط باستراحة تقع وراء القصر الجمهوري في كرادة مريم، هذه الاستراحة التي لم أتحملها أبدًا، وكدت أبكي، وأفكر جادا أن اهرب راجعًا إلى مصر، فقد كان التفتيش الدائم لنا مرهقًا من الحرس الجمهوري المقيم حول القصر الجمهوري، ولم يكن ثمة طريق آخر، وأنا مفتون بأية بلاد أزورها، أحاول أن أسعى فيها ليلاً ونهارًا، أزور أطرافها وتجمعاتها: مسجد الباقر وشارع الرشيد والضواحي المتعددة لبغداد شمالاً ويمينًا، مدينة الملاهي الواقعة خارج بغداد، دور السينما الواقعة في شارع السعدون، حفلات الهنود ذات الاستعراضات الجميلة وعروض السحرة المدهشة، (كامب الأرمن) وهو اسم لموقع الأرمن واليهود مشهود له بالنشاط غير المريح أخلاقيًا...

لكن المهندس عوف وافق أن أقيم قريبًا من مكتب الشركة في السعدون قرب قبر الجندي المجهول، في فندق معقول ورخيص ونظيف– على نهر دجلة، بعد تعذر أن أتحرك حرًا في استراحة كرادة مريم وراء القصر الجمهوري.

بالطبع انخفضت نفقات المشروع كثيـرًا بعـد إغـلاق الشقق وعدم وجود مرتبات وامتيازات عالية للعاملين، وكمـا يحدث في البلاد العربية –ومصر منهـا– واجـه المهنـدس عوف ما يحصل عليه أمر المنطقة في كركوك ورجاله مـن نقود بدعوى الحراسة في شجاعة، لكنه لم يستطع الـتخلص تمامًا منها، نجح في تحجيمها فقط، ولم يلبث أن واجه أمرًا لم يخطر على بال أحد.

* * *

كانت الدراسات والأسعار المقدمة من الشركة، والتـي تحاسب على أساسها قائمة على تكاليف رفع ونقـل المتـر المكعب من الصخور والتراب والرمال، لكن جس التربة في الموقع أيام إعداد الدراسات والأسعار كان في حدود المنطقة السطحية بعمق مترين، إذ لم تلبث الأعماق في المشروع أن كشفت أثناء العمل عن مناطق صخرية متماسكة تحتاج إلـى آلات تخريم وعمال لهم دراية مع مواد التفجير المناسبة، ولم يكن ذلك معمولاً حسابه في التكاليف، كما أن أنـواع الآلات من ماكينات ضغط الهواء، وكراكات كانـت تعمـل علـى خطوط الكهرباء المتوفرة هناك، لكن طقس الموقع لم يدرس

بعناية ودقة، إذ أن منطقة كركوك المتاخمة لنهــري الــزاب الأكبر والزاب الأصغر تتعرض –في شهور الشــتاء– إلــى مطر دائم يستحيل معه تحقيق المنســوب الملائــم للتشــغيل بالآلات التي تعتمد على توصــيلات كهربائيــة، والأصــلح والأنسب آلات وماكينات تعمــل بــالوقود الســائل كــالنفط والسولار والبنزين، عليك أن تضيف ما داهم العاملين مرارًا من تحرش رجال الأمن في الموقع، ومن تغييرات مفاجئة في القوى السياسية، حيث يأتي من لا يحب عبد الناصر، لنجــد عمالنا وقد افترشوا أرض المطارات وأرصفة ميناء البصرة، مشهد مروع ومرهق ومؤلم..

* * *

وانفجر الموقف حينما نجح البعض في إحداث الخــلاف المناسب بين عثمان وعوف وجمال البطراوي، والذي بسببه انتقل جمال البطراوي إلى إحدى شركات قناة السويس، وتــم سحب كل الأعمال من المهندس أحمد عبد الرحمن عــوف، لعدم قدرته على الوصول بمشروع قناة كركــوك لنهايتــه، ليعود إلى بيته زعلانًا أو مغضوبًا عليه، ولم يكن لدينا القدرة أيامها أن نتصور أن آل عثمان– وهم كثيرون من العــريش

والإسماعيلية- لم يكونوا قد ألفوا أن يكون على قمة العمل لسنوات طويلة واحد من غير آل عثمان.

بعدها بدأت شركة المقاولون العرب تصطادنا نحن (مراكز القوى) المحيطين بأحمد عبد الرحمن عوف، اتضح لها أننا كنا لصوصًا وبتوع نسوان، وذوي تصرفات شاذة، وظللت في البيت -أنا الآخر- ثلاثة شهور، كل أول شهر أذهب إلى صراف الشركة لأقبض مرتبي، واضعًا في يقيني أنني سأذهب ذات مرة إلى الصارف فلا أجد لي مرتبًا، ولاسيما وأنني أعلم أن مثل هذه الشركات تتشبث بموقفها، وتصرف عشرين ألف جنيه لكيلا تصرف لعامل مغضوب عليه عشرين جنيهًا، في الوقت الذي هجرنا مشروع كركوك، لتقوم شركة يوغسلافية -بشروط جادة ومربحة- بالعمل هناك، حيث لا يبتزها آمر ورجاله (والآمر هناك يساوي المأمور عندنا مع بعض الفروق- هناك يكون من رجال المنطقة)، ولا تؤخر لها وزارة الأشغال قيمة مستخلصاتها، مع ملاحظة أن يوغسلافيا كانت تنتج آلات الحفر وتقليب التربة ونقلها بالشروط التي يتطلبها المشروع، ومجرد مشكلة تقع بين الشركة وبين الإدارة العراقية كان السفير اليوغوسلافي (يطير) فورًا إلى كركوك، في حين أننا لم

نشهد أبدًا أي سفير لنا، حتى بالنسبة لهؤلاء الذين يلوذون بذكر الشهيدين علي بن أبي طالب والحسين بن علي في النجف وكربلاء.

أما المهندس أحمد عبد الرحمن عوف، فقد تم الرضاء العثماني عنه لكي يعود إلى الشركة: مديرًا لمركز التدريب المهني بالهرم، وأما أنا فقد استطعت أن أنجو من الشركة أيام أن كان ثروت عكاشة وزيرًا للثقافة، حيث التقيت به في أسوان التي عدت إليها لتدبير أمري بعيدًا عن إدارة القاهرة المتعسفة، وأوضحت له ما أنا فيه على عتبة قصر ثقافة أسوان، كما أن موظفًا بهيئة السد العالي في أسوان ساعدني في استصدار القرار المناسب للنقل.

بعدها بأسابيع كنت قد انتقلت إلى مجمع اللغة العربية، الذي أكتب سطوري هذه من مكتبي الكائن به على بحر النيل هذا النهر الذي يختنق كلما رآني أنظر إليه متذكرًا ما فعلته به في الجزء الأول – والمهم– من عمري.

وكلانا –أنا والنيل– ينظر للآخر بنصف عين متناسين بالمرة آل عثمان، وآل كركوك أيضًا.

وأشياء أخرى كثيرة..

مصطفي محمود كان غذاء مؤثرا لعقولنا

كثيرًا ما تدمر الصياغات (الرصينة) و (البليغة) القيمة الأصلية، والحقيقة للسنوات المؤثرة في حياتنا، إنني – وأنا أسعى طالعًا جبل العمر، في طريقي للستين– أو للموت، أكاد أتعارك مع نفسي، غير قادر على الصلح معها، حتى وإن تصالحت مع نفسي فسيظل شجاري قائمًا مع العالم، لا تسألني: ما هو العالم، ذلك أني لو عرفت الإجابة لنجحت في زلزلة غابات علامات الاستفهام التي تشتجر في ظلام الفؤاد، ولاسيما أن الكتابة اليوم تعمل حسابًا لهذا اليوم حين مداهمتها للأمس، وكثيرًا ما تصوغ الأمس بطريقة ترضي كل الأطراف، إنه الصلح الذميم الذي يسوي الهضاب بالسهول..

لو سألتني – في الأعوام الأولى من الستينات، أي عندما انفكت تربيطات الوحدة مع ورسا، وبدأت نغمة الديمقراطية وحكم الشعب تعود فتتسلق الصحف والمجلات والندوات، لو سألتني عمن كان مؤثرًا فيك خلالٍ تلك السنوات، لكانت الإجابة الصريحة التي لا تقيم وزنًا لموازين اليوم: مصطفي محمود أولا، ثم يأتي بعد ذلك يوسف إدريس وصلاح حافظ وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي ويحيى حقي ولويس عوض، وعدد مهول من الأدباء والكتاب، قد يقوم غربال (اليوم) بتصفيتهم فلا يبقي سوى طه حسين، ثم يوسف إدريس، مع أن الأول لم يكن مطروحا خلال الأعوام الأولي من الستينات.

أكاد لا أرى لمصطفى محمود في كل الحوارات والاعترافات واليوميات والذكريات التي تحملها المطبوعات في العشرين عامًا الأخيرة، ثم محاصرته وتعويمه إلى مجرد مقدم تليفزيوني لبرنامج العلم والإيمان، مع الإقرار بقدرته الجميلة على إبراز معجزات الخالق -عز وجل- في تفاصيل وعناصر الكون، مع حركة القرد وبربشة عيونه وطريقة تناوله للغذاء، وانتهاء بثقب الأوزون الذي نتج عن التلوث البيئي المعروف، أو التلوث الحربي الضاغط في تفتيت الذرة وإطلاق الصواريخ ومركبات الفضاء، ثم- هذا الأثر الآخر- تحصيل الحاصل- من كتاباته في جريدة الأهرام، والتي يثير إعجابنا -المحدود- بها وقوفه العنيد ضد إسرائيل، إنه الاستثناء الواضح بين عدد مهول من صفوة الكتاب الذين لا يزالون يتحدثون عن إسرائيل بنغمة متفائلة، عينهم مفتوحة على الرؤية السياسية الوقتية فقط.

غير أننا -الجيل الواضح الظهور في الثقافة العربية الآن- نقر ونعترف بأن أي تكوين صلب وجريء وشجاع لازمنا -فترة- أو حتى الآن- إنما جاء رضاعة من الأثداء الدسمة النافرة التي كان مصطفى محمود أضخمها، وأكثرها

خصوبة، كان شرسًا واقعيًا ذا خيال واسع شامل، مسلحًا بالعلم وبالقراءة وبالأدب وبالإحساس القوي بدوره الرائد، قد لا يرى فيه أبناء اليوم ما أراه في ذاك الأمس، إلا أن ثقافة مصرية –عربية– كانت سوف تخسر الكير دون مصطفى محمود في ذلك الوقت.

كنت أيامها قد هجرت عملي المرهق الفقير في (معامل أبو الهول للسينما) في شارع الدقي بالجيزة، كنت أتقاضى ستة جنيهات شهريًا أسكن منها بما يفوق الثلث، ثم تتوقف مطالب حياتي عند الرغفان الثلاثة: واحد في الصباح مع قليل من الطعمية أو الفول المدمس، وواحد في الظهيرة مع قليل من الجبن أو الحلاوة الطحينية، وواحد في المساء مع أي قليل آخر قد يكون كوبًا من اللبن الحليب، هذا في الأيام الأولي من الشهر، والذي يمكن أن تحدث مغامرة مشتركة مع صديق لنحصل على ساندوتش لحمة رأس أو إصبعين من الممبار، ثم ندخل السينما: مترو أو كايرو في بداية عرض الأفلام الجديدة، حيث تعرفت على هيمنجواي (وداعًا) للسلاح –العجوز والبحر– لمن تدق الأجراس– القتلة)، أو شتاينبك: (شرق عدن لجيمس دين)، ثم هذا الكم المتداعي

للأعمال العظيمة: العملاق –سايونارا– محاكمات نورمبرج– وغير ذلك من أعمال سينمائية، تلك التي يظل فقرنا يقلبنا في ثناياها، نتذكرها ونلهث بالإعجاب بها، مضافة إلى ما قدمته السينما العربية لإحسان عبد القدوس ونجيب محفوظ ويوسف إدريس، كان عصرًا فقيرًا، وفاتنا..

لكني – حين هجرت هذا العمل في المعامل السينمائية– أتضح لي أن الأمر يستدعي الخروج على القاهرة – العاصمة– كلها، حينذاك، وبشكل قدري، التقيت في شارع عبد العزيز –وسط البلد– بمقاول كان زبونًا عند قريبنا الترزي، وبعد التحية والسؤال عن الأحوال، وكان متعاطفًا معي وشديد الإحساس بظروفي السوداء، ضغط –النبراوي (وهذا لقبه الذي تذكرته الآن)– على كتفي، وقال مبتسمًا: مالك وما لهذه البلدة؟؟ أذهب إلى أسوان وربنا يفرجها عليك، ودون لي اسمًا هناك أتوجه إليه، وبدون الدخول في تفاصيل عديدة، وجدت نفسي – بعد أيام كاتبًا لدى عبد المنعم عباس الشامي المحامي هناك.

كانت مهنة كاتب المحامي –أرجو أن تتذكروا الدور الكوميدي الكاريكاتوري لعادل إمام في تمثيله لكاتب محام–

لا تزال تخلو من الوجاهة الاجتماعية، ومن اعتبارها مهنة من لا ترقى ظروفهم إلى مهنة أخرى أكثر احترامًا، هكذا يرى العامة وجمهور الصعيد بالذات- في كاتب المحامي، لكن أكل العيش قضية أخطر بمراحل من الوقوف عند مثل هذه الأفكار غير المريحة، في هذا العمل، ووسط احتكاك بشرائح متعددة، وبأفراد لهم مشاكل في الطلاق والزنى وتغيير الديانة والاغتصاب والقتل والكذب والشهادة الزور والتدليس والبراءة، ظهر مصطفى محمود..

كنت أقرؤه من زمن، لكني -إزاء ما يداهمني من مختلف أحاسيس الاحتكاك -بدأت أتوغل فيه أكثر، وأخترق تلافيف أفكاره المعلنة والمشار إليه، المرفرفة والمكبوتة، لم يكن مصطفى محمود كاتبًا عاديًا، كان قادرًا على الولوج في العالم الغامض الكائن أسفل الجلد وتحت التراب وفوق الغمام وبين الجوانح، يملك شجاعة وجراءة وأسلوبًا بالغ الوخز، إن هذا الكاتب نجح في فك العالم وتقديمه لي لأعود فأصنع له الكتالوج المناسب لفتحه، فإذا أضفت إلى مصطفى محمود هذا الزخم المغاير لما هو سائد الذي يحيط بكتابات روز اليوسف – وصباح الخير– أيامها، لشعرت بمدى ما يمكن أن

يعتمل فيك: عبد الله الطوخي وصبري موسى بالـــذات، هـــم الثالوث الفكري الذي خرج من وراء المكاتب ليجوب الآفاق المرهقة في الأنهار والطين والبحيرات والبشر والصـــحراء والغابة والعقل والماضي والحاضر، بعدها –أرجوك لا تنس صلاح حافظ، رغم أن كتاباته –في تلك الأيام– كانت قليلـــة في مجلات روز اليوسف، كان يكتب كثيرًا في مجلة القصة، لكني لا أستطيع أن أنزعه بعيدًا.

سؤال: لماذا استبعدت يوسف إدريس؟! لم أستبعد يوسف إدريس بالمرة، لكني لم أكن قد وضعت القصة القصيرة سيدة للتعبير المناسب لي، كنت أقرؤه، وكان ينشر معظم إنتاجـــه خارج هذه المدرسة، وأحببته مبكرًا، لكن الذي فتح دمـــاغي وأطلق الخيالات إلى آفاقها المرعبة كان: مصطفى محمـــود، والذي كان غير مصنف في اليسار أو اليمين، أي لـــم يكـــن عضوًا في حزب مناهض، لا أقصد بذلك أنني كنـــت ضـــد المصنفين، لكنني كنت أحس أن الانكبـــاب علـــى موضـــوع الجماهير الفقيرة، والواقعية التي جاءت لتنتصر لهم، يعـــوق حركة العقل في الانطلاق، فقد كانت أيديولوجيـــة مصـــطفى محمود قائمة على التفكير ثم التعبير عن هذا التفكير، ســـواء

تماست مع الاشتراكية، أو كانت ملاكًا يقدم القربـــان لـــرب الأرباب، سواء جاءت في شكل مقال، أو في شكل عمل فني، إنني لا أعلو – مرة أخرى– بمصطفى محمود فوق يوســف إدريس، ذلك أن تكويني (القصصي) يدين لأخطر اثنين فـــي الكتابة المعاصرة: يحيى حقي ويوسف إدريس.

كان القلق يعتصرني خلال تلك الفترة، لم أكن قد فكرت في القصة القصيرة بعد، لكن طائفًا ضاغطًا من الرغبة فـــي الكتابة يداهمني، وكان مصطفي محمود يحرر الباب الثابـــت المؤثر في صباح الخير: اعترفوا لي، سواء جـــاء العنـــوان بصيغة فعل الأمر أو الفعل الماضي، وبينما كنت أنتظر مجلة صباح الخير –في أسوان– صبيحة ظهورها (الخميس قبل أن تبادر المجلات للظهور قبل موعدها بيـــومين) كـــان القلـــق يتداعى، فإذا بي أكتب اعترافًا وأرسله إلى مصطفى محمود، كان الاعتراف الأول: أنني واحد فقير أحب فتاة ثريـــة وقـــد قررت أن أقتل أباها، كانت التيارات السائدة وقتها تغذي في الوجدان العام كراهية الأثريـــاء والأغنيـــاء– أليســـوا هـــم الإقطاع؟ وفوجئت بالاعتراف منشورًا، وكان رد مصـــطفى محمود أن ذلك هو الحمق الذي يقع في إســـاره المراهقـــون

عادة، لكنه أشار إلى أن وراء كاتب هذا الاعتــراف أسـلوبًا أدبيًا يجعل من الأمر كله محاولة لكتابة قصة، أو تعبيرًا لـم يصل صاحبه إلى شكل معين.

بعدها انفتحت فوهة الكتابة: فتاة متعلمة وذات حظـوة من جمال وثراء ومستقبل، أحبت أحد أقاربها الذي تجتذبـه الأذكار والموالد وموائد جماعات الفقــراء، مدرسـة شـابة وجميلة للغة الإنجليزية وقعت في غرام ناظر عجوز يـأتي أحفاده لينتظروه أمام المدرسة، رجل مـتعلم وشـقي جـدا– مجرم– وكثير الزواج، استولى على بنت صغيرة مراهقة من أهلها وباب ميراثها تمهيدًا للتخلي عنها، ثم اتضح لـه أنـه عاجز عن التخلي عنها، فاتهمه أنصـاره ورجالـه وأولاده بالضعف، مراكبي (يقرأ ويكتب) أحب فلاحة جميلـة، ولمـا ذهب ليخطبها: رفضه أهلها لأنه مراكبـي، ولأن الفلاحـين عادة – ولا يزالون– يتعالون على كثير من المهـن العديـدة (المراكبية– تجـار الحمـص أو الحنـاء أو المقصـات أو السكاكين أو النجارين أو الحدادين) مهما كانوا فقراء– وقـد كان ذلك الاعتراف المادة الأساسية الذي أنشأت عليه– فيمـا بعد– قصة الفيلم الوحيد (الفاس في الـرأس) والـذي قـام

ببطولته عزت العلايلي وليلى علـــوي، عـــدد مهـــول مـــن الاعترافات ظللت أفرغ فيها قلقي، وكان مصـــطفى محمـــود ينبه –في كثير منه– أن وراء هذا الاعتراف كاتبًا لم يعـــرف طريقه بعد...

كنت خلال تلك الفترة من ١٩٦٣ – إلى ١٩٦٩– أقـــرأ كل ما كتب مصطفى محمود: أكل عيش، وعنبر نمـــرة ٧، والمستحيل، والغابة، والصحراء، (وهـــي غيـــر صـــحراء صبري موسى)، ثم أندمج لأعبـــر عـــن نمـــاذج وحـــالات وأجواء، أخترق الفيافي والرمال وأوكار الطيور والخارجين على القانون، ثم أداهم السموات والشياطين والملائكة، وفـــي كل مرة أتعند تغيير شكل الخط أو الورق أو البلدة المرســـل مها، أسوان وكوم أمبو، وإدفو وإســـنا وديـــروط وأســـيوط والقاهرة، ثم –حينما ذهبت عام ١٩٦٩– إلى العـــراق مـــع شركة (المقاولون العرب) كتبت إليه من هناك، فتعلمت حينئذ الاهتمام بمناطق التأثير في الكتابة، والإحســـاس بالمســـاحة المتاحة في النشر، لدرجة أن الاعتراف كان يجـــد الفرصـــة المبكرة لنشره، والمساحة المناسبة للرد عليه، دون اللجـــوء

إلى ما يرهق الكتاب المحترفين من (إعادة الصياغة) للرسائل الوافدة، إن لاقت منهم استحساناً..

وقد استولت اعترافاتي على عدد لا بأس به من كتب مصطفى محمود عن الاعترافات، أو كتابة ٥٥ قصة حب حيث كنت أنظر إليها في مرح ساخر، هذه هي بداياتي التي تأخرت بسببها عن الكتابة حتى تجاوزت الثلاثين بعام واحد، ذلك أن أول من نبهني للانتباه إلى نفسي كان ميخائيل رومان -كتب المسرح العظيم- في أسوان عام ١٩٦٩- بعد عودتي من العراق، ثم كان على سالم الذي طلب مني أن أمزق كل ذلك وأكتب قصة،مع أني كنت قد كتبت مسرحية آنذاك عنوانها: من التاريخ السري لسيدنا نوح، وكان النبي نوح - في المسرحية- قد أرهق بحثًا عن صنوف أزواج المخلوقات كي ينقذها على ظهر سفينته اتقاء الطوفان القادم، كان أعوان سيدنا نوح يقفون بالطوابير في جمعيات الفراخ بحثًا عن الأرانب والدواجن والبط والأوز، وكل يوم يأتي له أعوان آخرون بعدد رهيب من أزواج الفيران واليرابيع والكلاب والقطط، فاضطر أن يؤجر المركب -سياحيا- حتى يعود فينظم وسائل الحصول على باقي المخلوقات، ولم تكن

السياحة في السفن تعني -أيامها- إلا المرح واللهو، والفسق أيضًا، فرأى على سالم (والذي اختلت علاقاتنا بعد رحلاته المتوالية إلى إسرائيل) بعد الاطلاع على مسرحية نوح أن أهتم بكتابة القصة القصيرة أو الرواية، بعدها كان على شلش -الصديق والأب- قد طلب أن أمنحه نصًا قصصيًا خالصًا قبل مغادرته مدينة أسوان، فكانت قصة (كلب السنط)، لكني -وبعد أيام قليلة- كتبت قصة (الوصية الحادية عشرة) والتي رحب بها رئيس تحرير الهلال أيامها لتكون أولى قصصي المنشورة، وفور أن نشرت هذه القصة كان أحد كبار رؤساء التحرير قد اندهش وأعجب بحكاية كتابتي المتوالية لاعترافات مصطفى محمود، فرأى أن تكون هذه (فضيحة الموس)، وسوف أحقق بها -أنا الكاتب القادم من بطن الترعة- شهرة مدوية، كان واضحًا أن المقصود بذلك هو تجريح مصطفى محمود، مع أن الأمر واضح: كاتب معروف تأتيه هذه الاعترافات بأشكال متعددة من الكتابة، ومن بلاد مختلفة، فكيف يتسنى له -أو لغيره- أن يعرف أنها من كاتب واحد حتى يتفادى هذا الكمين، فرفضت رفضًا باتًا، ليس دفاعًا عن مصطفى محمود، بل حفاظًا على ذاتي وعلى

قدراتي، إذ لا يصح أن يشار إليّ –في يوم ما– بأنني الـــذي كان يكتب اعترافات مصطفى محمود العظيم، وهو مـــا أدى إلى أن أزوره في بيته أول عام ١٩٧٠، وكـــان فـــي غايـــة البساطة والمرح والسعادة.

وفي بداية السبعينات– قبل أو بعد رحيل عبد الناصـــر بأعوام– كان القلق العارم قد أسبغ اضطرابًا على الكثيـــرين، فإذ بمصطفى محمود– ذي الخيال العارم في الأرض أو في السماء– يعتذر عن كثير مما كتبه– أي عن كل الـــذي أثـــر فينا، وأثار فينا نوازع الخروج عن الدوائر المدرسية القائمة في التفكير وليعتبر ذلك نوعًا من الإلحاد يجب الابتعاد عنه، وأنه جاء نتيجة كبت الحريات، وتضييق الخناق على العقول، فقرر أن يصطلح مع العالم، وأن يكون مبشرًا ومفسرًا فـــي عالم يعج بالمبشرين والمفسرين للدين، ولم يكن هذا العالم في حاجة إليه، إذ أن القدرات الاقتصادية الجديـــدة– أي الـــنقط بالذات– لهذه الأمة جذب كثيرين، ليظل كاتبي العظـــيم فـــي المدرج الوحيد الذي اختاره، مقالا أسبوعيا في الأهرام، يقف فيه بعناد ضد الرغبات الإسرائيلية المعلنة والمستوردة، ثـــم برنامج تليفزيوني عن الإيمان والعلم، لنخســـر عقـــلا بـــالغ

التألق، وواسع الخيال، يقف فوق أرض خصبة من الشجاعة والجسارة، مع التوضيح من جديد: أن كل ما كتبه قبل دخوله في هذا (المدرج) لم يكن كفرًا ولا إلحادًا بل كان ثمرة طبيعية لموهبة متميزة، أحببناها وعشقناها، ولا تزال لها خلاياها المستوطنة للعقل، وللفؤاد، مع الاعتراف بأن كل واحد له كامل الحرية لتغيير مجاديف القارب، أو القارب ذاته، تمهيدًا للبعد عن تلك التيارات التي مهما كانت هادرة، فإنها لا تستطيع الوصول إلى القصور الثابتة بعيدًا عن الشاطئ، حيث يصبح للصياغات الرصينة، والبليغة، قدرتها المعروفة في تدمير القيمة الأصيلة، والحقيقية، للسنوات المؤثرة في حياتنا، وأول الصياغات الرصينة البليغة هو التصالح مع النفس ثم مع الآخرين، أي مع العالم.

حينئذ ينسحب الفن والإبداع والقدرات الفذة للخيال، والتي تثيرها القوارب دون القصور، مهما تلاعبنا بالكلمات والمصطلحات والموضوعات، أو أي استرخاء آخر، لأظل وحدي أتفاعل مع ما قدمه لنا مصطفى محمود في العشرين عامًا الأولى من عمره، ذلك الذي ننحني امتثالاً له، حبًا وفهمًا، ثم إدراكًا لما حدث بعد ذلك من تحولات.

ما بين غاندي
والنوم الطويل والرقابة

نعيب زماننا والعيب فينا، والأمور كلها تجاوزت حد الجدل والمناقشة بعد أن تم تدمير قواعد الجدل والمناقشة، وأول الأخطار التي تحيط بالعقل المصري (والعربي بالطبع) أنه يستقبل النص الأدبي بالطريقة ذاتها التي يستقبل بها التحقيق الصحفي، كما أن هذا العقل -العصري- يحاصر التحقيق الصحفي بمفاهيم قراءة حوادث قتل الأزواج وهروب الزوجات مع العشاق، ثم لا يلبث -هذا العقل نفسه- أن يجلس أمام التليفزيون وقد سال لعابه إزاء النقود التي تخرج -ذهبية وفضية وأوراقًا- من أغلفة فض أكياس المنظفات والشوكولاتة..

في مثل هذه الظروف لا يصبح لكتابات طه حسين وتوفيق الحكيم والعقاد قدرة على المقاومة- هذا إذا كانت ثمة وسائل للوصول إلى العقل أصلا، مرة أخرى: لو أن كل أعلام فن الكتابة الذين نفخر بهم واجهوا ما نواجهه الآن، لأصبح أمرهم -بالتأكيد- مختلفًا..

غير أن أمرًا آخر –غير كل ذلك– لابد من إدراجه هنا، أن السائد أيامهم كان يـدفع للإمعـان والتفكيـر والتحليـل والوصول إلى نتائج شجاعة وجريئة وصادقة، حتى لو كانت ضد مع هو سائد، وضد ما هو موروث وراسخ، لابـد مـن إعادة التنبيه: إن التقدم المذهل في تكنولوجيا حياتنا يوازيـه تخلف مذهل في أفكارنا، مع أني مصمم أن أتفاعل بما تـأتي به الأيام، وهو ما ألجأ إليه حتى أحصل على ساعة من النوم الموفق ولاسيما بعد الخروج مباشـرة مـن قـراءة بعـض الرسائل.

البداية غاندي

– ذات مرة قلت إنك سوف تكتب كتابًا عن غاندي فهل سنرى ذلك الكتاب قريبًا؟

(عبد الفتاح علي أبو العلا– باب الشعرية– القاهرة)

– ظللت أحقابًا مشغولا بهذه الطاقة الإنسانية التي يمثلها غاندي، والتي صـمدت وانتصـرت علـى الإمبراطوريـة البريطانية، عصا في يد، وعنزة في اليد الأخرى، ثم رأيـت أن العصا والعنزة تصلحان فـي الهنـد فقـررت الاهتمـام بشخصية أبو زيد الهلالي ذلك الذي قذفته ظروف غابت عن بالي – من شبه الجزيرة العربية كي يخترق الصعيد فيكـون

فريقًا من الفرسان المقاتلين يداهم بهـم- خـلال منـازلات ووقائع- دياب بن غانم في تـونس، ثـم رأيـت أن أكـون عصريًا فوجدت نفسـي إزاء شخصـية كينـدي وزوجتـه المبتسمة ذات الطاقة الأنثوية المدهشة والتي تفـوق طاقـة الممثلة الشهيرة في آخر عصر مسرحيات الريحـاني: نجـو سالم، غير أن الرصـاص قطـع طريـق اهتمـامي وأودي بالرئيس إلى الموت وبزوجته إلى أحضان أوناسيس، وكنـت أنا ونجوى سالم -بعد ذلك- قد واجهنا صـعوبات مرهقـة، حيث رحل كلانا: هي إلى القبر وأنا إلى القاهرة، وبعد فترة راحة وجدت من الملائم أن أدرس حياة أشهر الثـوار فـي الإعلام المصري: محمد أبو هاشم الشهير بـالخط، وأدهـم الشرقاوي، نعم، واحد من قبلي والآخر من بحـري، كـان البطلان قد أصبحا النموذج ذا السطوة المؤثرة على الوجدان المصري، غير أني اكتشفت أنهما كانا مجرد قاطعي طريـق يعج الوطن بأمثالهما، وأن الذي رتب لهما البطولة كان يقصد إثناء المشهد الشعبي عن معايشة أبطاله الحقيقيين (يراجع في هذا الشأن البحوث الجامعية عن أبطال ثورة أحمـد عرابـي وسعد زغلول وآخرين)، ولما كنت غير مستعد للدخول إلـى

أعماق أمور لم يعد أحد يهتم بها، ولم أعد -أنا- قادرًا على اختلاء بعيدًا عن الجماهير ذات الضجيج داخل شقتي: ولدان وبنتان وأمهما، وأمي أيضًا، فقد أحسست بضرورة أن أكتب سيرة شخص لا يفعل شيئًا: داخل حياته أو خارجها، داخل النص الأدبي أو خارجه، حيث يصبح النص بلا عقدة ولا يحتاج إلى الرعاية التي تشغلني، ولا تشغل أحدًا آخر، ولا يهم أن تحيا أو تموت، أو تسقط في جب الماضي أو بئر الحاضر، فإذ بالأبطال الذين يحملون هذه الصفات يقفون طوابير أمام قلمي، لكني بدأت أفكر في التقاعد.

الصباح المبكر

- لماذا يميل الأدباء إلى النوم الطويل والاستيقاظ آخر النهار؟

(محمد جبريل- الحلمية- القاهرة)

- أتمنى - بصفة شخصية- أن أنام آخر الليل، وأن أستيقظ آخر النهار، وقد حاولت كثيرًا دون جدوى، ذلك أن فشلي في ذلك راجع منذ أيام الطفولة التي كنا نقع فيها تحت سطوة والدين يدمران نومة الصباح، الأم تقوم مبكرًا كي (ترد البقرة)، والمقصود بـ (ردّ البقرة) أن تتولى الأم قبل الفجر السعي إلى أثداء البقرة كي تحلب بعضًا من فائض

اللبن الضاغط يود الانبثاق عن الثدي، وكان تضخم ضـــرع البقرة يسبب لها قلقًا، ثم بعد الفجر تقوم الأم بعملية (الحلب) الكاملة، وكنت أسمع اتهامات الخيبة والفشل موجهة إلى من ينفرط لبن بقرتها دون أن تحلبها، وكان أبي يذهب إلى الحقل مبكرًا، كما أن أمي– فور الانتهاء من حلب البقرة– تقوم إلى الفراش فترفعه لتلقيه على أكوام البوص كي يستقبل الشـــمس الصباحية، ونحن الأطفال نهرع إلى بوادر شروق الشـــمس بحثًا عن الدفء الذي لا نجد مثله في الفراش البسيط، ثم كان –بعد ذلك– الاستيقاظ المبكر للذهاب إلى الكتاب، ثم المدرسة في القرية، وبعدها المدرسة في المدينة التي تبعد خمسة كيلو مترات، ولا يباح لنا التأخير عن الاصطفاف فـــي طـــوابير الصباح قبل الساعة الثامنة، وفي كل حالات العمل كان حظي يجبرني أن أقوم مبكرًا، حتى في مشـــروع الســـد العـــالي: الاستيقاظ قبل الساعة السادسة كي نلحق بســـيارة الورديـــة، فاكتسب الجسم عادة لا يمكن لي أن أعيد صياغتها إن أردت الاستيقاظ من النوم متأخرًا، حتى في الحالات الكثيرة التـــي اسهر فيها، أقوم قبل السادسة ثم أحاول النوم من جديد، لكني أود أن أشير إلى أن لليقظة المبكرة متعة –وأيـــة متعـــة– لا

يمكن أن تكون ثمة متعة أجمل مهـــا، أخطرهـــا الإحســـاس باستقبال يوم جديد، مع الإنصات المبكر لأخبار جديدة، ثـــم القراءة– وفي النادر الكتابة، وترتيب الأفكار التي كثيرًا مـــا يكون الليل قد أحاق بها الفوضى.

لكن أود الإشارة إلى عامل نفسي يساعد على ترســـيخ هذه العادة، هو أن اليقظة آخر النهار ارتبطت في ذهني بعادة الأثرياء المتخمين في قريتنا، والذين نشأنا علـــى معـــاداتهم وانتقاد سلوكهم، كما أن كثيرًا من أفكار الكتابـــة تـــأتي فـــي الصباح الطازج، ولعل أهم ما يحمله الصباح المبكر: التفاؤل مع طرد الأفكار الشريرة.

للذكرى

– هل تزوجت من الفتاة التي أحببتها؟

(سامية مساعد– غزة– فلسطين)

– فعلت ما هو أخطر: أطلقت اسم واحدة مـــنهن علـــى واحدة من بناتي.

مسائل مرهقة

ما الذي تغير في صفاتك القروية، يعني: ما الذي فعلته المدينة فيك؟

(محمود الجاولي– تعز– اليمن)

– هذه التغيرات تحتاج إلى كتاب، تصور أنني كنت أحب الممثلة سميرة أحمد.

اختيار مرهق

– سمعنا أنك تمنيت لو أن الله خلقك أيام سيدنا يوسف.

(ميرفت وراقية وليلى– الجيزة– المهندسين)

– تمنيت ذلك مرة أو مرتين، لكني بدأت أفضل الحياة في ذهبية فاخرة على سطح البحر، من تلك التي عاش فيها أوناسيس، أيام سيدنا نوح أفضل.

الضرب المبكر

– هل ضربك أبوك في سبيل تعليمك؟

(نجيب أبو اليمين دير مواس)

– الذين ضربوني في سبيل التعليم كثيرون، أبي ثم كان خالي وسيدنا شيخ الكتاب وخيزرانة مدرس المرحلة الابتدائية، الأخطر من ذلك العدد الوفير الذي ضربني –بعد ذلك– في سبيل جهلي.

لعبة خطيرة

– ماذا كنت تستفيد لو أنك كسبت العالم وخسرت نفسك؟

(أماليا عجرود– الإسماعيلية)

– يعني هي ناقصة؟

أماني قديمة

– ما هو الكتاب الذي تتمنى لو كنت صاحبه؟

(عباس اللمعي– طنطا)

– في البداية كنت أود أن أكون بطلا لقصة أو رواية أو كتاب، عنتر كي أخطف (عبلتي) فوق حصاني، ثم رأيت في الذي ينام مع نادية لطفي (في النظارة السوداء لإحسان عبد القدوس) أكثر تناسبًا، بعدها قررت أن أكون شهيدًا في حرب الفدائيين بمنطقة قنال السويس، ولم ألبث أن انشغلت بعضويتي في مجلس قيادة الثورة، وأصابني الملل فترة حتى داهمتني أحداث التأميم وحرب القناة فابتعدت فترة عن الحلم، فقد كنت قد تعطلت مما أجبرني أن أتجول كثيرًا في روايات عبد الحليم عبد الله، لكني بدأت أخرج من بين الكتب لأتمني أن أكون صاحب كتاب مثل حادث نصف المتر لصبري موسى، وبعد فترة أصابتني قشعريرة ألا أكون صاحب (يوميات نائب في الأرياف) لتوفيق الحكيم، أو أحزان نوح لشوقي عبد الحكيم أو العودة إلى المنفى لأبو المعاطي أو النجا، ولم يلبث أن قررت أن أكون صاحب كتاب لغز الموت لمصطفى محمود، ورأيت من الأرجح أن أعود

لصبري موسى كي أنتزع منه (فساد الأمكنة)، وخلال كل ذلك كان يوسف إدريس يعذبني بقصصه ذات الفنية العالية، الغريب، أليس كذلك، العملية الكبرى، فتوقفت عن اللف حول أغلفة الكتب، وقررت أن أكتب كتابًا يتمنى هؤلاء المؤلفون أن يضعوا أسماءهم عليه، ولم ألبث أن نسيت الموضوع كله مكتفيًا بأن أنشد السلوان وأتدثر بالصبر، وأنا أرمق في صمت مرتفعات وذرنج لإميل برونتى، أو الغريب لألبير كامي، أو موبي ديك لملفيل.

في السياسة

– لماذا لا تكتب في السياسة؟

(وجدي الزنفلي– مصر الجديدة)

– في الحقيقة أنا كاتب سياسي من الطراز الأول، لكني مشغول بوصف مشاعري إزاء مشهد أختي الكبرى وقد اندلقت أو سقطت منها حلة الطبيخ أثناء صعودها السلم، لتتخبط الحلة في الدرجات المتوالية حتى استقرت على الأرض، أنظر إلينا نحن أطفال ذاك البيت ونحن نرقب الموقف، لاحظ أن الأرض الترابية تتشرب الطبيخ، وسوف أكتب في السياسة بعد الانتهاء من تسوية هذا الأمر.

ما الفائدة

– هل يستفيد الناس منك؟

(عزمي أحمد الديري– المنيل– القاهرة)

– نعم كثيرون، بعضهم يستفيد بالكتابة، وبعضهم يستفيد بالصمت..

للرقابة فائدة

– ما هي الأخطاء الجسيمة التي ارتكبتها وتخشى الاعتراف بها.

(مدحت أمين إبراهيم– إمبابة)

– ليست أخطاء، بل كوارث، آخرها رفض الرقابة التي تحاصر العقل المصري وتحد من نشاطه، وكانت آخر حلقات هذه الكارثة ما جرى من مصادرة كتاب (رب الزمان) لسيد القمني، وجاء حكم المحكمة بعدم المصادرة فخرًا لنا جميعًا، غير أن ناشر كتاب رب الزمان استفاد من الحكم فرفع سعر الكتاب أضعافًا، كما أن الكتاب الذي لم يكن يعرف طريقه سوى غلاة المفكرين أصبح في يد كل واحد، كنت في الفيوم أيامها ففوجئت بأن الكتاب ومؤلفه قد هيمنا على أحاديثنا كلها، وإزاء هذا التوزيع، وهذه الشهرة، بدأت أحس أن للرقابة فائدة مروعة، وتذكرت حينئذ ما يقوم به بعض منتجي

الأفلام السينمائية من دفع الرقابة دفعًا لمصادرة فيلم معين عن طريق تضمينه مواقف غير أخلافية أو حوارًا شائكًا، وتنتفخ فوهات صارخة عن الحرية والديمقراطية وحق التعبير، وبعد معالجة الموضوع- بشكل من الأشكال، تكون مشاهدة الفيلم قد أصبحت أملاً للجميع، لقد حاز علاء حامد على شهرة كبيرة في مصر وفي المنظمات العالمية، بسبب ما جاء في إحدى قصصه من مواقف أو تعبيرات رأتها السلطة الرقابية -ثم الفضائية- مبررًا لعقابه بالسجن، الكثيرون يتمنون الآن الحصول على مثل هذه الشهرة بأي طريق، أليس من الملاحظ أن الأعمال الأدبية التي تتضمن خروجًا على الذوق، أو القيم الدينية أصبحت الآن أكثر من أي عصر مضى؟

إن أكبر كارثة تحدث الآن أن تصادر الرقابة كتابًا، ونقوم نحن المثقفين بالتنديد بما يجرى، وكلاهما يكسب العمل شهرة وانتشارًا (وارتفاعًا في السعر)، ولذلك، وعلاجًا لهذه الكارثة، يجب أن تتوقف السلطة الرقابية عن المصادرة، وسف تتقلص الأعمال التي تتجرأ وتستثير رغبتنا الكامنة في المصادرة، ثم إلحاق الأذى بصاحب الكتاب، وسوف تتقلص

أقلامنا، بل ونتوقف عن التنديد بمثل هذه التصرفات، على الأقل كيلا نندم على ما نرتكبه ضد الرقابة لصالح بعض أعمال لا تصل إلى المستوى المنشود من الفن والقيمة الأدبية، ولصالح ناشرها أيضًا. هذا مع التنبيه أن كتاب (رب الزمان) له قيمة عالية لا يمكن مساواتها مع أي كتاب ورد كمثال، بلاش رقابة أحسن.

من قاعة الدرس إلى هبة عنايت
ثم الحاجة فطيمة

١- معهد الشيخوخة الموفقة

ظللت أمعن في الوجوه التي ظلت -بدورها- تمعن في سقف المكان، واضح أننا سعينا إلى هذه القاعة -الدراسية- لتكتمل الدائرة، أي أصبحنا - من جديد- تلاميذًا أو طلبة يرفعون إصبعهم استئذانا للكلام أو للخروج إلى دورة المياه، والأستاذ المحاضر يحاول الابتسام أثناء شرحه للعملية الإدارية، نعم، فها هي دائرة العمر تنغلق على آخر حلقاتها، وجميعنا نحن القادمين من مختلف البقاع جئنا لندرس فن الإدارة في معهد إعداد القادة للقطاع الحكومي بمدينة نصر، كنا نسعى حثيثًا للوصول إلى شيخوخة مناسبة وموفقة، بل وكان بعضنا قد اخترق الشيخوخة في صمت بليغ، لكن الإحساس بالعودة إلى (حقبة التلمذة) تريق في الوجدان ذكريات عابثة، بل وكدت -مرة أو مرتين- أعود إلى حالة الشغب أو إثارة الفوضى، كيف؟؟ إن الحواس عاجزة عن التجاوب، وردود الأفعال بطيئة، والعيون مقلوبة للجوف أكثر

من نظرها إلى الخارج، والحزن يطـل علـى القاعـة دون اهتمام الأستاذ بالحيوية والنشاط والتنبيه الـدائم بالأسـئلة – التي يجيب هو عليها، وبعد الإرهاق المناسب جاء المشـرف على الجماعة– أو على الفريق– الأستاذ حسن محمـد علـي ومعه جدول محاضرات الأسبوع كلـه: الإشـراف وتنميـة المرءوسين، تبسيط العمل، نظم المعلومات، متابعـة بـرامج التنفيذ، إعداد التقارير، والمشرف يحاول أن يأخذ دور الأب والأخ والصديق لقوم يزحفون نحـو السـتين (إن عشـنا)، والرحلة اليومية من أطراف الجيزة إلى موقع جهاز التدريب مرهقة ومملة وسخيفة بكل المقاييس، سائق سيارات الأجـرة أصبحوا لا يغامرون بقطع هذه المسافة دون اتفـاق مسـبق، واليوم الأول دفعت عشرين جنيهًا كاملة، وليس في قـدرتي استخدام سيارات (السرفيس) الشهيرة أو أتوبيسـات النقـل العام، وليس لي أي طموح وظيفي، فما الذي أتي بي هنا؟؟

إلا أن التجربة تستحق المعايشة، والعودة إلى المـذاكرة لها طعم آخر غير قراءة الكتـب والروايـات ومجموعـات أشعار الأصدقاء، إنها أثارت شجون القلـب إلـى عصـور التحسس العاطفي، والهياج النفسي القلق، حتى أنني جلسـت

في حجرتي– آخر الليل– أحاول أن أعصر الذاكرة بحثًا عن أتراب مراحل مدارس ديروط المبكـرة، وكانـت سـراديب فؤادي قد احتفظت لهم بموقعهم ذي الصبيانية العابثة، لكنـي لم ألبث أن عدت للإمعان في الوجوه الرصينة، لأصـدقائي الجدد الذين يسعون للحصول على ترقية جديـدة، ولا تـزال ترفرف في ملامحهم استكانة الشيخوخة الموفقـة، أو هكـذا يتمنون.

٢– هبة عنايت

لم أكن أدرك –ولا طرأ في بالي– معنى أن أكون قريبًا من قلب هبة عنايت، هذا الفنان الذي ظللـت عمـري كلـه مبهورًا بخطوط لوحاته ورسوماته على أغلفة مجلتـي (روز اليوسف وصباح الخير) في بدايات حياتي، ثم بعد دهر طويل من سنوات التقلب والتمرد التقيت به، وكان اللقاء غالبًا فـي أسيوط منذ سنوات، فقد خسرت عشرة جنيهات قيمة الرهان الذي نشب بيني وبين الشاعر سعد عبـد الـرحمن مسـئول الثقافة هناك، كانا معًا: هبة –و– راجي عنايت، وهما تـوأم متقاربان إلى حد كبير في الملامح، وقد فشلت في التعـرف على أيهما هبة وأيهما راجي وهو إخفاق لا يزال يفخر بـه

المناوئون، وبعد ذلك التقيت بالفنان هبة (دون راجـــى) فـــي مؤتمر بالفيوم مع صديقنا نجـــدي إبـــراهيم كاتـــب القصـــة المتميز، والذي يملك حسًا فنيًا بالغ الحدة والرقة، فإذا أضفت لذلك أنه كريم أو جواد أو أي تكوين فيومي آخر، لراقك أن تشاكسه وتحاول أن تنتزع منه سلاح الكرم، أو على الأقـــل: تحد من استخدامه لهذا السلاح الجميل..

وفي العادة فإنني أخشى دائمًا من مصادقة الأســـاتذة أي هؤلاء الذين علمونا وشذبوا أفكارنا القروية، وعـــدلوا مـــن التمرد السلوكي ليصبح تمردًا فنيًـــا، نـــادرًا مـــا أســـتطيع الاسترخاء معهم، إلا أن هذا الفنان –هبة– يختلف عن كـــل الأساتذة، سوف أستخدم المصطلح القروي الذي كثيـــرًا مـــا استخدمته أمي: سره هادي، يعني منذ ركبت معـــه ســـيارته المارقة في طريق الفيوم، ظل يتكلم في هدوء، يتجاوب مـــع أفكار الآخرين دون تفريط في صلابة شخصيته، هو العارف لكل الأماكن التي اخترقناها والمشير إلى ظواهر في الرمـــال أو بين الشجار أو في دانتيللا الغيوم التي تناثرت إشارة إلـــى بدايات الخريف، وكان هذا الفنان يجول في الآفاق المترامية، وذكرياته تنساب عن لندن وبـــاريس والمغـــرب والواحـــات

والبحيرات، وهو خلال كل ذلك لا يعترض ولا يعارض ولا يحتد، ظللنا ساعات نرقب غروب شمس بحيرة قارون وقد اصطفت طيور النور وأبي قردان وأنواع رمادية من الغربان تتهادى في المنطقة الضحلة من مياه البحيرة، ثم ذكرياته تنساب عن صلاح حافظ وحسن فؤاد ثم عن زوجته وابنه وبيته وأصدقائه فناني البلاد العربية، نريد أن نأكل فنأكل، ونشرب فنشرب، والعودة إلى الفندق فنعود إلى الفندق، ويصحبنا الدكتور نجدي إلى المصاطب المتدرجة بصفتها أول النشاط الإنساني، أو إلى مطعم أسماك تسجيلات لأصوات يعشقها هبة من البلاد العربية، وخلال ذلك يكون للصمت فائدته القصوى، أو يكون الكلام قد بدأ يتسربل في الإمعان بين السحب وحافة التلال والظلمة القادمة بين الآكام تحاول أن تصنع لليل صوتًا ساحرًا، ويكون القمر حينئذ قد بدأ يطل على الوجود، فيظل الصمت أقوى من أي حكاية..

٣- فطيمة

- لا أعرف لماذا بالذات تذكرت الحاجة فطيمة خلال استغراقنا في ذلك الصمت الجميل حول بحيرة قارون، وهو أمر غير قادر حتى الآن على تفسيره، أن أتذكر ما لا أحب في أماكن لا تتواءم بالمرة مع ما أتذكر، وعندها حاولت مرارًا أن أدرأ الحاجة فطيمة عن أجوائي، لكنها عادت وتسللت إلى فراشي في الفندق، وسببت لي قلقًا شائكًا حال بيني وبين النوم، ولكي تعرف ما أنا فيه عليك أن تتذكر الممثلة الكبيرة نجمة إبراهيم بما كانت تقوم به من أدوار شريرة، وبما كانت عليه من كيان جسدي شري، لقد كانت هذه الممثلة قادرة على البقاء طويلا تحت سطوة الإدراك، فطيمة كانت أخطر بكثير مما تمثله نجمة إبراهيم، بذيئة اللسان شديدة الطعن في الآخرين دون اهتمام بمن قد يصيبه الأذى من السامعين، ثم إن فطيمة كانت -باسمها الفريد- ذات نقود، أي لديهما مال لا يملكه عادة فقراء القرويين، تقوم بذلك علنًا -وبشكل فاضح- أمام الناس دون أن تتستر على من يحتاج إليها، كانت أم زوج خالتي أم عوف وتعيش بأولادها معها، وتظل -خالتي أم عوف- طوال النهار والليل

تحاول أن تتفادى الاحتكاك بحماتها فطيمة لقد أحاقــت بهــم عذابًا لا يطاق، ومع ذلك كانت فطيمة ذات سطوة على البيت كله، كان وجود فطيمة –بما تملكه من أموال– قد أحال البيت إلى هدف لأصحاب الحاجة، أي هؤلاء الذين يريدون قرضًا قد لا يزيد على خمسة جنيهات، أرسلني أبي ذات مرة كــي أجلب له القرض الذي سبق له أن طلبه منها، كان أني فــي حاجة غلي كيس سماد يباع في الســوق بثلاثــة جنيهــات، وأمرتني فطيمة أن أعود آخر النهــار، ثــم أن أعــود فــي الصباح، ثم دخلت غرفتها وأغلقت الباب وغابت طويلا، ثــم عادت بثلاثة جنيهات إلا ربعًا، مع التنبيه الشديد والحاسم أن يقوم أبي بسداد ثلاثة جنيهات كاملة فور حصد القمح وشــفتا الحاجة فطيمة غليظتان فما أكبر من تشكيل رأسها، وعنــدما تنغلقان –هاتان الشفتان– في حسم فإن الأمر يجب أن يحظى بالامتثال، جميع أهلنا واجهوا هذا مع الحاجة فطيمة، وعندما يحدث إخلال بالميعاد: تتفاعل هاتــان الشــفتان الغليظتــان بالألفاظ والمصطلحات الغليظة، والحاجة إلى الحاجة فطيمــة قاسية، لكنها كانت تجد متعتها القصوى في ذلك..

الوحيد الذي لم يستطع الحصول علـــى أي نـــوع مـــن القروض كان ابنها الشيخ ثابت زوج خالتي، لا تتعاطف معه ولا تحاول أن تفهم ما هم فيه، ولا حتى تسمع للاعتراضات المتوالية من ابنها على سلوكها، فهو ملعـــون، ومـــن بطـــن ملعون– حتى لو كان بطنها، ويوم أن تقدمت لأداء فريضـــة الحج ظلت فطيمة موضعًا لانتقادات ابنها وذريته، إن الله لن يقبل منها هذا الحج، لكنها سافرت إلى الحج مع كل طقـــوس أفراح الحج، وعادت من الحج ليستقبلوها بكل طقوس أفراح العودة المباركة، آملـــين أن يصـــلح الله حالهـــا، بعـــد أداء الفريضة، لكن الأيام جاءت بعد ذلك لتظل الحاجـــة فطيمـــة صامدة قاسية لاعنة– وبذيئة أيضًا..

ولأن قانون دوام الحال من المحال، فقد وقعت الحاجـــة فطيمة –ذات صيف– ضحية لمرض مروع، هذه المرأة التي كانت –حين تقف– تهتز بها الأرض، ويهتز لها سقف البيت، نامت في حجرتها مريضة متهالكة، حتى بدأ كـــل أهلهـــا – المقيمين معها والمقيمين بعيدًا عنها– يلتفون حولها يطلبـــون لها الستر وحسن الختام، حتى وصلت الحاجة فطيمـــة إلـــى مرحلة طلوع الروح، حينئذ سمحت لابنها أن يسحب الخـــيط

الذي به مفتاح (السحارة)، وأن يخرج من هذه السحارة (وهي لمن لا يعرف صندوق كبير) الكفن الخاص بها، والذي كانت أحضرته قبل سفرها لأداء فريضة الحج، كما سمحت لهم – بصوت متحشرج مسلوخ– أن يأخذوا مالها، كما جاهدت الحاجة فطيمة طويلا كي تخبرهم بأسماء كل من كان لديه قرض لم يقم بسداده.

كان ذلك الليل مشهودًا لخالتي وزوجها وأولادها، وظلوا فترة بجوار المرأة العجوز حتى يتشهدوا عليها ويغلقوا عيونها في اللحظات الحاسمة، إنها أمور ضرورية لتسليم جسد الحاجة فطيمة وروح الحاجة فطيمة إلى بارئها.

ليل وليلان ثم عدة ليال، لكن روح الحاجة فطيمة لم تخرج من جسدها، بل بدأت تستعيد قدراتها في الكلام والإثارة، بل وفي الأسبوع التالي استطاعت الحاجة فطيمة أن تخرج من غرفتها المظلمة، كانت غير قادرة على الوقوف، ونادت على من يساعدها على الخروج، ولم يستجب لها أحد..

فاضطرت المرأة المتهالكة أن تحبو، وأن تثـــابر كـــي تتجاوز عتبة الغرفة المظلمة، وأن تقعي الحاجة فطيمة فـــي ركن المدخل الواسع للبيت.

حاولت أن تسب الجميع، وأن تأمر الجميع أن يعيـــدوا إليه الكفن والنقود، دون طائل.

لكنهم لم يتأخروا في تقديم الطعام والشراب إليها، كانوا –أمام كل من يكون حاضرًا– يضعون لها صـــحن الطبـــيخ ولقمة الخبز وكوب الماء في آخر الناحية البعيدة من البيـــت، حيث تثابر الحاجة فطيمة، وتحبو على ذراعيها وركبتيهـــا، وتبكي وتلعن وتشكو الجميع إلى من لا يرحم، حتـــى تصـــل إلى الأكل، لينسكب الطبيخ على صـــدرها وبـــين ضـــفتيها الغليظتين. كان المشهد مروعًا، ومؤلمًا، لكن أحدًا لم يتـــدخل –ذات مرة– فيحمل الطعام ليصبح قريبًا منهـــا، كـــان أهـــل خالتي، وأهلي، جميعهم يستمتعون بهذا المشهد ثلاث مـــرات يوميًا.. ولعدة سنوات أخرى، مع إراقة ما قد يســـاعد علـــى الإهانات المتوالية من التعليقات المرحلة الساخرة.

وكانوا يضحكون في استمتاع مذهل، هـــذا الاســـتمتاع الذي اخترق أربعين عامًا وبدأ يحط على دماغي، وأنا أرقب أشعة واهنة تبحث عن الرحمة من بين غيوم بحيرة قارون.

دروس في القراءة الرشيدة

١- العقلية المصطبية

وصلت سعادتي إلى ذروتها، حينما عرفت أن واحدًا من أولادنا الصحفيين هاجم أديبًا معروفًا بضراوة، ونبهه بأسلوب شديد التطاول أن الأدب يختلف عن السباكة، لماذا السباكة بالذات؟ لأنه لم يحظ بالمؤهلات الدراسية العالية فهو حاصل فقط على مؤهل متوسط فيما أعتقد، وربما كان هذا الكلام غير صحيح. مرة أخرى: لماذا السباكة بالذات؟؟ لأن ثمة عقلية مصطبية تتعامل مع الإبداع والمبدعين بالمنطق نفسه الذي تعاملت به العقلية الزراعية الجاهلة الفقيرة مع المهن الأخرى، واحدة من أخواتي البنات تزوجت من عسكري قريبنا، فكانت خالتي تطرف بعيونها وترمش في حرج مفتعل: عسكري أو غير عسكري، إنه نصيبها، والجملة تحمل في بطنها طاقة بائسة من الجهل، مع أن أختًا أخرى تزوجت من فلاح أعور كسول دون انتقاد أو تراحم من خالتي أو غير خالتي، ودون إسهاب فإن هذا الفلاح الأعور الكسول أجبرني -بسوء حاله- أن أشتري لأختي ماكينة

خياطة، كي تحصل من وراء خياطة مرايل عيال المــدارس ما يغنيها عن الاحتياج لأمها وأهلها الذين ضاقوا بها ذرعًــا، وتصل الكارثة إلى معناها حينما جاء عمي الأكبر يــداهمني ويهاجمني (لتشغيل أختي خياطة)، كنت أيامها أعمل في السد العالي بأسوان وأزور قريتي كل ستة شهور، والمسافة بــين المكانين تتجاوز ١٢ ساعة سفر (أكثر من ستمائة كيلو متر)، وكانت ظروف أختي مع ولديها وزوجها تسبب لــي قلقًــل، فاهتديت إلى فكرة تمليكها ماكينة خياطة، فكيف أقــوم بهــذه الفعلة الشائنة التي تلطخ شرف العائلة؟؟ ويومها قلبت علــى عمي هذا كل المواجع، أليست مهنة الخياطة أفضل مليــون مرة من مهنة لص الحقول؟ أو التجــارة فــي الممنــوع، أو الخدمة في بيوت الأثرياء، أو تسجيل أختي وعيالها في كشف الحسنات اللاتي تذهبن السيئات وتساوي في الآخرة عشــرة أمثالها؟..

هذه العقلية المصطبية كانت تــذوب هيامًــا بالســلطة والمتسلطين، وتركع حبًا في أصحاب المناصب، وفي المقابل فإنها تمتهن المهن الأخرى، وتحتقر شرائح الصنايعية، مــع ضرورة التعالي المتخلف على أصحابها من الخراطين (مــع

استبعاد إدوار الخراط) والسقائين وسائقي السيارات والقطارات، والحذائين، والوراقين (الذين هم الناشرون ومنهم إبراهيم المعلم نجم اتحادهم) والنساجين (الله يرحم الدكتور الصديق سيد النساج) وكتبة ورديات الليل- (والذين هم بطبيعتهم كانوا أدنى في المنزلة من كتبة ورديات النهار ويسأل في ذلك إبراهيم أصلان)، والجمالين والحمالين والرشاشين (عمال البلديات) والعساكر والحمارين والخفراء والمراكبية والحدادين، هي نفسها العقلية الهابطة الجاهلة التي كانت تتمتع بها عمتي فاطمة حينما ذهبت لزيارتها مصطحبًا زوجتي في أولى زياراتنا للبلدة، وزوجتي ليست من بلادنا كما أشرت من قبل، لكن عمتي لم تهتم بمشاعر الآخرين حينما سألتني في صوت جلف غبي شديد الارتفاع -لكي يسمعه جيدًا كل الحاضرين: هل صحيح أن والد زوجتك نجار؟؟!!، والنجارة -يا سادة- مهنة وضيعة في معتقدات عمتي، وسيكون عارًا ما بعده عار أن يصاهر الفلاحون أصحابها، وكان الكارثة -كما أوضحت لها بصوت لا يقل في ارتفاعه عن غبائها- أن أخي الأصغر تزوج، وبعد زواجه اكتشف -هو الآخر- أن والد زوجته نجار..

لكن الأمور– عندما تتحرك بعيدًا عن مجال المصطبة– يجب أن تختلف، وأن تتدخل الثقافة، وأن يصيبنا الرقي، وأن نعلو فوق هذه اللغة التي تعبر عن سفاسف حياتنا الخاوية من الجوهر، لأن عددًا لا باس به من كبار ونجوم المبدعين في الأدب قصة وشعرًا لم يحظوا بالمؤهلات العالية، وبعضهم لم يحصل على مؤهل أصلا، وليس ذلك ذا شأن بالمرة في المجال الأدبي الذي قد يحتسب ذلك لصالح المبدع وليس ضده، لكنه –بالتأكيد– سيظل أمرًا شخصيا، يدخل فقط في قدراته على الاستيعاب والإدراك الفكري لخدمة موهبته، والجهود المرهقة التي يبذلها الأديب لتحقيق القيمة العليا للنص الخاص به.

وبالتالي فإن دخول عالم الصحافة (المعارضة بالذات) بعقلية كهذه يعرض القيمة الأصلية للتواصل الفكري للخطر، ويهدد المبادئ الراقية التي تقوم عليها ثقافة هذه المهنة العالية، وتجعل من الصحفي مجرد باحث متخلف عن وسائل للفضح أو الابتزاز، ويجعلنا نتذكر ما أثارته من سخرية الطريقة التي حاول فيها صحفي كبير التقليل من شأن صحفي أكبر في أواخر السبعينات، الأول صحفي كبير، مثله كثيرون

يحتلون الساحة، لكن الثاني كاتب ومحلل موهوب ورائع، وكان الأول قد أخذ على عاتقه نقد أو تجريح عصر عبد الناصر أيامها، فهاجم الثاني كعنصر ضروري في المهمة، وخلال ذلك عايره بأنه لم يحصل على المؤهل الدراسي اللائق، مجرد دبلوم تجارة متوسطة، فازداد الذين يحبون الثاني، ذلك أن عددًا كبيرًا من الذين نفخر بهم كانوا دائمًا خارج المؤهل الدراسي العالي في الإخراج السينمائي والمسرحي والصحافة والأدب والفكر -في جميع مجالات الإبداع، دون تهوين من شأن الذين يحملون المؤهلات العليا، لأهميتها الوظيفية، ولاسيما في غير مجالات الإبداع الموهوب، لأن الإبداع- يا أيتها العقلية المصطبية- يعلو فوق أي مؤهل، وأي مكتسبات قد تكون عبئًا على الإبداع ذاته.

٢- قدري أبو حسين

أحسست بالحرج والاضطراب والضيق حين اطلعت على ما نشر خاصًا بقدري أبو حسين، أعرف هذا الرجل من زمن طويل خلال انتقاله الهادئ من سوهاج إلى أسيوط سكرتيرًا عامًا للمحافظة، ثم في الشهور الأخيرة نائبًا لمحافظ القاهرة، مع أني لم ألتق به سوى مرات معدودات- مع

آخرين- إلا أن إشعاعًا رقيقًا كان يتسلل من سيرته في أنحاء بلادنا، إنسان مرح يجيد الإنصات والفهم لما قد يعتور الآخرين من مشاكل أو عوائق، ويتمتع بقدرة على صياغة أمور الموقع بشكل يدركه أو يهضمه المحافظون، ولا سيما أن منطقة سوهاج- أسيوط كانت دائمًا هدفًا لتعيين محافظيها من رجال الشرطة أو الجيش، وسمعة منطقتنا- بما فيها من مواصفات البأس والشدة والشراسة والقبلية والصلابة- تجعل المحافظين الوافدين شديدي الحساسية لمعنى أن يواجهوا مثل ذلك، فيبدو المحافظ صلباً شرسًا وشديد الشطط في أمور قد لا تدعو إلى ذلك أصلا، ولعل ما قام به قدري أبو حسين في صياغة الأمور كي لا تحدث كوارث بين الحاكم والمحكومين كان مرهقًا، ويمكن الاستفسار عنه من هؤلاء الذين خرجوا -تباعًا- من محافظة أسيوط ليصبحوا وزراء داخلي، من أول زكي بدر حتى حسن الألفي، وهو ما أعطى هذا الرجل سيرته العطرة في تلك البقعة المصرية، ويجعلني أحس بالحرج والاضطراب والضيق لما نشر عنه، فليس هو الذي يقف في الناحية الأخرى من محافظ القاهرة عبد الرحيم شحاتة، والذي صوروه على أن المحافظ بنفسه- قاد الحملة

التي أجبرت نائبه على إخلاء مكاتبه التي على النيل بصفته نائبًا للمحافظ، وذلك خلال الحملة الكبرى التي يسعدنا أن تنجح في إعادة نهر النيل إلى أهلية والإجبار قسرًا هنا غير وارد، ربما هو خلل في التنسيق، وهو أمر تم تصويره على غير طبيعته، وعلى غير طبيعة هذا الرجل الدمث المرن الطيب: قدري أبو حسين، الذي أكتب عنه ذلك دون أن أجالسه مجالسة حقيقية، ودون أن يكون لي عنده أية خدمة على أي مستوى، فقط هي السيرة الجميلة التي لا تزال رائحتها تملأ أجواء أسيوط وسوهاج رغم مرور الأيام، حتى لو أنكرها هو ذلك، وجاءت تصوراته مخالفة لموقعه في ذاكرتي، ولاسيما وأن بعضًا من الأبناء الصحفيين يأخذه الشطط في تصوير موضوعات قد تحتاج إلى ذكاء وانتباه واعتبار.

٣- طوفان النيات الحسنة

تمهيدًا للنجاة من الطوفان، بدأ سيدنا نوح -عليه السلام- ترتيب الأمور التي ينفذ بها التعليمات الإلهية: (احمل فيها من كل زوجين اثنين) على سطح سفينته، واضح أن السفينة لن تستطيع حمل كل المخلوقات بطبيعتها، والاقتصار

على زوجين اثنين فقط منها يعني الاختيار، وهو ما قامت به اللجان المكلفة بذلك، مراعية حجم السفينة وقدرتها على التحمل، حتى لا ننجو من كارثة اجتياح الطوفان إلى مهزلة الغرق بسبب ازدياد الحمولة- في ذات الطوفان، وكان ذلك يحتاج إلى وعي ودأب وإدراك من هذه اللجنة، كما لابد أن تستبعد الأهواء الشخصية خلال الاختيار، لا يجوز مثلا أن نستثني -أو نغض البصر- عن عدد أكبر من نوع الهدهد لجماله ووسامته وخفته، وما اشتهر به من قدرته على إراقة سخونة الرغبة في العلاقات الخاصة، على حساب الغراب أو البومة أو الحدأة أو أي نوع غير محبوب منا، الكل في قائمة ركاب السفينة متساوون.

غير أن هذه اللجنة أصابها الاضطراب حينما اختارت زوجين من الصحفيين للنجاة، وبعد صعودهما للسفينة بفترة، جاء صحفيان آخران، فتم اختيارهما على أساس أنهما أدباء، فلما جاء الأدباء ضاع حقهما في النجاة، وقد أدى بي ذلك إلى الرفض ومهاجمة اللجنة، فقد كنت أنا الأديب الذي يستحق دور النجاة، والأديب مختلف عن الصحفي حتى لو كان الاثنان وافدين من بطن واحد، ويتوجهان إلى نشاط يبدو

مقاربًا: الكتابة. لكن الصحفي والأديب مختلفان تمامًا، ولا يجوز أن نخلط بينهما، مع الإقرار بوجود الصحفي الأديب: جمال الغيطاني ومحمد جبريل ويوسف القعيد ويسرى حسان، غير أن ثمة صحفيين خالصين أصبحوا كتابًا دون أن يكونوا أدباء/ محمد حسنين هيكل ومكرم محمد أحمد ومحفوظ الأنصاري، أنا أديب كاتب ولست صحفيًا وأطالب بحقي في النجاة دون ربطي بالصحافة، ولاسيما أني حصلت على موقع أدبي لأسباب إبداعية قصصية قبل أن أكتب في الصحف، وهكذا وصل احتجاجي إلى مسامع سيدنا نوح، الذي فهم الوضع، وأعاد تصحيح الاختيار لأصعد إلى السفينة بصفتي أديبًا كبيرًا يثير إعجاب كل حمولة السفينة.

لكن الناس ، بعد أن نجحنا في النجاة من الطوفان، أي بعد أن انتشرنا في ربوع الأرض، لم يدركوا معنى ما حدث، حتى أنني ما زلت أعاني من هذا التقديم الذي يقوم به البعض: فلان الفلاني، صحفي. وما أنا بصحفي، إنما أنا كاتب أديب تحمل الصحف أفكاره، واضح أن الصحفي يمكن فهم مهنته بالنسبة للعامة والجمهور العريض، فهل يمكنهم فهم مهنة الكاتب الأديب؟؟، إن ذلك يحدث في أوساط حققت

رقيًا وإدراكًا، فما بالك بسواد الناس؟؟، وسط كل ذلك -أو خلال كل ذلك- نواجه نحن الأدباء مأزقًا دائمًا عن عامة الناس والجمهور العريض، إنهم العاملون في إدارات قصور الثقافة وأنشطتها، إذ أننا نلاحظ - في المؤتمرات بالذات- نوعًا غريبًا من الحمق في الفصل بين الأديب والصحفي، وكمثال لذلك- من باب التقريب- مؤتمر العريش، منذ سنتين أو ثلاث، قامت إدارة المؤتمر بتسكين الصحفيين ومعهم الإعلاميون المنتمون للإذاعة والتليفزيون في فندق أوبروي (خمس نجوم) على شاطئ البحر المتوسط لكي ينعموا بهذا الجو الساحر وهم يطلون على أوروبا، أما الأدباء والكتاب أمثالي فقد كان مصيرهم فندق مكة الذي لا نجوم له، وسط مدينة العريش دون بحر، وقبلنا الموضوع كما تعودنا، غير أن السماء- التي تكن للأدباء إعجابًا عميقًا وواسعًا لم تترك الموضوع يمر بسهولة، إذ أن أصدقائي من كل الإعلاميين كانوا في حاجة إلى طلبات خارج الضيافة: شاي وقهوة وشيشة ومشروبات غازية وغير غازية، ففوجئوا بأسعار لا قبل لهم بها، كما أن حصول المؤتمر على تخفيض كبير في الإقامة بواسطة السيد المحافظ جعل الضيافة- هنا خسارة

وتضحية، وترتب على ذلك أن رجال الفندق كانوا يخـدمون الزملاء على مضض- هذا إذا خـدموهم أصـلا- فبـدأوا يتسربون من الشاطئ المواجه لأوروبا، ويخترقـون مدينـة العريش كي يلتقوا بنا- نحن الأدباء- في الفندق البسيط الذي يمكن لنا فيه أن نشرب الشاي والقهوة بأسعار يمكن تحملها.

ما سبب هذا التفريق المعروف والـذي تمارسـه كـل إدارات المؤتمرات؟ الصحفي أو الإعلامي قادم من جـوف جريدة أو مجلة يمتلك فيها وقعًا، وهو الذي يمكنه أن يكتـب أو يخدم المؤتمر وإدارة المؤتمر، أمـا أنـا مجـرد أديـب عبقري- على العين والرأس/ إن ذلك يثير من المرح أكثـر مما يثير من الضيق إزاء زملائنا الصحفيين- أدباء كانوا أو صحفيين خالصين- لكن الأمر يصبح قاسـيًا حينمـا يكـون الصحفي - المبالغ في تكريمه- من دور عيالنا، تصور مثلا أن بعض صغار النفوس أدرك ما في نفوس الآخـرين مـن رغبة في نشر أسمه في المساحات المتاحة لهمن فبدأ يبتـز الآخرين ليحصل على مكاسب لا تخصه، فإذا كان الصحفي أديبًا مثل محمد جبريل، يكون مناسبًا أن يتم اختيـاره فـي الأمانة العامة للثقافة الجماهيرية، أما الصحفي الذي لا قـدرة إبداعية له: كيف يصبح عضوًا في هذه الأمانة؟ هل لأنه قادر على نشر ما يريد ضد من يريد؟

ومثال آخر: التقيت مصادفة بواحد من مديري قصر ثقافة بلد في الصعيد، قال إنه يبحث عني، أهلا وسهلا، قال إنه قادم لترتيب ندوة عن كتابي الأخير، ففرحت بالطبع، ثم أخرج من جيبه قائمة بأسماء من يسعى لاستضافتهم في الندوة، لو كان واحد منهم أديبًا لأصبح الأمر قابلاً للمناقشة، لو كان أي منهم له تجربة في إدراك النص الأدبي (مشروع ناقد) لأسعدني ذلك، إنما هم جماعة من أبنائنا الصحفيين الذين وجدوا أنفسهم يعملون في مجال أخبار الصفحات الأدبية، ومع ذلك دافع هذا المدير الغلبان عن هذه السماء بصفتهم نفادًا، كان واضحًا أنه مشغول بالتغطية الإعلامية للندوة، وأهمية إبراز اسمه خلال ذلك، فلما نبهته أن يتصل بأساتذة النقد الأدبي في جامعتي المنيا وأسيوط، هم أولى بالجدل حول الإبداع، نظر في وجهي بإحباط، وقبل أن يتكلم قلت له: وسوف أنشر اسمك في مقالاتي بالندوات وبدونها، لكنه ظل يرمقني في شك، وهو الشك نفسه الذي عرقل اختياري من كل زوجين اثنين –بصفتي أديبًا– كي أنجو على ظهر سفينة نوح، عليه السلام، من طوفان النيات الحسنة، والساذجة أيضًا..

عمنا الطيبي والإمام طنطاوي

١- عمنا محمد الطيبي

بحجمه الصغير، الأنيق، المبتسم، كان محمد الطيبي يستقبلنا، هو -بشكل من الأشكال- في الموقع الآخر من ثقافتنا، أي أنه شاعر يتعاطف مع العمود الموروث في القصيدة المعاصرة، في الوقت الذي هجر الإبداع الحديث هذا العمود سعيًا لانفتاح أوسع تحقيقًا لرؤى جديدة بقدرات عقلية جديرة، وهو ما أسسته الثقافة العصرية ابتداء من بدر شاكر السياب ونازك الملائكة وصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي، حتى محمد سليمان وحسن طلب وبدر توفيق ومهران السيد، ثم عدد وفير من المجاهدين في التجديد، حتى إن بعضهم أخذه الشطط الحداثي فكتب ما لا يفهم عقباه: نثرًا تهويميًا أو شعرًا متناثرًا وخلال كل ذلك كنا نجتمع بين الحين والحين في قصر ثقافة ديروط، حيث نلتقي بأستاذنا الطيبي ، هذا الذي كان يشع بالسماحة الأدبية دون تعصب لحساب فن ضد فن آخر، وهو ما فشل فيه كثيرون من الفرقاء: أنصار الفن التقليدي أو الحديث، إذ كان الطيبي- بلغته الفصحى بالغة التلقائية- يفند النص الأدبي دون معاداة

للفصيلة أو الرافد الذي ينتمي إليه هذا النص، كان عقله دافئًا، شديد اللماحية، تعليقاته ذكية تحميها لمعة واضحة في حدقاته الممعنة.

ذات مرة كنا نستمع إلى قصيدة مهشمة الأوزان منخفضة المستوى، وإن أتحدث في القافية، كان واضحًا أن صاحبها لا يدرك من بدائيات الشعر شيئًا، فما بالك والفن – بما فيه الشعر– قد أوغل في دوائر معقدة، حيث أنجزت القصيدة العربية مشروعها الكبير في التخلص من الأردية القديمة والمعاني المستهلكة لحساب مستجدات وافدة على العقل العربي، كان صاحب ما سمي بالقصيدة يومها شديد الاعتداد بما ينشد، وكاد يصبح هدفًا للمناوئين المتعصبين ضد الشعر التقليدي، لكن الأستاذ الطيبي – وكان يقود الندوة– قال مبتسمًا وهو يشير لصاحبها بالعودة إلى مقعده: إنها قصيدة ذات نيات حسنة..! ودعا أديبًا آخر ليقرأ عملاً جديدًا قاطعًا الطريق على أي محاولة للهجوم على صاحبنا الغلبان، ذلك أن الأستاذ الطيبي كان شددي الإحساس بالآخرين، يستقبل الأنواع الأدبية بنوع من الأريحية الدافئة، لكنه –حين يقع في نص أدبي يثير إعجابه –لا يتوانى – أن

يتخلص من موقفه المتحفظ، حيث ينساب لسانه في تناول النص بطريقة رحبة واسعة، حيث يكشف عما فيه من عوامل الجذب، مستخدمًا لغته الفصحى التلقائية المحكمة، والتي لا تخلو من تعبيرات ماكرة وذكية وعندما يستغلق عليه فهم نص، أو يفشل النص –القصيدة بالذات– في الوصول إلى عقل أو وجدان الطيبي، كان يضحك في هدوء ويقول: يبدو أنه مكتوب لآخرين في غير زماننا، وعندما كانت بعض النصوص تغرق في الجنس أو الابتذال يشير إلى بعض الجالسين طالبًا منه التعليق بصفته (صاحب باع في هذه المسائل)، أو (خبيرًا)، أو (محنكًا).

وفي كثير من الندوات كان الطيبي شديد الاهتمام بضرورة انفتاح العقل على الثقافات الأخرى، دون أن يقع في هوى أي مذهب يجذبه بعيدًا عن الإحساس المصري الصادق الملم بالثقافة العربية القديمة والحديثة، ومع أن الفرق بيننا –في العمر– لا يزيد على أربع أو مس سنوات، إلا أني كنت أدعوه: عمي، ربما لأنني تمنيت لو كان لي عم على هذه الشاكلة، وعلى هذا المستوى من التحضر والإدراك، محافظًا

–في الوقت نفسه– على أخلاقه الإسلامية، وعلاقته الإنسانية بكثيرين هم على الطرف الآخر من معتقداته.

ولقد رحل الأستاذ محمد الطيبي من أيام فترك في الحلق مرارة، وفي الأحاسيس ألمًا، وفي الوجدان منطقة لا يسهل على غيره أن يحتازها.

٢– افهمني يا شيخ طنطاوي

خلاصة الموضوع –الذي أرهقنا سنوات طويلة (قرونًا طويلة أصح)– ما جاء على لسان الإمام الأكبر شيخ الأزهر، إن الأزهر لا يصادر كتبًا أو فكرًا، ولكنه يكتب تقارير عن بعض الكتب والأعمال الفنية، حينما يطلب، منه ذلك، ويحدد ما فيها من مخالفات أو حتى مغالطات دينية يطلب تصحيحها، وعند هذا الحد –كما جاء بجريدة الجمهورية يوم ٩٧/١٠/٧ – يتوقف دور الأزهر، ولكن المصادرة إنما هي مسئولية جهات أخرى تتصدى لها، ولكن بعض مثقفينا –من أسف– يتصور أن الأزهر في خصومة معهم.

ولو كان الذي يتصدى للأعمال الفنية في مثل عقل الشيخ محمد سيد طنطاوي، ولديه الرحابة والإدراك بمثل ما لمسناه في هذا الرجل، لما كانت الأمور قد وصلت إلى هذا

الحجم المتورم بين الإبداع الفني أو الفكر الباحث في حرية- وبين الرؤية الدينية في هذا الشأن خاصة وليست عامة، وعندما تكون المسائل نسبية، يصبح التحرز والحرص والانتباه أكثر حساسية، وخصوصًا أن القواعد الدينية- بما فيها من مفاهيم فكرية- ثابتة وطيدة راسخة، أما الفن والإبداع والتفكير ففي حالة قلق وتوتر ورفض وشد وجذب.

والذي يحدث أن واحدًا من المشايخ الأجلاء يرى في عمل فني أو أدبي ما يخالف معتقداته، فيثير اعتقاداته، أي يرى فيه خروجًا على الدين فيستثير الكامن فيه اعتقاده المهيأ ضد ما يلمح فيه هذا الخروج، فيقوم هذا الشيخ الجليل بتدبيج ما يراه مناسبًا للمصادرة، نعم: هو رأي كما يبدو، لكنه رأي يحمل في النهاية خاتم الأزهر أن يضعه في سياقه الإداري، لكنه حين يحمل شعار الأزهر الشريف ليتحرك به إلى ساحة القضاء – فإنما يكون قد أصبح مفعمًا بالجلال والقوة اللتين يريقهما الأزهر على موضوعه، وعلى طلبه، وليس من السهل على القوى الأخرى أن تتخلص مما يربطها بالأزهر الشريف من عناصر الولاء والمحبة والامتثال، في الوقت الذي يكون فيه- المبدع أو المفكر- في موقف الخصم، وأي

خصم؟ مجرد فرد يحتمي بدفاع قد لا يستوعب ما جاء في العمل الفكري أو الأدبي- ولاسيما من يحاول تطويع براعتها لما تحت يديه من قوانين إنقاذ النص من المصادرة- يظل خارج عالم الفن والإبداع، الذي يصبح بهما النص الأدبي قد وقع في المأزق المرهق الذي نعاني منه جميعًا.

والحل الحقيقي والصحيح أن تتوقف تقارير أساتذتنا المشايخ عن تقييم خروج العمل الإبداعي والفكري على المفاهيم الدينية، لتتيح للعقل حرية الحركة والتناول والإفراز، مع العودة إلى توضيح أن الأعمال التي قد تقع تحت هذه الطائلة: نادرة وقليلة، وبعضها متهافت لا يرقى لمستوى الفن، وتستفيد هذه الأعمال القاصرة من ملاحقة الأزهر الشريف لها لما يستتبع ذلك من انتشارها وشيوع محاصرتها، في حين أنها لو تركت -في الهواء الطلق- لما أحس بها أحد أو اهتمت بها تلك المؤسسات التي تقف لحماية أصحابها- دون تقييم حقيقي لمدى فنية هذه الأعمال.

كذلك فإنني قد لا أجد في كل شيخ له حق كتابة التقارير ما يتمتع به البعض- من أمثال الشيخ سيد طنطاوي- من إدراك واسع وكبير للعملية الفكرية والأداء الإبداعي، وما قد

يلازمها من أمور يراها غيره خارجة على المعتقدات والمفاهيم.

لقد انتظرت -كنموذج- (أبو رجل مسلوخة) ليالي عديدة، كان- بوجهه الدميم وطوله الفارع وملابسه المهلهلة وساقه العارية المربوطة بقماش دموي- يداهم سقف بيتنا في ليالي الريح والمطر، كنت أتشبث بفراشي وقد اخترق خصاص السقف (كان من البوص) ليمعن في المكان المظلم ناشرًا رعبه الصامت، ثم لا تلبث الرياح أن تزمجر ممتزجة بأصوات الضفادع والكلاب التي تحيط البيت، غير أن سقف البوص وقع ذات إعصار على أجسادنا النائمة، وكان لابد من سقف جديد من البوص القوي، إلا أن أبو رجل مسلوخة توقف عن الحضور، كانت النجوم تتلألأ من فراغات السقف الجديد غير المحكم، ودفعني القلق أن أسعى بحثًا عن أبو رجل مسلوخة، كنت أعلم أنه يكمن في مكان خلف البرق أو الرعد، واخترقت بوص السطوح وأصوات الضفادع والكلاب، وظللت أسعى فوق هامات النخيل والأشجار، كانت الظلمات تلتف وتدور ملقية بشرائح النور أمامي، وبينما كنت أقفز من غيمة لأخرى، كدت أسقط من الهوة الفاصلة، كان

ذلك مرهقًا لكني كنت –مع كل خوفي– سعيدًا، مما جعلني أخترق غيمة بالغة الكثافة، فانفجر النور الصارخ في وجهي، كان القمر قد احتضن نجمة في وضع محرج، عدون بعيدًا لتحملني ريح مواتية إلى آفاق ممتدة، كان البرق قد تشابك مع الرعد في مشاجرة دامية بالغة الضجيج، وكانت السحب السوداء تهلل مثيرة للشغب، وكان أبو رجل مسلوخة جالسًا حول نار موقدة وقد مد ساقه المسلوخة بجوار نار، كان نائمًا، لكنه – ما كاد يحس بي– حتى فتح عينًا بالغة الشراسة، وبدأ يتكئ على عصاه الطويلة ليقف، هي بداية المطاردة، والتي سوف تحيق بي الدمار، ولاسيما أن أشعة الشمس كانت قد اخترقت خصاص السقف وقد تشبث بالثعابين.

بعد نشر هذا النص جاءتني مكالمة –ثم رسالة– من أحد أصدقائي المشايخ، يرى أنني بذلك أجرح معنى السموات العلى، وأن السموات ستظل المجال الذي أسرى فيه رب العزة جل وعلا بالرسول الكريم، وأنه لا يجوز للكاتب أن يعابث أو يعبث في هذه المسائل.

والأمر على هذه الشاكلة يسقط من الحساب خيال الكاتب، ثم يسقط من الإدراك ما جرى من تقدم علمي إزاء الطبقات العليا من الجو -التي هي بالمفهوم الديني- السموات العليا، وبالتالي تصبح خيالاتنا رهينة بمفاهيم الآخرين عن السموات المقدسة، قديمًا، دون اهتمام بأن السموات ستظل- بالعلم -وبدونه- إعجازًا ربانيًا، كما أن الأرض أيضًا ستظل إعجازًا ربانيًا، وقد داهمنا الأرض بالقصة والقصيدة، كما داهم القدماء السماء بالشعر والحكمة والتفكير، وقد تحللت السماء علميًا في العصر الحديث وخضعت إلى ما خضعت إليه الأرض.

فما دخل هذا النص بالسموات المقدسة، أو بالإسراء والمعراج؟

إنه مجرد طرح لما قد يتواتر على العقل القارئ من أمور يراها خارجة عن الفكر الدينين وبالتالي فإن لصديقي الشيخ هذا الحق في كتابة التقرير المناسب للمصادرة ثم التأثيم والعقاب، مع أن الأمر تعني -على هذه الشاكلة- انغلاق العقل المبدع دون اهتمام بإنجازات العلام المعاصر،

وما أحدثه من انقلاب في المفاهيم الموروثــة عــن الأرض والجو والسموات العليا.

هذا، دون الإشارة إلى ما ابتدعــه صــاحب (رســالة الغفران) أبو العلاء المعرى من اختراق للسموات ومنــاطق الجنة ليدفع العقل للتصور الفذ الواسع خروجًا على المألوف الضيق.

إنني أناشد شيخ الأزهر الإمام الــدكتور محمــد ســيد طنطاوي – ذا العقل الكبير– أن يعيد النظــر فــي مســألة التقارير التي تجر العقل المبدع إلى ساحة القضــاء، لأنهــا ليست مجرد تقارير بالمرة، إنما هي أحكام مبدئية وأساســية بالإدانة.

وأنا متأكد أن الشيخ سيد طنطاوي –بالذات– يفهمنــي، ويدرك ما أعنيه.

من باب الاعتبار التاريخي
حالات في الحملة الفرنسية
وطيور عبد الله النجومي ثم صحراء أحمد حسنين

نشوب اعتراضات حادة ضد الاحتفال بمرور مائتي عام على استيلاء الحملة الفرنسية على مصر يثير من جديد قضية مفهومنا للتاريخ المصري- والعربي، والذي تتناهشه التيارات المتناقضة والعواطف الدينية - ذات البعد الواحد، ثم تصوغه بشكل ذاتي الشرائح العرقية القادمة من دول غير مصرية ثم تمصرت، وهو ما أدى إلى تسطيح التاريخ المصري وتحويله إلى عملية مدرسية، ذات قشور واضحة خشية أن يكون اللباب (أي الحقائق) مناقضا لما يحب كاتبو التاريخ أن يبرزوه.

وبالتأكيد فإن الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ - كانت بالحقائق الوطنية الأولى مداهمة عسكرية لأرض الوطن، استشهد فيها كثيرون، وحتى بدون وقوع شهداء فستظل هذه الحملة اجتياحًا عسكريًا لمصر، فإذا أردنا أن نغوص قليلا فسوف يكون ذا شأن أن مصر- التي وقعت فريسة للفرنسيين.. كانت فريسة من زمن طويل لغير

الفرنسيين، وأي كوارث يحيقها الفرنسيون بها لن تقل في أذاها وضررها عن العصر السابق الدموي المنتهك لكل مصري، أي منذ الغزو العثماني عام ١٥١٧م، والذي تصفه دائرة المعارف البريطانية بأنه أسوأ العصور التي مرت على مصر – مع كثرة العصور السيئة: (أهملت شئون البلاد ومرافقها الكبرى إهمالا تامًا مما أدى إلى تدهور ثرواتها الطبيعية والعملية، فعم الفقر الربوع كلها، وضرب الجهل كل جماعة فيها حتى الجماعة الحاكمة)– فإذا أردنا أن نتوسع في المعرفة التاريخية بشكل موضوعي، فإن كل العصور السابقة على الحملة الفرنسية– وبلا جدل كثير– كانت تتسابق في السوء منذ انهيار العصر الفرعوني، وأحاقت أنواع متعددة من الجنسيات الوافدة صنوف العذاب بهذا الوطن.

ومع ذلك فإننا نحتفي– وفي حالة احتفال دائم– بكثير من نجوم تلك العصور المؤلمة: الظاهر بيبرس الذي يرجع إليه الفضل في هزيمة المغول، مع أهمية تشييده لمسجد أو قبة ذات طراز فريد، ثم هناك قلاوون، والناصر، وكل الحكايات والسير الشعبية التي تتعرض لهؤلاء ظلت تدور في الفخر بهم لكونهم أبطالاً، دون أية محاولة للغوص في أحوال

العباد، المصريين المحكومين، لقد طفا التاريخ فوق السطح تاركًا شئون العباد لرب العباد، كل العصور تعددت في مناسيب السوء والإساءة للمصريين مسلمين وأقباطًا، أنا لا أقول ذلك، اقرءوا كتب المؤرخين غير المعاصرين: المسعودي والطبري وابن عساكر والبلاذري وابن عبد الحكم وابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون (وله أهميته القصوى) والمقريزي وابن إياس وابن تغري بردي، ثم هناك من غير المؤرخين المسلمين البطريرك يوتيخيوس والأسقف ساويرس، بالإضافة إلى عبد الرحمن الجبرتي الذي أرخ لمصر منذ أيام على بك الكبير حتى رحيل الجبرتي نفسه (أي من ١٧٥٤ إلى ١٨٢٥)، وبالمناسبة يقول هذا المؤرخ العظيم الجبرتي عن علي بك الكبير: (لما أصبح أميرًا للحج اختار الأنصار (أي ضد المهاجرين)، وصادر أموال خصومه، وأخذ ينفيهم، ثم يقتلهم ويستولي على إقطاعاتهم ويهبها لمماليكه وخاصته).

لكن التاريخ المدرسي الشائع لا يحب أن يبدو عميقًا، وأصبح كل من بني مسجدًا أو انتصر في حرب جديرًا بالذكرى المجلجلة فخرًا واعتزازًا، وسقط من بط التاريخ

المتعفن ما جرى من أمور تقشعر لها الأبدان بشرط أن تكون هذه الأبدان (عندها دم).

وبالتأكيد فإن الحملة الفرنسية مارست ما استطاعت من صنوف القهر لهذا الشعب حتى ولو كان محكومًا بغير المصريين، والكتب التي اهتمت بتاريخ تلك الفترة كشفت كثير من الممارسات، والتي بسببها قامت الثورات في القاهرة، ثم بسببها أيضًا قامت الأقاليم بالتصدي لهذه الحملة الأجنبية المستعمرة.

لكن أمرًا واحدًا سيظل ذا شأن ولا يسهل إسقاطه من كل عناصر هذه الحملة: إنها مسألة اصطحاب هذا العدد الوفير من العلماء الفرنسيين، صحيح أن الحملة لم تتمكن من المكوث في مصر سوى ثلاثة سنوات، إلا أن إنجازات علماء الحملة في مصر مقطوعة الوصل بأسباب النهضة الأوروبية أيامها بسبب ما كانت فيه، ولم تكن تدرك ما وصلت إليه من تقنيات تخطت بها عصور ظلام القرون الوسطى ، ودخلت مراحل متقدمة في البحث العلمي والاكتشافات المتوالية في قوانين الحركة والعدسات والبارود والمركبات والأدوية والفلك والطب وهندسة البحار والتعدين والكشف عن

الغامض في حركة الكون، والعلماء الذين اصطحبتهم الحملة الفرنسية- العسكرية في أساسها- جاءوا لأغراض عسكرية أيضًا، لكنهم نجحوا -ولأول مرة- في وصف مصر: التضاريس والجماعات التي تقيم بين هذه التضاريس، العادات والتقاليد والمعتقدات والطقوس، وهو أمر له أهميته القصوى حيث كانت القاهرة -العاصمة- هي الهم الأول للمؤرخين، ثم الإسكندرية، دون أن تحظى الأقاليم والهضاب والبحيرات وشرائح البشر بأية دراسات ذات شأن من قبل، هذه الجهود العلمية المؤثرة، والتي كان تتويج جهودها – بعد انتهاء الحملة على مصر بسنوات- نجاح العالم الفرنسي جان فرانسوا شامبليون في فك طلاسم اللغة الهيروغليفية الفرعونية القديمة، والتي بها انفتحت مغاليق العالم الفرعوني، وارتفعت القيمة التاريخية لعصورنا الوطنية المبكرة، والعظيمة أيضًا..

ولهذا الجانب العلمي من الحملة الفرنسية تأثيره الكامل في بداية ربط مصر بأسباب العصر، وهو ما بدأ محمد على -بعد ذلك- في الاهتمام المكثف به، وتحريكه إلى مجالات أوسع وأكثر تنوعًا (حتى ولو كانت أسبابا عسكرية في

الأساس).. ولذا فيصبح من باب العشم العصري أن نحتفل بما صاحب الحملة ذاتها من جهود علمية مؤثرة دون أن نتراجع في الهجوم على الحملة العسكرية ذاتها.

عبد الله النجومي

سنجد اسم عبد الله النجومي تناثر – بشكل محدود– في كتابات المذكرات السابقة على ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وقد لا نقف أمامه كثيرًا، بل أن الأمر قد يصل إلى درجة إسقاط اسم عبد الله النجومي من أحداث كان في قلبها، ثم إنه دخل إلى عالم النسيان نتيجة للاتجاه المصري المعروف، والذي يهيل التراب على ما مضى لحساب ما هو قائم، وهو ما كتبت بسببه قصة (الجبارنة– مجموعة ديروط الشريف)، عن تلك الجماعة التي ورثت الحياة على اقتصاد الحمير، كل شيء في حياتهم يرتبط بالحمير: اكتشافاتهم لا تتعدى أدوية معالجة جراح احتكاك الظهور، أو كسور الحوافز والتواء الحدوات، وصناعة البرادع وزنابيل السباخ، وقص شعر الحمير وصباغة ظهورها بالحناء ثم ما يترتب على ذلك من مهنة النقل على ظهور الحمير، لكن كبيرهم حين استشرف حافة الموت نصحهم باقتناء جمل، وفور أن بدأت الجمال

تهل حتى اكتشفوا ما تتمتع به الجمال من لحوم ووبر وقوة احتمال وصبر على الجوع والعطش، فقاموا بتوسيع بيوتهم ورفع سقوفهم إلى أعلى بما يتناسب مع الوضع الجديد، حتى الزمن استأنسوا بمروره على صوت الجمال المشابه لانسكاب المياه من القلل، وفي المقابل بدءوا يردمون الذكرى على المباذل والمباءات التي كانت الحمير تغرقهم فيها، ولم يروا في عصرها حالة واحدة تصلح للاعتبار، واندمجوا في عصر الجمال حتى أن عيونهم غلظت وآذنهم قصرت، ومشافرهم انشقت، وبدأت أصواتهم تصاب بنغمة انسكاب المياه من القلل، ثم لم يلبث زعيمهم أن استشرف حافة الموت، فطلبوا منه الوصية الحكيمة كعادتهم، فأوصاهم باقتناء بغل، حينذاك انفتح نافوخهم على ما في البغال من طهارة ونقاء وانخفاض صوت وتهذيب، وقدراتها الفائقة على جر العربات وصعود المرتفعات، وفي المقابل اكتشفوا هذه البذاءات التي عاشوا فيها في عصر الجمال من تعشير وحمل وولادة ولحم خشن رديء وبلاهة عرفت عن ذكور الجمال، بالإضافة إلى هذا المشهد غير الأخلاقي الذي يجرى فيه الجمل سعيًا وراء ناقته، حيث يرغى ويزيد وينيمها مقلقًا

الجماعة كلها رغبة فيها، أما البغال فإنما هي الهدوء والرصانة والرزانة والحركة والرزق الوفير، حتى أن مناخيرهم غلظت وامتدت، وكواهلهم سمنت، وعيونهم بدت هادئة مستكينة، لكن الأمر وصل إلى مرحلة جديدة حين استشرف زعيمهم أو كبيرهم الموت، فطلبوا منه الوصية، حيث أمرهم أن يقتنوا حلوفًا، أي خنزيرًا، وتنتهي القصة المكتوبة، لنعود إلى عالم الجبارنة خارج هذه القصة أو داخلها، لا أدري، ذلك أننا تعودنا على إغلاق الباب بالضبة والمفتاح على أي عصر ينتهي لحساب مجد وعظمة العصر الجديد، فعلها عبد الناصر ضد العصر الملكي ثم قلعناها نحن ضد عبد الناصر.

كان عبد الله النجومي الياور الخاص للملك فاروق، ومن الواضح أنه كان ذا دراية عالية وخبرة عميقة بتكوينات التضاريس المصرية، والسودانية أيضًا، إذ أنني أعتقد أنه من أبناء عبد الرحمن النجومي القائد السوداني الذي انضم لثورة المهدي عام ١٨٨١ فأصبح من أقرب تابعيه ومساعديه، حيث لعب دورًا مهمًا في حصار الخرطوم ١٨٨٥ حينما كان كتشنر حاكمًا على السودان، وقد اختاره المهدي –على رأس

حملة كبيرة لغزو مصر، لكنه هزم –من كتشنر– في توشكى جنوب أسوان عام ١٨٨٩.

من سلالة عبد الرحمن النجومي كان عبد الله النجومي، الذي ظلمناه لأنه كان الياور الخاص بالملك فاروق، حيث كان يصحبه في رحلات صيد الغزلان في الصحراء الغربية، أو صيد الأنواع الغريبة من الطيور والأسماك في منطقة البحر الأحمر، ثم هو كان أيضا مسئولا عن سلاح الحدود، لكن الأهم من كل ذلك أن عبد الله النجومي كان راعيًا لحديقة حيوانات الجيزة، حيث كان يمدها بالحيوانات التي كانت في طريقها للاندثار (قبل ظهور نظام المحميات القائم الآن)، وأعتقد أن النجومي كان مسئولا مسئولية مباشرة –أي مديرًا– ذات فترة لهذه الحديقة، كما أنه كتب –أو ساهم في كتب عن بعض الحيوانات، لعل أشهرها كتابه عن الطيور المصرية) مع الدكتور حسين فرج زين الدين (المفتش بوزارة المعارف) والدكتور محمد عبد المنعم المنيري الأخصائي بحديقة الحيوان، والذي أصبح مديرًا لها لسنوات طويلة أواخر الخمسينات أو ربما في الستينات، والدكتور مصطفى كمال فايد (المدرس بكلية التجارة..!!) وقد تصفحت

الطبعة الثانية من هذا الكتاب الصادرة عـــام ١٩٥١، لكنـــي كنت أسمع عن عبد الله النجومي باشا كثيرًا، قبل قيام الثورة، بصفته المصاحب الدائم للملك فاروق، كما أن رحلات الصيد التي كان يقومان بها في الصحراء لم تكن تخلو مـــن أمـــور أخرى لا علاقة لها بالصيد، كما كان يشارك الملك فيما نحب جميعًا أن نشارك الملك فيه، لكن الأمر المخزن أنني التقيـــت –في أحد ملاهي القاهرة– منذ أكثر من عشر سنوات بواحـــد عرفني بنفسه على أنه النجومي، فلما استفسرت منه عن عبد الله النجومي باشا قال إنه أبوه، وأن الرجل تزوج قبل رحيل الملك فاروق عن البلاد بفتاة صغيرة، بني لها منزلا كبيرًا أو قصرًا في المطرية، وأنه بعد قيام الثورة كان يعيش بالمرتب المصرح له به، وكان قد وصل إلى سن متقدمة أصيب فيهـــا بعد القدرة على السير، وأضاف بأن زوجته الصغيرة الجميلة كانت تسيء معاملته، وكانت سببًا في أن أقاربـــه هجـــروه، وكان في أيامه الأخيرة يحاول العودة إلى السودان، وقد توفى الرجل وأصبح قصره قصرًا لمعهد بحوث الصـــحراء فـــي المطرية.

كل هذا الذي عن عبد الله النجومي باشا احتمالات أو تخمينات أو أي شيء آخر غير الحقائق، ولعل واحدًا من الخلصاء يهتم به عل الحقائق تعيده إلى حظيرة التاريخ.

أحمد حسنين

كذلك فإن أحمد حسنين كان شخصية فذة، ولد عام ١٨٨٩ ورحل عام ١٩٤٦ بسبب اصطدام سيارته بسيارة بريطانية، وهو الحادث الذي حمل تفسيرات سياسية عديدة، كان أحمد حسنين رحالة وسياسيًا. ولد بالقاهرة وتعلم بها ثم أكمل دراساته بجامعة أكسفورد الإنجليزية، حيث عاد إلى القاهرة عام ١٩١٤، فتولى بعض الوظائف –ولا أعرف ما هي– ثم أعانه الملك فؤاد على القيام برحلة ١٩٢٣ جاب فيها الصحراء الغربية من ساحل البحر المتوسط في السلوم إلى دار فورد في السودان، وقد اكتشف واحتي العوينات وأركو، أشرف على تربية الملك فاروق، ويتهمونه أنه كان وراء أسباب التصرفات الحمقاء التي كان يمارسها الملك فاروق، مع أن أحمد حسنين كان فارسًا محبًا للرياضة، واشتهر بإجادته الفائقة للمبارزة بالسيف، كما أنه كان يجيد الطيران ومفتونًا به، كما أن اسمه ورد كثيرًا في كتابات محمد التابعي

(كان لهما علاقة بأسمهان) وفي الكتابات السياسية كانوا يعتبرونه أس الفساد في القصر، حيث تولى رياسة الديوان الملكي، وكان يتدخل في ترتيبات التنظيم الحكومي أو تأليف الوزارات، كما أن مستشرقة –أو مغامرة إنجليزية صحبته في رحلته الأولى في الصحراء الغربية، ثم كتبت كتابًا وصفته فيه بأنه كان تابعها في الرحلة وهو ما اعتبره إهانة له، وكانت الرحلة مع الإنجليزية محدودة، فقام برحلته الثانية بدونها، وكتب كتابه الجميل (في صحراء ليبيا) عن هذه الرحلة،ي تعرض فيه بالوصف التفصيلي للقبائل والجماعات البشرية التي التقي بها في رحلته، ووصف بدقة الواحتين اللتين اكتشفهما ولم تكونا على الخريطة من قبل: العوينات– أركو، ولغة الكتاب قوية والإحساس الإنساني فيها بالغ النبل.

وحياة أحمد حسنين جديرة بأن تدرس، أي أن توضع في مكانها اللائق تاريخيًا، وكتابه المشار إليه أكثر الكتب مواءمة للتدريس في المدارس، حتى لو جاء في كتابات ناقديه قبل ثورة يوليو وبعدها أنه كان عشيقا للملكة نازلي والدة الملك فاروق، وكانت مولعة به، كما أشيع أنه كان ذا صلة بجميلات كثيرات –فاتنات– في عصره، منهم كاميليا

وأسمهان- الأولى انتهت حياتها في حادث انقلاب سيارة، كما أنه لقي مصرعه في حادث سيارة أيضًا.

إن الحياة المصرية -قديمًا وحديثًا- مفعمة بأفراد لهم نبوغ خاص، وقد تم إهالة تراب النسيان عليهم لأسبابنا القائمة دائمًا، والتي تعودنا استعمالها ضد من يجب أن يحظى بموقع متميز في الواقع التاريخي، أما هذا التاريخ المكتوب بشكل سطحي، أقصد تاريخ النظم والحكام والوزراء، فإنه يثير من الأسئلة أكثر مما يقدم من أجوبة وخصوصًا تلك العاطفة المكتوب بها والتي تصلح لكتابة الأغاني أو أشعار الهجر والبؤس والأيام الخالية.

هؤلاء الرفاق.. بين الحياة.. والحياة

أهمتني المسالة بشدة بعد أن كانت الجوانح قد هدأت، فأحسست برغبة عارمة أن أهجر بيتي في العمرانية بالجيزة، وأن أهيم على وجهي في بيادي مصر وبراريها ووديانها وروابيها، أن أخترق الآفاق أفاقًا أو متسولا أو عازفًا على ربابة أو رق بمصاحبة قرد، أن أتخلص من رؤية الستائر والكتب والمجلات واللوحات وخطابات الأصدقاء والمناوئين والمهذارين وإشعاعات التليفزيون وآخر أصداء الإشباع الموسيقي، أن أندفع إلى بطون الجداول والقناطر والأهوسة، أن أنام في ظلال الإبل والنخيل وأشواك الأسوار، أن ألوذ بفرقة غوازي راقصة تتجول، أن أطارد الفيران في الشقوق، أن أعود– ولو لمرة واحدة– فأمتص اللبن الطازج المحلوب توا وأترك بقاياه تسيل فوق صدري.

وحين هدأت –مرة أخرى– أتضح لي أن المسألة ليست في ظاهرها– ولا في باطنها– سوى محاولة للهروب من تلك التعاسة الملونة، العصرية، المزركشة، المتألقة، المثيرة للغباء والنهم والتحايل، وأن علاج مثل هذه المسألة/ البحث عن الأصدقاء، لا، لا أقصد الذين تعاشقت أو أختلف معهم في

ألأحقاب الأخيرة، إنهم يحملـون كثيـرًا مـن المواصـفات العصرية المقلقة، إنما أعني هؤلاء أتراب الفترات الأولى من حياتي، هناك في المنطقة التي ولدت فيها: قريتها ومـدينتها، وزعمت لنفسي أن مجرد الالتقاء بأفرادهم سوف ينفث فـي الفؤاد ريحًا جديدة، تحرك الساكن المترف في الكيان.

بالقلم والورق بـدأت أحصـي أو أحصـر أو أسـجل اعتصار الذاكرة التي تحتويهم، وإذا بالذاكرة تستجيب بسرعة مذهلة، رفاق السوق، والكتاب، وحقول المرج وغرب البحر، والمدرسة الابتدائية في بندر ديروط ــ ملحوظة كـان لهـذه المدرسة طراز خاص من المباني – قريبًا مـن تلـك التـي أصدرت وزارة الثقافة أخيرًا قرارها باعتبارهـا أثريـة، لا يجوز هدمها، وكانت أول مدرسة ابتدائية أقيمت في مركـز ديروط (١٩٠٣) في عصر المدارس الإلزاميـة أو الأوليـة المنتشرة آنذاك، ومن المؤسف– وأثناء كتابة هذه السطور: تم هدم هذا المبني الرشيق الجميل ليقوم مكانه مبنى جديـد ذو شكل صندوقي من تلك المباني الكئيبة التي مـلأت أركـان الوطن، والتي تخلو من أي جمال، نعود إلى هؤلاء الرفـاق في السن المبكرة، وأيضًا: أتراب تسلق النخيل، وصيد أسماك

القنوات، والاستحمام في الجداول، وصعود أشجار الجميـز، ومحاولة الأذان على مئذنة جامع الأمير سنان الشاهقة، ولـم يكن سوى هذا الجامع ذي مئذنة في تلك السنوات، وبعـد الآذان مباشرة –في غياب الشيخ حسـن عبـد البـاقي ذي الصوت المجروش– نتسلل إلى الحقول بحثًا عمل نسلبه منها يصلح مأكلا ومصروفًا للسجاير والسينما: كالخيار والباميـا والطماطم وعنب الذئب.

غير أني – ودون أن أدري– تسللت من الحقـول إلـى جماعات الذكارة التي تحيي الذكر في مناسبات التراحم على الموت مقابل الخبز وقطع اللحم، بعدها أصـبح مناسـبًا أن أسيح في البلاد بحثًا عن عمل، كنت قد قضيت وقتًـا ألـوذ بمحمود عبد المالك غرب– الذي كان مسئولا عـن النـادي الريفي، ومديرًا للجمعية التعاونية المتخصصة فـي توزيـع الكسب على أصحاب البهائم، وهذا الرجل شخصـية فريـدة وسط أعيان قريتي: كان يمثل اتجاها مثقفًا يأتي على لسـانه دائمًا عباس محمود العقاد وطه حسين وأحمد لطفي السـيد، كان أسمر نحيفًا وطويلا يضع على رأسه طاقية بيضاء ذات شرفة دائرية، شديد الود والابتسام والتعليقات الساخرة، يميل

إلى جلسات المرح والفرفشة والانتعاش، وقـد ظـل طـوال حياته بعيدا عن التشابك والتشـاحن والاحتكـاك والتسـلط وضرب الرصاص الذي كان الأساس في علاقات عـائلات أثرياء القرية في تلك السنوات، حتى ولو كان الشيخ محمـود علي شناوي قد استدرجه إلى قضية خطابات تهديد، (ظلـت المحاكم تتداولها حتى انتهت –بعد سنوات إلى صلح، أي بعد إرهاق وشد وجذب، ولاسيما أنهما كانا أبناء خالـة)، لكـن محمود عبد المالك، المنجب للإناث –هدأ باله واستكانت نفسه حينما أنجب أول مولود ذكر، وبدا واضحًا أنه وصـل إلـى المرفأ الأمين، هذا المرفأ الـذي منحـه الجلسـة الحميمـة والاطلاع الدائم على الجرائد، كان يفوقه في ذلـك –إحقاقًـا للحق– خليل أبو الحاج عيسى، والذي عرفت عـن طريقـه مجلة روز اليوسف، وهو شخصية مؤثرة كـذلك، غيـر أن الجميل في محمود عبد المالك أنه زارني في أسـوان حـين كنت أعمل في السد العالي (ما يزيد على ٦٠٠ كيلو متر هي المسافة بين ديروط الشريف وأسوان)، وكان يصحب معـه ابنه أحمد سامح (لاحظ الغرام بالأسماء المزدوجة عنـدنا)،

كان واضحًا أن الرجل يحاول أن يربي ابنه على غير ما تربي أبناء أثرياء ذاك الوقت.

كان من مثقفي الصحافة أيضًا: أبو حسيبة المكوجي، وهو ثالث من أدخل راديو في قريتنا يعمل على البطارية الجافة ثم السائلة التي نشحنها عن طريق دينامو الطاحونة الخاصة بالغلال، هؤلاء لا نضيف إليهم مثقفي نظار المدارس- الذين كانوا كذلك بطبيعة موقعهم وحبهم الجارف لطه حسين والعقاد.

وعندما وصلت في تفكيري لزيارة محمود عبد المالك غلاب- مع ابنه -أسوان، ومشاهدتهما لعمليات بناء السد العالي، بدأت تنهمر في الذاكرة رؤى وظلال وذكريات الذين صادقتهم في ذلك المشروع العظيم، (والذين لم أجد أثرًا لهم في الجمعية المنشأة حديثًا في القاهرة باسم أصدقاء السد العالي- وأحاول من أيام زيارة هذه الجمعية كي أتعرف على أعضائها)، عدد مهول من أبطال ذلك العصر المرهق المشبع بالحماسة والفداء ومواجهة الأخطار بدا يحوم حول ذاكرتي، نعم: انتهي العمل في السد العالي منذ سبعة وعشرين عامًا، لكن السد العالي والديناميت والكراكات والبلدوزرات

والجرانيت والرمال ودرجة حـــرارة انصـــهار الرصـــاص والانهيارات الجبلية وطلمبات رفـــع الميـــاه، ثـــم الأنفـــاق ومحطات الكهرباء كل هذا يتزاحم، والأوراق التـــي تسـجل أسماء الأصدقاء تعددت، الذين كتبت عنهم –في المصـــور– من قبل، والذين لا يزالون يلفون في مدارات الكتابة، الكل له وقعة في الفؤاد، أكثر بمراحل من هـــؤلاء الأتـــراب الـــذين رافقتهم في بداية حياتي.

خلال ذلك انتابني أمر مرهق، إذ بينما كنت أسعى بحثًا عن الأصدقاء في السد العـــالي بـــين المحـــاجر والآلات و الانفجارات والتلال وأمواج مياه الأنفاق، فوجئـــت بنفســـي أحصى –أو أقارن بين زملاء القرية ورفاق الســـد العـــالي، وأصل إلى نتيجة مرعبة: أن معظم أبناء القرية قد رحلوا – أي ماتوا، الذي قتل في فراشه والذي أصابته أمراض تساقط الجلد، والذي جاب بلاد الله بحثًا عن ثروة– عاد بها ليمـــوت حامدًا الله أن تعيش زوجته في عز وسعادة، أو تاركًا زوجته وأولاده ليعيشوا في أي عز وأي سعادة، ومنهم ابن خـــالتي الكبير (وهؤلاء يمثلون عددًا واضحًا)، والذي رحـــل– عـــن ثروة– تاركًا أهله يتضاربون عليها، وهناك مـــن قتـــل فـــي

سيارته، ومن باضت على جثته الدواجن، ومن قضى نحبه غريقًا في ترعة المرج، ومن أصابه سعار كلب عقره وظل يعود حتى انتهى أجله، عدد وافر من هؤلاء كان يحيا حياة مترفة لا إرهاق فيها ولا كلل ولا عوز، نحسد معظمهم حيث كانوا يستيقظون من نومهم قرب العصر، ويقضون الليل في المباهج القروية السخيفة الكوتشينة والحشيش والاستمتاع باحتقار الذين أدنى منهم ثروة، والأدنى ثروة هتكت قلوبهم أمراض جلطات التخمة الحديثة والثروة الحديثة والأورام الحديثة أيضًا، الباقي منهم قليل، بل والأدهى أن بيوتًا كاملة أصابهم العقم لتخوي على عروشها، وبعض هؤلاء الذين عاشوا حتى الآن إنما هم وصلوا إلى نوع من الموت المتألق طويل المدى، ذلك الذي يداهم الأعزاء في السنوات الأخيرة، حينما يفاجأون بالوحدة: الفشل في الزواج وانعدام الإنجاب، حيث لا أمل سوى الملابس النظيفة، والجلسة المملة التي يسودها المرح المفتعل على حركات فؤاد المهندس وعادل إمام، مع أهمية التوقف عن التدخين.

فما الحكاية..؟؟ وجميع الذين عملت معهم في السد العالي انتشروا أقوياء في الأرض، أعطاهم الله الصحة،

ويعملون في أماكن عديدة، وأكبرهم المهندس أحمد عبد الرحمن عوف (مع أهمية ذكر إبراهيم زكي قناوي- مع أني لم أعمل معه) مرورًا بالمهندس محمد جعفر حسن وحكمت عبيد ومحمود حمدان وعبد الجواد منير ومحمد عبادي وشكري نمر سعيد وقرني عيسوي وعطا عبد الحميد (يسكن في المنزل نفسه الذي أسكن فيه) وعبد التواب توفيق ومحمد سمير سمك (أو مقبل) وشكري طه، ومحمد عبد الواحد (سائق كراكة- وليس صديقنا الذي له الاسم نفسه مدير مالي فرع القاهرة بالمقاولون العرب) وعبد الحفيظ الشويخ ومحمد حين ورجب الصعيدي ومحمود إسماعيل، حتى فاروق عباس ناصر- الذي كنت أكرهه كراهية العمى - لا يزال يعيش في أسوان ذاتها، وغير ذلك من كل هؤلاء الذين عاشوا الأخطار ليلاً ونهارًا، كي يواجهوا حياة تعلو على مطالب المأكل والمشرب والنوم والعبث، أي الراحة الخاملة.

وعندما وصلت إلى هذه المرحلة- من التفكير- أصبح من الواجب أن أتوقف، وأن اترك الخلق للخالق، وأن أعود من جديد لتسوية أموري (النفسية)، حيث يصبح من اللائق أن أقع أسير تلك الرغبة المداهمة: أن أترك بيتي، وأهج في

أركان الوطن، ولأني أجبن من أن أقوم بذلك، فسوف أكتفي بالسفر الهادئ صوب الأماكن الجديدة، التي تخلو من ذكريات، وفي حاجة إلى ذكريات.

وبدأت أركن جانبًا قوائم الأصدقاء –أتراب الطفولة والصبي، ورفاق العمل المجهد المرهق، وأبدأ فأسترخي ممعنًا إلى الأمام، وقد تسلقت أقدامي هذه العفريتة الصغيرة بنت ابني الكبير هذا الذي يعتقد أنه أنجب أفضل بنات الدنيا، حيث تبدو الأمور هكذا يا ولدي، والعفريتة تناديني بصفتي جدها، بعيدًا عن كل القوائم الأخرى.

احتفالية شخصية
من أجل الصعيد الجميل
ورمضان الكريم والسد العالي

بسم الله العزيز القوي، الذي يحب أن يرى فينا الاعتزاز والعزة، والكرامة والقوة، بحق الشهر الفضيل الذي نميل نحن جماعة المثقفين أن نحتفي به بشكل وجداني قد لا يراه الواقعون في المظاهر والشكليات، بحث هذه الأيام المفترجة أن تفتح أمخاخنا كي تتخلص من الرواسب والشوائب والهوابط والنوازل، وأن تخفض –يارب– من أصواتنا المجعجعة الضاجة الخاوية الخالية من المعنى، ومن المتعة، ومن الإدراك، ومن الموسيقى، ومنن التواصل، وارفع يارب –يا كريم– مقتك وغضبك عنا، حتى تتفتح عيوننا أكثر لنرى ونلمس جيدًا ما استشرى في وطننا من ظواهر فاسدة وفساد ظاهر، وأن تخفف عنا مشاهد الفن الهابط في التليفزيون والسينما والكتاب، لا أقصد بالفن الهابط ما قد نراه من عري أو إثارة إنما هو– الفن الهابط– يشمل هذا الإسفاف الخالي من الفن– حتى وهو يستثير الفضائل والأخلاق القويمة، فقد أراق التليفزيون– في الأيام الرمضانية الخمسة الأولى–

أنواعًا من المواد الغثة بدعوى التسلية، وسكب في عقل قومنا مسلسلات واضحة المدرسية، حتى من هؤلاء الذين ظللنا نسعى خلال الرمضانيات الكريمة السابقة لنستمتع بهم، يبدو أن الأمور كلها تصنع لوحة غير مريحة- لا أقصد في التليفزيون فقط- بل وفي الشارع والتصرفات والسلوك والعلاقات، وهو ما يجعلنا نتوجه إلى الله العلى أن يهدينا سواء سبيل الوطن في هذه الأيام..

أولا- نغمة ضد الصعايدة.. مؤلمة

وآية ذلك أن بعض الأساتذة يقعون في أمور لا يدركون مدى ما تتركه في نفوسنا -نحن الصعايدة- من خربشات لا داعي لها، إذ كثيرًا ما تصنع هذه الخرابيش وكارثتها التي تتجمع مع خرابيش أخرى -واضحة- في ملامح الوطن، إنها تحدث بحسن نية، ومن قال إن الكوارث تحتاج إلى سوء النيات؟ من شهور جاء في مقدمة (تيتر) مسلسل أثناء عرض أسماء الفنانين بعد التقديم المستحدث: عائلة فلان يقوم بها فلان وفلان، وعائلة أخرى يقوم بأدوارها فلان وعلان، وإذ بالتيتر يبرز بالنص: الصعايدة ورجال الليل: فلان وفلان، وقد كتبنا أيامها تسفيها حول تصنيف الصعايدة مع رجال

الليل، أي أن الصعايدة لا يوضعون في تعرف محدد واضح من قطاع الطرق واللصوص ومداهمي البيوت والشقق ليلا، إذ أن قطاع الطرق -هؤلاء - منتشرون في ربوع الـوطن على شواطئ فروع النيل وشواطئه من بحيرة ناصر جنوبًـا حتى شطوط البحر المتوسط شمالا، والفتيان الثلاثـة الـذين ذبحوا سيدة مدينة نصر وأطفالها، والذين داهمـوا الضـابط على كوبري إمبابة وقتلوه، والذين يمارسون الابتزاز وقطـع الطرق ومداهمة الأتوبيسات بالمطاوي في العاصمة ذاتها بها في ذلك وقائع الشمحطية التي تنشرها الصحف، يوميًا ليسوا -كلهم بالضرورة- أن يكونوا من الصعيد. أي مـن وجـه بحري، ذلك أن بطن الوطن كله يفرز بسرعة عصرية مذهلة كل أنواع الشرار، والتركيز على تصـنيف الصـعايدة مـع رجال الليل فعل يخلو من المسـئولية إزاء سـلامة الـبلاد وأمنها، ويفتح أبواب الشر والتعصب لمن لم يمارس الشـر والتعصب، على المستوى القبلي والعائلي بعد أن داهمنا على المستوى الديني.

ثم يأتي رمضان الكريم فنجد مسلسلا- هو الشارع الجديد- يقسم الجماعة المتصارعة إلى فلاحين وصعايدة، وكأنه قد حقق بذلك عدل الصراع، وهو أمر لن يحدث في كل البلاد التي عمل فيها الصعايدة غرباء عن الصعيد- إن كانت العاصمة ليست الرمز الخالص لكل المصريين بانتماءاتهم الدينية أو القبلية، صحيح أن الصعايدة وغير الصعايدة يتكتلون بسرعة ضد من يحيق بهم الظلم، لكن هذا التكتل يشمل غير الصعايدة أيضا في الجبهة نفسها، وآية ذلك أن مواقع تكاثر أهل الصعيد في روض الفرج والسيدة زينب يتجمع داخله -وينتشر- مواطنون ليسوا من الصعيد بالمرة، ومن باب التنبيه كمثال فإن صاحب شركة نقل -أعرفه جيدا- من جهينة (وسط الصعيد) - يعمل لديه عدد وافر من العاملين سائقين وتباعين وحمالين وكتبة من الصعيد وغير الصعيد، ومن النصارى والمسلمين، ومن الفيوم ومن عبابدة الصحراء الشرقية، وعندما كانون يقعون في مأزق أو صراع مع جماعة أخرى، فإنها لا تكون خالصة من وجه بحري، بل الأعظم من ذلك أن الشارع الذي أسكنه يقيم فيه عدد كبير من الصعيد يمثل الغالبية الكبرى من البلينا على وجه

الخصوص، ومع ذلك فإن الأقلية دون إحساس بهذا الفصل، أمام شقتي وفوق شقتي وتحتي مباشرة والدور الثاني بكامله سكان من غير الصعيد، ولهم مواقف ضد صاحب البيت – كأي صاحب بيت في هذا العصر المضطرب – وصاحب بيتنا– مع كل ما يملك– ينتمي إلى عائلة ضخمة العدد في الشارع، ولم يحدث أبدًا أن استعان بالعصبة القريبة لتحقيق أهداف بصفته صعيديًا ضد الفلاحين –أي هؤلاء الذين من غير الصعيد.

لابد –إذن– أن نحس بالمسئولية في كتابة مثل هذه المواقف وعرضها على الناس، ليس لأنها غير صحيحة فقط، بل لأن الصعايدة في حالات تعصبهم كانوا ضد صعايدة آخرين أيضًا لأسباب موروثة قبل هجرتهم إلى العاصمة، ولأن ذلك أيضًا يفتح بابا جديدًا يغذي مشاعر التعصب بعد موجات النكت السخيفة ضدنا خلال ربع القرن الأخير.

ثانيا– ٩ يناير: عيد السد العالي..

وتجربة السد العالي خير دليل على ما أحاول شرحه من أمور لا يدركها كثيرون عن الصعايدة بالذات، ليس لأني منهم، ولكن لأن جسد هذا الوطن غير مستعد لتحمل طعنات

جديدة، وشروخ جديدة، ولأن هذه الأيام الرمضانية الكريمة، حملت في جوفها يوم) يناير، عيد السد العالي، وكـــان مـــن المفروض أن يصبح عيدًا لمصر كلها.

كان عدد العاملين في هذا المشروع يتجـــاوز الثلاثـــين ألفًا، الهيئة العامة للسد العالي – بما فيها الوزارة، وشـــركة مصر لأعمال الأسمنت المسلح، وشركة أولاد عبـــد الفتـــاح لإنشاء الطرق، وشركات أخرى عديدة أقل حجما، كل هؤلاء كان العاملون فيها إلى ١٨ ألفًا، إن لم يكن قد تجاوز ذلـــك، وكمثال فإن الرقم الخاص بي كان ١٧٦٥٢، وذلـــك لأنـــي عملت بعد السنوات الأربع الأولى في المشروع.

وعندما يكون هناك مشروع في جنوب الصعيد فعليـــك أن تعرف أن الغالبية العظمى من العاملين من الصعيد، مـــا يزيد على ٩٠% ولاسيما أن ثمة أنشطة ومهنا معينة يجيدها أهل الصعيد بالذات: التحجير – أي تجهيز الأحجار، وفـــتح المدقات والسكك بين التلال، ونقل كثبان الرمال، واستخراج الطفلة (أي الكاولينا أو الطمية) وفرز الرمال بـــين الناعمـــة والحرشة والغليظة، تفجير الجرانيـــت والصـــخور، النقـــل النهري بين الضفتين – قبل ظهور جسم السد العـــالي– مـــع

الاستخدام الأمثل لذلك (ابتداع المركب التي تنفلق نصفين عائمين مقلوبين لتلقى بحمولتها من الصخور أو الرمال أو الطمية إلى عمق النهر)، أما بقية الأنشطة المتعددة في الوظائف والمهن فكانت حيث الخبرة مع المؤهل، والحظوة أيضًا.

ومع ذلك فإن ظلمًا ماحقًا ساحقًا أصاب أهل الصعيد العاملين في المشروع، كانت الحظوة مؤثرة في تقسيم الأرزاق، فقد رتبوا هؤلاء العاملين –من أول يوم – والذين هم في المقاولون العرب إلى ثلاثة أصناف:

الأول: جميع العمال تم تعيينهم من أسوان (ويطلقون عليهم فئة تعيين أسوان) لا مساكن ولا تغذية لهم، إنما هم يقيمون في عنابر واسعة – بعضها كان بالأسمنت المشتعل حرارة في الصيف، ومن لا يجدون راحة في ذلك أقاموا بمعرفتهم في بيوت أسوانية (لم تكن المساكن غالية)، أو صنعوا تجمعات من الخيام أو تشكيلات الخشب الحبيب والاسبتوس (نوع من السطوح المصنوعة من الطمي والأسمنت)، أما إجازات جميع هذا التكتل العمالي الصعيدي سبعة أيام كل ستة شهور، أي ١٤ يومًا في السنة، ودون

تذاكر سفر بالمرة، وكل هؤلاء –فيما ندر– من قنا وسوهاج والأقصر وأسيوط.

الصنف الثاني: من يكون موظفًا مؤهلا –تعيين أسوان أيضًا– ويقيم في حجرات البلوكات = كل اثنين في حجرة– وكل حجرة تصنع وحدة، والبلوك يحوي أربع أو خمس وحدات، ويتناول وجبة غذائية واحدة – هي الغذاء، وإجازاته أيضًا ١٤ يومًا في السنة، ودون أية تذاكر للسفر، ومعظم هؤلاء من الصعيد.

الصنف الثالث: الممتاز، وهو تعيين القاهرة أي الذين يحملون خطابًا للتعيين من القاهرة، إقامة كاملة (كنا نسميهم الخمس نجوم) أي ثلاث وجبات، وقيمة تذاكر سفر بالطائرة – أو بالدرجة الأولى في القطار – ومسكن مريح كل واحد في حجرة، وكل وحدة بها حجرتان متقابلتان حيث بالداخل مطبخ، مع أهمية الحصول على مقابل الإجازات (عشرة أيام كل ٣ شهور) مع قيمة التذكرة دون القيام بها.

كان الصنف الممتاز يعرف أكثر مما يعرف هؤلاء الذين توجهوا من بلاد الصعيد مباشرة إلى أسوان فأصبحوا تعيين أسوان، ذلك أن القادمين من وجه بحري – الدلتا

والقاهرة، وكل القادمين من خط القنال – حيث الإسماعيلية مقر عثمان أحمد عثمان، والقادمين من العريش، ومن الإسكندرية، كانوا يتوجهون إلى إدارة الشركة في شارع عدلي ليأخذوا خطاب التعيين ليصبحوا تلقائيا في الفئة الممتازة، وكان القادمون من بني سويف (الجزء الأعلى من الصعيد) يتوجهون – دون أن يدرى بعضهم بالفئات في التعيين – إلى أسوان، فتطلب الإدارة التي هي في القاهرة خطاب ترشيح ليصبحوا هؤلاء تعيين القاهرة من الفئة الممتازة، ذلك لأن المهيمن على الجهاز المالي والحسابات في الشركة كان عباس صفي الدين – عضو مجلس الإدارة في القاهرة، ومحمد إمبابي المدير المالي لموقع السد العالي، وكلاهما من بني سويف، وأهل بني سويف لا يعدون من الصعايدة بمفهوم الصعايدة، حتى ولو كانت بني سويف (أهناسيا) من الصعيد جغرافيا.

كان زملائي الصعايدة يرون ذلك، إنه تمييز عنصري من أردأ الأنواع، ولاسيما وأن هذا التمييز رافقه استيلاء غير الصعايدة على المواقع والمناصب العليا في الشركة– بالتحديد في فرع الشركة بموقع السد العالي:

مديرو الشركة على التوالي: أمين عمر – كمال المهدي – محمد أحمد المتبولي، ثم على رأسهم المهندس أحمد عبد الرحمن عوف.

إدارة السيارات: المهندس على الحريري، إدارة السجلات ثم الخطوط الكهربائية ثم فرع الشركة كله: إبراهيم شهاب (وكنت أكرهه عمى)، مدير شئون الأفراد: محمد صادق البحراوي، مدير المتابعة: كمال إبراهيم، مدير الإسكان: عبد الغفار القفص، مدير الأمن: محمد زكي محمود، أما مدير المطعم (فلا أذكره ولكنه ليس من الصعيد أو النوبة)، مدير النادي الرياضي: حامد زمو، مدير العلاقات العامة: محمد النحاس ثم أصبح مديرًا لمكتب المدير العام، ثم عدد آخر من المهندسين – كلهم من بحري – على رأس قطاعات المعدات، والتخريم والمساحة، كان واحدًا فقط أصوله من أسوان يعمل مديرًا للتنسيق هو اللواء حسن تاج الدين.

كان التمييز الظالم واضحًا صريحًا ضد الصعايدة عن طريق تحديد التعيين: القاهرة أو أسوان، فمن الذي كان في باله أن يسافر من العاملين من أسوان إلى القاهرة ليحل

المشكلة وينضم إلى الفئة المحظوظة، لم يكن أحـــدنا منتبهًـــا فتركونا نتصرف بتلقائية لنجد أنفسنا في المأزق المعروف.

لو أن الروح المتفشية – الآن – في كتاب المسلسلات، وفي توزيع المناصب المعاصـــرة– متفشـــية أيامهـــا، لقـــام الصعايدة، بمواجهة الموضوع الذي كان مشكلة قاسية، ذلـــك أن التكتلات الصعيدية هناك كانت كفيلـــة بتعـــديل المايـــل، ودليلنا على ذلك أن صبري جاء بعد النكسة رئيسًا للـــوزراء وفي اجتماع عام بهيئة السد العالي وضعوا الأمر بين يديـــه، وأمر – فور عودته إلى القاهرة – بمســـاواة العـــاملين فـــي المقاولون العرب بالعاملين في هيئة الســـد العـــالي لمهـــنهم ووظائفهم، لم يكن فيها هذا التمييز المروع، والذي كان يمكن أن يصبح تمييزًا دمويًا، لكن الأمر – رغم صدور القرارات– لم ينفذ، فقد بدئ في نقل العاملين إلى جهات حكوميـــة بعـــد انحسار معدل التشغيل في مشروع السد العالي وصولاً إلـــى نهايته.

غير أني أود أن أوضح أن الصعايدة الذين نـــوا الســـد العالي – مع الاعتراف بنسبة الجهل العالية في كثيـــر مـــن شرائحهم – كانوا يعملون في صبر ودأب ومرح وانشـــراح،

وكان لديهم إحساس يقيني عميق بأن المشروع يكـــاد يكـــون خاصا بهم، وأن عبد الناصر –العظيم – يســـتحق أن يقفـــوا بجواره، واحد في الخطوط الأمامية، وواحد فـــي الخطـــوط الخلفية، التي كان على رأسها مشروع السد العالي، وبالتالي فإن الإيمان بالعمل الحقيقـــي يلغـــي التصـــارع والاحتـــداد والسقوط في الثغرات، لقد كان أمرًا يثير التعليق المرح فـــي الجلسات أن عددًا وفيرًا من أفراد تنظيم الإخوان المســـلمين كان يعمل في إدارات ومواقع الشركة بعيدًا عن جسم الســـد العالي ذاته، ولم يزره أبدًا رغم أنه كان ينمو ويشب – هـــذا الجسد الضخم– من تحت الماء ليعلو فوق هامـــات الـــتلال، كانوا يعملون احتماء في العمل ونوالاً للمرتبات والمميزات، لكنهم كانوا يتهربون كي لا يروا المشروع ذاته، وكنا نعرف ما في نفوس أصدقائنا لنظل نضحك تحت وقع الملاحظـــات الساخرة.

لكننا كنا أمة واحدة في مشروع واحد، متعدد التمييـــز، لكنه يستحق أن نضحي كثيرًا كي تتمكن – يا سيدي – بنوره الساطع أن تتفرج على مسلسلات تضم الصعايدة تنظيمًا ضد

تنظيم الفلاحين، أو تسب جارك الطيب صارخًا في وجهه: يا صعيدي.

وبعد: فعلينا أن نفخر بأننا نعيش عصرًا يعلو فيه الرأي الحر، وتعلو فيه التصرفات غير الناضجة، وغير المسئولة أيضًا، دعوني أتوجه إلى أصدقائنا من مصر كلها وليسوا من الصعيد فقط – الذين أنشأوا جماعة أصدقاء السد العالي– بالتهنئة الخالصة بمناسبة الأيام المفترجة لرمضان الكريم، وعيد ٩ يناير للسد العالي العظيم.

تهنئة صادقة.. وملاحظات ساذجة

مع كل الإرهاق ظل رمضان كريمًا ومنعشًا، يدعو للتفاؤل والابتسام والمناوشات الطفولية المفتقدة، كما أن الأمر كاد – في إحدى مرات التفاؤل والمناوشات– يدمر توازن الصيام، لكننا– وبمرونة ذكية – غطينا المسألة بالتأجيل مع تسريب مبلغ من المال للذين يصممون دائمًا أنهم في حاجة إلى المال، فنحن – فقراء القوم – لا نميل إلى التوازن، في أي طرف بعيد من المعادلة: إما أن نبتز الآخرين احتياجًا أو نتخايل ونتباهى على الآخرين مالاً وكل الأمر في حقيقته قد يثير غبطة طيبة لا تتجاوز جنيهات قليلة ندفع آخر ثلاثة جنيهات منها أجرة للتاكسي، ثم نصمت تمهيدًا لسماع الموسيقى.

وأول غيث التفاؤل مجموعة قصص (روح الروح) لوفيق الفرومواي، التي حازت المرتبة الأولى في استفتاء قامت به هيئة قصور الثقافة، وأخونا وفيق الفرماوي واحد من منظومة شربت المرار لتكتب، وابتلعت الشوك لتنشر، وهضمت الحنظل لتبقى على وجه الثقافة ورودًا يفخر بها أهل الثقافة، هو النموذج الأصيل لمن لا يملك القدرات

الأخرى المعاونة: المال (والذي أثمر عددًا لا بأس بـه مـن الكاتبين الذين لا يستحقون الهالات التي تحيطهم) ومسـاحات الوجاهة التي تبيح لـه أن تتسـلل أخبـاره إلـى الأركـان المصورة، إنه كاتب قصة فقط يحتاج إلى من يزهو بـه دون مقابل، ومجموعته (روح الروح) تخترق الحصار المضروب حول النصوص الأدبية الخالصة، وهو ما يجعلنا نقيم فرحًا آخر للشاعر محمد سليمان بسبب ترجمة عدد من قصائده إلى الإنجليزية الأمريكية، إنه من المنظومة نفسها التـي أينعـت بالعذاب خارج المؤسسات المهيمنة على مجريـات الحركـة الثقافية، لشعره عذوبة، تتناغم على درجـات متواليـة مـن المعاني، محمد سليمان من القلائل الـذين يتيحـون للشـعر الحديث أن يتسلل إلى الوجـدان (بـلا منغصـات التشـذي والتناثر، والتشظي) وأن يعلو – هذا الشعر الراقـي – مـن الوجدان إلى العقل ليتشابك في أحراش المعنى، وبين الوجدان والعقل تنساب الموسيقى صانعة منطقة من الدفء المتماوج، إنه الشعر في أحسن حالات إشراقه، وفي أرقـي درجـات إيحائه، ابتداء من مجموعته الشعرية الأولى، (أعلن الفـرح مولده) عام ١٩٨٠، ومرورًا بالقصائد الرمادية – ٨٣، ثـم

(سليمان الملك) – ٩٠ (وهي قصيدة طويلة – في رأيي– من أجمل زهور حديقة الشعر العربي الحديث) ثم أحاديث جانبية – ٩٠ أيضا، وبعد ذلك بسنوات كانت مجموعته الأنيقة: (الأصابع التي كالمشط) و –الأخيرة – (أعشاب صالحة للمضغ)، وكلتاهما صدرتا من شهور (١٩٩٧) مع أنهما مكتوبتان من فترة قد تكون سابقة على (سليمان الملك)، ومما ينبغي الإشارة إليه أن العزيز محمد سليمان احتفت به الأوساط الثقافية في الغرب دون أن يوازيها اهتمام مصري مناسب، هو من المنظومة نفسها التي قامت وصلبت جيلها بعيدًا عن المؤسسات والتي أدركت حقائق قيام الفن الخالص، دون مماحكات واستعراضات وافتعال قضايا.

ولعله من المناسب أن نهنئ جمال الغيطاني على الخير الذي انسكب على مجده الأدبي بفوزه بجائزة العويس، مما يثير الضغينة ضده – أقصد يضخمها لأن الضغينة قائمة إزاءه منذ أحقاب طويلة، ومن حق الثقافة عليه أن يتبرع بما يناسب حقوق الضاغنين عليه حتى يظلوا في صحة جيدة، وهو أمر معترف به في كل شرائح المجتمع الثقافي المنتشرة في أنحاء العالم، أما شاعرنا الكبير أحمد عبد المعطي

حجازي فإن أي تهنئة ستظل أقل مما يجب على جائزة العويس أيضًا.

وإنني – كذلك – أهنئ نفسي على حصول رواية (روح محبات) على المركز الثالث في الاستفتاء المشار إليه من قبل في مسألة وفيق الفرماوي، ولو كان بطلها الديك الخطير الذي ربيته عندي يمتلك قدرات أسلوبية راقية– دون ركاكة – لحصل على المركز الأول، غير أن وقائع استشهاد إسماعيل النوحي– رواية سمير ندا – اقتنصت بجدارة المركز الأول، إنها عمل متميز جميل ومشرق جدير بالحب والاهتمام، وأجد لزاما على أن أشير إلى مجموعة قصص (أسراب النمل) لحمدي أبو جليل، التي حازت المركز الثاني، ولا أود أن أعلق على ذلك أكثر حتى لا أدمر التهنئة بالعتاب، وهو ما لم تقع فيه إيمان مرسال في مجموعة قصائدها (المشي أطول وقت ممكن) – المركز الثاني في الشعر، قصائدها الصغيرة– في حجم الشاعرة نفسها التي تكاد تنافس العصفور – تفح بحرارة ومرارة وإحساس غامر بالوحدة، أما الدسوقي فهمي فسيظل الفنان الأرقى والأنقى سواء حصلت ترجمته لدودة كافكا على المركز الثاني أو

التاسع أو الأول، لاحظ أن صديقنا المترجم فنان تشكيلي بارع أيضًا، وجير بالحب والتحية الدائمة.

لكن الأخطر من كل ما ذكرت – ابتداء من وفيق الفرماوي حتى الدسوقي فهمي – هو التمهيد لصدور الطبعة الثانية من كتاب (كاتب مشاغب من مصر) بالفرنسية، المتضمن ترجمة لروايتي (من التاريخ السري لنعمان عبد الحافظ) فقد نفذت الطبعة الأول– ونفذت موازية لها كل ثروتي منها – وكلانا – أنا والرواية ننتظر.

٢– ملاحظات ساذجة

لا أود أن أغامر كثيرًا لكني أتساءل: لماذا سيطر أدباء القاهرة على هذا الاستفتاء؟ ثمانية عشر كتابًا توزعت على درجات الاستفتاء الثلاث دون أن يكون فيهم واحد من أدباء الأقاليم.. لماذا؟؟ هناك أعمل كثيرة لزملاء خارج مربع العاصمة تستحق أن تكسر الاحتكار والحصار المضروبين على مثل هذا النشاط نجدي إبراهيم في (أنا السلطان)، صلاح والي في (عائشة الخياطة)، وعشرات من المؤلفات الأدبية ظهرت في عام ١٩٩٧ من دار الهلال وهيئة الكتاب وهيئة قصور الثقافة ومن دور النشر المتعددة الأخرى، لماذا كل

الفائزين في الاستفتاء من العاصمة؟؟ شعراء وقصاصين ومترجمين ومنظرين ونقاد؟؟.

أخشى أن يكون الأمر – بعيدًا عن عنصر المجاملات– خاضعًا لاعتبارات وقتية تقوم على أمرين.

الأول: أن يكون الكتاب المختار قد صدر في فترة قريبة جدًا من عملية الاستفتاء، أو يكون قد قرئ تحت نفس معيار الفترة القريبة نفسها، وترك أثرًا في النفس جعلته يطفو بسرعة شديدة عند الاحتكاك بالاستفتاء، ودون انتظار لإمعان وتمحيص لازمين لتحريك الذاكرة نحو أعمال ابتعد بها الزمن النسبي فلم تنشط بالسرعة الكافية فوق حافة الذاكرة، ولم تلحق احتلال موقعها المناسب في الإجابة على الاستفتاء.

الثاني: أن يكون المؤلف ذاته – في دورته الحركية – قريبًا من مجال التذكر حاجبًا من هو أفضل منه وأحق، مما يصنع مسافة لا تهتم الإجابة بقطعها بحثًا عن صاحبها..

وفي كلتا الحالتين – نضيف هنا العنصر الخطير (المجاملة) – يكون الظلم قد حاق بأصحاب الحقوق الأصلية عندنا، أقول ذلك وبست بعيدًا عنكم، فقد رأيت جماعة تجيب عن الاستفتاء في (الأتيليه) في دقائق، دون تمحيص أو نبش

أو تقليب، وهو ما يؤدي إلى حالة تزييف تتزامن مع الخطوط المؤلمة الأخرى، ولذلك فإن الأمر يدعو للتأني والمبالاة والاهتمام، وعدم استبعاد ما يترتب على ذلك من نتائج غير مريحة تتوالد منها نتائج أخرى لا يمكن التحكم فيها، ليس فقط بين الذين يعيشون في العاصمة وبين من هم خارجها، بل أيضا بالنسبة لأدباء في العاصمة ذاتها أضاعت حقهم مسافة التذكر بسبب غيابهم عن دائرتها.

هذا مع الإقرار بأن نتائج هذا الاستفتاء – الذي أقامته الثقافة الجماهيرية – أي هيئة قصور الثقافة – قريبة جدا من إجابتي، غير أن الملاحظة الساذجة التالية تجعلني أتوقف طويلا أمام اختياراتنا"أربعة من تسعة أدباء فائزون في الإبداع الروائي والشعري والقصصي من هيئة قصور الثقافة، وثلاثة من المقيمين في الأتيليه، وثلاثة من الموجودين بشكل ضاغط في الحركة الأوسع للحياة الأدبية ، يمكنكم مراجعة هذا الكلام – الساذج– على كشف الأسماء لتروا بأنفسكم.

وبالتأكيد فإن الانتباه لذلك سوف يدفع عقولنا إلى تقليب طبقاتها بحثًا عمن يكون قد استحق التنويه بعمله، حتى لا

يتضخم عدد المنتقدين للحياة الأدبية، وما فيهـا مـن خلـل المجاملات، وعدم الإمعان.

٣- ملاحظات أقل سذاجة

كذلك فإن هذا الاستفتاء شمل ٢٥١ شخصًا ، تم استبعاد ٩٩ شخصًا لعدم استيفائهم شروط الإجابة، وهو عدد كبيـر جدًا بالنسبة للإجمالي (٣٥ في المائة). ويبدو من هذا العـدد المشارك - أنه لم يشمل المناطق القافية خـارج العاصـمة، وإن حدث ذلك فسوف يكون في مواقع محدودة جدا تحت إبط العاصمة، وبالتالي فإن المناطق التي لم تشارك كانت سـوف تؤثر فقط بل كانت ستقلب النتيجة رأسا على عقب، وهو أمر لابد أن يراعى جيدًا، حتى نكسر حدة تطويق العاصمة لأمور الثقافة وتطويعها لإرادتها، إذ يكفى القاهرة قدراتها المشـهود لها في كل الميادين، المعارض وقاعات العـزف، وإصـدار الكتب، واعتماد النص المزمع نشره، ورفع شأن مـن تـرى دون اهتمام بقدراته الإبداعية كشرط أول وأخير.

ولقد رأينا - في جوائز الدولة في السنوات الأخيـرة - محاولة جادة من المجلس الأعلى للثقافة - للخروج من دائرة مبدعي العاصمة، وهو نوع يتم بشكل أو بآخر على قاعـدة الاستفتاء، وكانت ثمرته حصول جميل محمود عبد الـرحمن

– شاعر سوهاج المعروف– على التشجيعية العام الماضـــي، هي محاولة تثمر ما يزيح كابوس القــاهرة علــى مقــدرات الأدب، حتى ولو تم ونفذ بمعرفتها، ولذلك فإن فوز أعمـــال مطبوعة في مؤسسات غير حكومية ناتج من هذه المحاصرة، لأن مطبوعات القطاع الخاص مثل (شرقيات – دار الشروق المكتب العربي) لا تصل بســـهولة المطبوعـــات الحكوميـــة نفسها، فإذا أضفت عائقًا آخر خاصًا بارتفاع أسعارها، يكون الأمر قد خلا من عنصر أساسي ومهم في الاختيار، إذ لابــد أن يمارس أدباء الأقاليم حقوقهم في مثل هذه الشـــئون، إذ لا يكفي أن يكتبوا، وتقوم القاهرة بإصدار مـــا يكتبـــون، دون مخاطبتهم في تقييم ما يكتبون وما نكتبه نحن مستعمرة ثقافة العاصمة.

* * *

هذه ملاحظات، وليس صـــعبًا معالجتهـــا، ولا تـــدعو لاستعداء شعوب قصور الثقافة ضدي، وخصوصًا أنني أنظر لهذه العاصمة بنصف عين، والعين الأخرى لم تعد تعمـــل أو تهتم بإقامة العدل – إلا في رمضان الكريم، الذي رغم كـــل الإرهاق سيظل منعشًا، ويدعو للتفاؤل والابتسام والمناوشات الطفولية المفتقدة، وللتوازن النفسي أيضًا..

مدار الجدي!!

أعدنا تنظيم شئوننا بعد مطاردة النمس، كان محمود ابن عمتي دولة قد أبلغنا بأن النمس يكمن وسط كثافة نبات ذيل القط المؤدي لطريق بحر يوسف، حاصرنا المنطقة آخر النهار، وكانت بنادقنا المصنوعة من جريد النخيل قد أعيد تربيطها بعد موقعة حمارة عبد الكريم تاجر الملح، والذي يقال إنه الوحيد الذي ضحك على قطاع الطرق بأن أخفى النقود في مؤخرة الحمارة، ويضيفون أن تاجر الملح المتجول هذا نجح في تضليل قطاع الطرق لكنه فشل في استعادة الفلوس من مؤخرة الحمارة..

وبناء على ذلك قمنا بمحاصرته على ظهر حمارته كي نقتسم النقود المخفاة معه، لكن الماكر فعل شيئا غامضًا في هذه الحمارة أدى بها إلى حركة مفاجئة لتركلنا بسيقانها، وكانت ركلاتها الدائرية قد أودت بثلاث بنادق، تحطمت مواسيرها وتفككت خيوطها، مما عطلنا يومًا كاملاً، حيث قضينا وقتًا مرهقًا في إعادة تركيبها مع رش خلاصة الطوب الأحمر على نهايتها كي تبدو كالبنادق الحقيقية، ثم – في أخر النهار – عرفنا أن نجيب الهلالي قد أقصى عن الوزارة بقوة

الجيش، وأن القائد الجديد للجيش – ولمصر كلهـــا – اســـمه محمد نجيب، وقد اضطربنا فترة لأن رمزي أبو جاد قال إن محمد نجيب هو ابن نجيب الهلالي، وأعجبنا هذا الاكتشاف، وذلك لأن قيام ابن بثورة ضد أبيه أمر يثر الخيال، ويجعل ما لا يمكن ممكنًا، وكان الشمس قد زحفت غربًا مما جعل مـــن نبات ذيل القط غابة مروعة تلقى بـــالظلال الممتـــدة علـــى وجوهنا مستنجدة بأوائل الليل، فأصدرت تعليماتي أن نسرع في المداهمة، غير أن أحدنا أشار بأن نشغل النار في الغابة، ونستقبل النمس حين هروبه، كانت الأوراق القديمة لذيل القط قد صنعت وقودًا جافًا قابلا للاشتعال، واشتعلت النار مـــرات دون أن تمتد لباقي الغابة، حينئذ كان لابد لنا مـــن اســـتعمال الجاز – أي الكيروسين.

الكيروسين في الناحية التي نعيش فهيا من قريتنا كـــان يباع أيامها عن طريق نساء وحيدان، أفراد منهن يعانين من عدم وجود رب البيت الذي يكون قد هلك موتًا، أو اختـــرق آفاق البلاد في رحلة أكل عيش لم يعـــد منهـــا، وأشـــهرهن (أكابر) و (سعيدة)، والأمر يحتاج إلى فطنة كي تحصل على كمية جاز دون ضجيج، وهو ما يساوي الضجيج نفسه الناجم

عن الفعلة نفسها حاليًا، بعد أن ضاع عصر بترول أكابر وسعيدة ليتفشى نفط الخليج، أيامها لم يكن الأمر كما هو الآن، محمد حسنين هيكل كان يسعى – مثلا – ليكون رئيسا لتحرير مجلة آخر ساعة، ولم يكن قد عثر على عنوان مقاله الذي انتشر به في الأهرام بعد ذلك: بصراحة/ والذي به حقق شهرته الواسعة، كما أن علي أمين – أو مصطفى أمين– كان قد أخرج كتابًا ليته ينشر الآن:"هكذا تحكم مصر" فيه مصطفى النحاس وقد انحنى يقبل اليد البدنية لجلالة الملك، زوجته – أي زوجة مصطفى النحاس – كانت تتلألأ بالياقوت والماس في عدة صور، وكان واضحًا أن محمد نجيب جاء إلى منصة الحكم لهذا السبب كي يلقن أباه نجيب الهلالي درسًا له أهميته القصوى، مفاده أن إرضاء الوالدين محدود بالممكن، ويجب – هذا الإرضاء – ألا يتجاوز المستطاع، فإذا كان أبونا مثل نجيب الهلالي جزءًا من الإقطاع والرأسمالية والرجعية – وعدم مهول من المصطلحات الثورية الجديدة – فلابد من القيام ضده بثورة عند الحدود المعقولة، وخلال تفكيرنا في إعادة صياغة موقفنا الثوري بشكل يتسق مع المعطيات الجديدة، هرب النمس من

غابة ذيل القط المشتعلة، وبعد أقل من أسبوع كانت المفاجأة المذهلة: نجيب الهلالي ليس أبا للقائد محمد نجيب، فسقطت أحلامنا في وقف الآباء عند حدود الأدب داخل مياه قنوات الحقول، ثم برزت أهداف الثورة الستة التي تدور حول الجلاء والحالة الاجتماعية والأسلحة الفاسدة، وكانت بنادقنا قد التأمت وتم علاجها وأصبحت قادرة على أن تبدو كالبنادق الحقيقية، فقررنا – في هدوء تحت شجرة السنط – أن نتفادى معركة الحصول على بترول أكابر– وسعيدة حاليًا، وأن نختفي بعيدًا عن الأنظار كي لا نجد أنفسنا في موقف يعادي ثورة الجيش، وخصوصًا أننا قضينا جزءًا كبيرًا من حياتنا نهتف بحياة الملك فاروق زينة شباب أهل الدنيا، ومن الصعب أن نكتشف أن الذين ضحوا بأنفسهم – في تلك الفترة الأخيرة – شهداء في قناة السويس، لم يكونوا يحبون الملك، كانت الصحف التي تعج ببطولاتهم قد بدأت تتخلى عن هذا العجيج.

في هذا الوقت القاسي، وبعد انهيار كل خططنا حول النمس والبترول ومحمد نجيب، جاءت تلك الفكرة اللامعة، ومضة في العقل – عقلي – شدت أفق الوطن، وأثارت في

القلب – قلبي – شجنًا، وأطارت الغربان من فوق الأشــجار، لماذا لا نختطف جديًا ونقوم بإعداده وجبــة دســمة وســط الحقول، احتفالا بثورة الجيش؟؟

كان الشمس قد أشارت لنــا برغبتهــا فــي الغــروب مضرجة الوجه بالحمرة وهناك – على الطــرق المدسوســة وسط الزراعات – سوف نجد قطيعًا من الماعز والغنم يصلح لاختطاف واحد منهم، وما كدت أعلن قــراري حتــى هــاج الرفاق، وأطلقوا البنادق بأصوات فرقعة من أفواهم، وتخابط اثنان وكاد التخابط يصبح شجارًا، م لم نلبث أن عــدنا إلــى الصمت، وكان القرار الذي وافق عليه الجميع ألا نختطف أي جدي يكون ليتيم أو لفقير أو يكون لامرأة محتاجة، أو يكون صاحبه من أقاربنا، أو يكون الجدي ذاته صغيرًا طفلا، وبعد تقليب القرار على جوانبه المختلفة، اكتشفنا أن الماعز بالذات – ثم الغنم – لا تكون مملوكة للإقطاع أو الرجعية، وأن هذا الحيوان – في بلادنا – فقير يربيه فقراء مهما تعدد أو كثــر أو توالد، وبالتالي فإن أهم ما يميز الثورات أنها لا تخضــع للمبادئ الجامدة والمقولات فاقدة المرونة، أي جــدي نجــده

قابلا للاختطاف سيصبح في حد ذاته المبدأ الثوري، النجاح فقط هو الفيصل.

وناء على اتفاق واضح، قمنا بمداهمة الطرق ودروب الزرع، كي نحصل على الجدي المرغوب فيه، وسط صراخ صاحبته تلك البنت الصغيرة التي من بحري البلد حيث مأوى الإقطاع والرأسمالية المتعفنة.

* * *

بعد أن هدأت أنفاسنا – أي بعد الموقعة الناجحة بقليل، جاءت السكين فاكتشفنا أن واحدًا منا لم يسبق له الذبح..، كنا نرفع الجدي إلى أعلى ثم نخبطه أرضًا ونحرك حد السكين على رقبته، والجدي يصرخ ويبعبع، ولكن حد السكين مزق جلد العنق دون أن ينغرز أكثر.

ثم لم تلبث تجاربنا أن بدأت تظهر، أشار أحدنا أنه لابد من سن وشحذ حد السكين، وعلى حجر خشن استطعنا القيام بهذا السن وهذا الشحذ حتى ظهر الشرر من الاحتكاك، وعدنا للجدي ليتجاوب معنا في خفوت صوته كي نذبحه ذبحًا ناجحا، فقد اخترقت السكين العنق في صعوبة، وانبثق الدم من الحلق منبئًا عن نصرنا الذي تجاوز نصرنا على عبد

الكريم بائع الملح وحمارته المشار إليها من صفحات، وما كدنا نصرخ (الله أكبر)، حتى وقف الجدي – ورأسه معلقة في صدره– وسار خطوات فأصابنا الهلع، لقد رأينا دواجن وديوكًا تتحرك بعد الذبح تحت سطوة نظرية حلاوة الروح، فهل تخضع الجديان لذلك؟ بعدها سقط الجدي، فتقافزت الحقول في بوادر العتمة فرحة بإنجازنا، وتراقصت أشجار السنط لتحيي جهودنا المثمرة، وأخذنا الأنفاس اللازمة من الاحتياطي الاستراتيجي للسجاير التي أحتفظ بها في جيبي.

بعد قليل اقتربنا من الجدي الذي تأكدنا من توقف أنفاسه، وبدأنا في سلخه، نعم، اكتشفنا أن واحدًا منا لم يسبق له أن شارك في سلخ ذبيحة، وهل سلخ الذبيحة معقد مثل تلك النظرية المدرسية المعقدة التي تدور حول المربعات التي تقوم حول أضلاع المثلث فيصبح فيثاغورث نصف المربع الثالث؟ أو هل عملية سلخ جلد جدي – لا يكبر كثيرًا عن أرنب مناضل – تحتاج إلى (سيبة) نعلقه في أعمدتها كي يصبح تحت طوعنا وفي مجال قدراتنا؟ وهل سلخ جدي يجبرنا على أن نعيد النظر في تلك الحكايات المؤلمة المؤذية التي جاءت في الكتب عن سلخ جلد العبيد المؤمنين؟، وبدأنا

نشد الجدي بين أذرعنا ونضغط عن اللحم، وبالفعل تمزق الجلد في الرقبة والصدر دون أن يغادر اللحم، كان الجلد شديد التماسك مع اللحم، من أجل ذلك أشار أحدنا أن الجزار يلجأ إلى نفخ الجدي، ثم يحاول أن يخلع الجلد في مناطق متلاحمة دون سكين، ثم.. عمليات معقدة أصابتنا بالضيق والتوتر والإحباط، مما أدى بنا إلى نوع من الشد والجذب في الجدي، مرة بالسكين، ومرة دون السكين.

كنا نعمل تحت ضوء السماء، وأشعلنا النار كي تساعدنا في مجال الرؤية، والجدي يتحول إلى مزق دموية بين أيدينا، الذي يمسك فخذًا، أو الذي يتشبث بالصدر، أو الذي لا يزال يسعى لنزع الكبدة من البطن.

ثم لم نلبث جميعًا أن توقفنا في صمت، لقد جاء صوت مرعب من لعيد، وبدأ يقترب هذا الصوت ليصيبنا بالهلع.. صوت ذئب، إنه الصوت نفسه الذي نعرفه تمامًا، ويطاردنا في أحلامنا، وفي صحوتنا، وفي حقولنا وتحت أشجارنا، صوت دموي يخرج من جوف الذئب ويتمدد في الحقول ليداهم اطمئناننا، أسمعه جيدًا وأحمله في جوفي وفي فؤادي وبين أذني، وكان الصمت قد أتاح لصوت الذئب فرصة

للاقتراب والتصاعد، بل والأخطر – أن صوتًا آخر جاء من ذئب آخر من مكان آخر، ثم صوت ثالث من موقع مغـــاير، والجدي الممزق قطعًا دموية متناثرة حـــول النـــار يســـحب أصوات قطيع الذئاب المتناثرة من أعماق الحقول.

لابد من الهرب.. أو لابد من صعود الشـــجرة، الـــذئب يمكنه صعود الشجرة أيضًا، لم أسمع ذلك جيدًا، فقـــد فقـــدت القدرة على الجري، وناءت بي أقدامي، وحاول الرفاق جذبي كي أجرى معهم.

أنا لست جبانًا كي أجري.

وأطل الذئب من بين عيدان الحقـــل بعيونـــه الحمـــراء النارية، ينعكس في عيونه المأزق الأحمر الذي نعيشه، قـــال أحدنا صارخًا: كان لابد من صيد الذئاب أولا! أولا! وبـــدأنا نعاود الهروب، الذئاب أولا قبل الجدي، ثـــم توقفنـــا لنأخـــذ أنفاسنا، بعدها بدأ بعضنا يطلق رصاص البنادق الطينية فـــي الجو، وكل واحد يضرب الآخر في عنف، ثم نجر، ونرجـــع للتقاتل مرة أخرى.

والذئاب تتجمع حول الجدي.

وتنهش.

وفي كل خطوة يختفي المنظر للخلف، ويهمـس أحـدنا عن الجدي الثاني الذي سوف نحقق به ما فشـلنا فيـه الآن، وبدأنا نستعيد همتنا ونرتب أفكارنا، لنحكي عما فاتنا الانتبـاه إليه، ثم لم نلبث أن نسينا كل شيء، ولم يعد باقيًا في الذاكرة سوى (جدي – ذئب).

قل يا باسط

هناك صنف من ستات بلادنا لا يهدأ إلا إذا ذاق البرتقال الصيفي، فإن تحقق ذلك فلابد أن يرى أم كلثوم شخصيا، وفور رؤيتها – يتمني لو شاهد البرق يلمع فوق الأرض، فعلتها القطارات والترامات (جمع ترام – أي تروماي) والمترو، وأصبح عاديًا أن يلمع ضوء البرق بين عجلات الاحتكاك بالقضبان، إذن لابد من الرعد، بسيطة: شهر رمضان – الذي أنزل فيه القرآن – هو شهر البومب، وقد تطور هذا البومب كثيرًا، فبعد أن كان أيام عمرو بن العاص مجرد انفجار صغير ذي صوت أنيق يثير المرح، وكما حدث أيام محاصرة الثوار للخليفة عثمان بن عفان: حين كان صوت البومب مجرد تنبيه وقفًا للتسيب والرخاوة وداعيًا للتوسع في الترف والنزق، حتى أن الأمور التي تدعونا للدهشة تسير أمامنا شديدة الهدوء والرصانة، وحينما تتوالد نتائجها، نفاجأ بأنفسنا نواجه الرعود والإحساس الداهم بالاندهاش والعجب، وهو ما أدى إلى انتشار البرتقال في عز الصيف، ليخرج من جدول الأمنيات تاركًا الرعد والبرق في

الشوارع، انتبه يا صديقي، فليست هذه الكتابة عن الإرهاب أو حتى عن البلطجة والابتزاز..

١- تفتيح الأبواب

فجأة قامت الممثلة إلهام شاهين بالصعود فوق قمة الاهتمامات، أعلى قمة معروفة تجاوزت بها الغلاء وهبوط مسلسلات التليفزيون وكارثة الجزائر (لاحظ أني قلت الجزائر فقط دون أية إضافة لكي لا نتوه بعيدًا عن إلهام شاهين)، وازدياد نسبة اليهود الممثلين للسفارات الأجنبية في بلادنا، فقد تزوجت أو صادقت أو صاحبت واحدًا من الأثرياء، ليس واحدًا فقط من الأثرياء، بل إنه رجل – من صورته– واضح الغوص العميق القديم في أحوال الدنيا، أي أنه ليس واحدًا من الشرائح أو الجماعات التي نعرفها، إنما هو من طبقة القادرين على الاستمتاع بالاقتناء، وإلهام شاهين تعرف جيدا من تجاربها السابقة – العديدة – أن هذا الصنف الذي يذكرك بالممثل العظيم – في آخر أيامه – عباس فارس (مات) أو حسين رياض (مات) أو عدلي كاسب (مات) – سوف تعيش معه دون متعة حقيقية، هو يستمتع بالاقتناء فقط، وهي لا تستمتع – معه – بحقائق الحياة، فلا يبقى سوى

المال، وكما قالت هي – في تصريحاتها – أنه من الطبيعي أن يصرف ويسرف عليها خمسة ملايين دولار (خمسة وأمامها ستة أصفار كأرقام التليفونات)، وهي بذلك تشير إلى كثير من الستات – المصريات بالتحديد – اللاتي يلجأن إلى سفاراتنا في الخارج لترتيب إعادتهن إلى الوطن بعد أن تخلت عنهم الظروف الحسنة، (أو المحسنة) أو اللاتي لهن أبناء الوطن – هناك – ثمن تذكرة السفر، كان يمكن لمثل هذه المسألة ألا تكون مشكلة لو أنهن تسلحن بأخلاق ذكية وماكرة ولئيمة، أود أن أوضح أن ما يحدث لأفراد هذا الوطن في الخارج لا يحدث مثله لأمثالهم من أبناء الأوطان الأخرى. الحقيقة كان يحدث مثله أيضًا في فترات أقدم، رأيت في مطار بلد شقيق من باع ساعته وهو مطرد، نعم كان ثمة مشهد – ولا يزال – مؤثر ومؤلم ومؤذ وجارح للكرامة أن ترى مواطنينا المطرودين قد افترشوا المطارات والموانئ بسبب انقلاب في العلاقات السياسية أو انقلاب عسكري أو تغيير غير محسوب في مزاج النظام الحاكم يقضون الأيام والليالي حتى تتاح لهم فرصة الرجوع – ضحايا– إلينا، فما بالك وأن تكون الضحية (عيلة) أو زوجة

أو والدة، على الأقل العودة بالمال تعــوض بعــض العنــاء والإحساس بالضياع. إلهام شاهين –بالطبع– ليست من هــذه الشرائح، لكنك – حين يتم تجريدها من كونها ممثلة أو فنانة– ستجد أن من حقها أن تأخذ مقابل ما تمنح، أو ما تراه مقابلا، ولا سيما بعد أن تغير مفهوم الكرامة عند هــذه الطبقــات، وأصبحت الشطارة هي الدستور الذي تسترشد به، لو كــان هذا الذي تزوجته عرفيا غنيا – أقصد ثريا– وقــادرًا علــى الإغداق الإنساني في الوقت نفسه لما فكر في الجزء الثــاني من الرواية: أن يجد نفسه متهمًا بتــدبير مــؤامرة ملاحقــة هاجرته لتشويه وجهها بماء النار.

ليس هذا دفاعًا عن إلهام شاهين، فقد نجحت أن تحصل على شهرة تفوق ما قد تقوم به من إبداع فني العمــر كلــه، وليس هذا دعوة للاحتفال بالنصر الذي حققته، إنما هو مجرد فتح أبواب قضية لا نرغب أن نفتحها، وضحاياها كانوا فــي حاجة إلى ذكاء الهام شاهين، مع أنني واثق أن الأمور تمت في هدوء، هدوء طبيعي يقدر بخمسة ملايين دولار، تاركــة أمثالنا يفكرون في الطريقة التي حاصر بها الثــوار منــزل عثمان بن عفان – والتي تجدون تفصيلاتها في كتــاب طــه

حسين"الفتنة الكبرى"، وكتابات أحمد أمين المتعددة.. والأمنيات العذبة لبعض ستات بلدنا أن يأكلوا البرتقال صيفًا، مع أنه انتشر بشكل يهدد البرتقال الشتوي، دون أن تقع صاحباته في مؤامرات تشويه الوجوه الجميلة بماء النار.

٢- تأمين أخلاقي

بحسن نية - بعد الانتهاء من مسألة الفنانة المشار إليها منذ سطور- قامت الزميلة ماجدة الجندي بفتح باب آخر، لو أن أحدنا سلكه فسوف تخرب بيوتنا جميعًا، فقد استضافتها التليفزيونية مرفت سلامة في برنامج يخضع للتيار السائد الآن- أي الذي يتسم بالصراحة، وخلال حوارها الممتع، قالت أو طالبت أو شرحت لنا فكرة مروعة: ست البيت، وكنت أنا شديد الإعجاب والاندهاش، وبعد أن فارقت التليفزيون، لم يفارقني الموضوع.. كيف؟؟ من هي ست البيت التي يجب أن نؤمن لها حياتها؟ وما هو نوع التأمين؟؟ بالتأكيد سيكون ضد الحوادث المفاجئة التي تزلزل اليقين الإنساني، الأم التي يلقى بها أبنها بعيدًا عن الشقة ليتزوج، فتقيم تحت السلم - أو تحت المصعد - حسب الشريحة الاجتماعية، حتى يقشعر ضمير أحد الأقارب أو أحد

الجيران، فيرفع لها دعوى قضائية (لتمكينها مــن المــأوى)، هناك الأمهات اللاتي يستولي أزواجهن أو أبناؤهن على مـــا يمتلكن ويتركونهن (أنا تعبت من نون النســوة) فـــي مهــب الريح، حالات كثيرة وعديــدة يحميهـــا الشـــرع الإســلامي بالحقوق الواجبة – لكننا كعادتنا نهدر الشرع فيسقط التـــأمين وتنهار الحقوق. بالتأكيد فإن المقصود من كلام ماجدة الجندي عموم زوجات زوجات الموظفين، حيث لا نجد دائماً العصبة العائلية القبلية التي تحميهن سواء بتطبيق الشرع أو باستخدام البأس المناسب، نعم هناك تفسخ عصـــري فـــي العلاقـــات العائلية، لعله من المناسب أن أشير إلى حالة بالغـــة الحـــدة، صديق (كان صديقًا أيامها) يعمل مدرسًا، وهو الآن يســـعى كي يصبح عضوًا في هيئة التدريس بإحدى جامعاتنا بعـــد أن كافح في عناد وقوة وصبر ليحصل على المؤهلات المشرفة والمناسبة، زوجته موظفة بوزارة الشئون الاجتماعية، ويقيم ثلاثتهم – هو وزوجته وأمه– في البيت الكبير الموروث عن أبيهن صاحبنا يجيد العزف الموسيقي، ومثقــف فـــي الأدب، ومع ذلك فقد نشب الخلاف في البيت، وبالطبع حاول إصلاح وترميم العلاقات، ثم لم يلبث أن أصبح البيت بيتين، أمه فـــي

ناحية وهو وزوجته في ناحية أخرى، مع دفع مبلغ إعاشــة لأمة قرره أصحاب الحل والربط، لكن النار اشــتعلت مــن جديد، المهم انتهى الأمر بأن والدته لجأت إلى بيــت بنــت زوجها من امرأة أخرى، واضح أن في الأمر عنادًا يحطــم كل محاولات الإصلاح، وظلت أم صديقي عند بنت زوجهــا في مكان آخر لتمارس دور الغاضب علــى ابنهــا، وحتــى عندما رحلت كانت وصيتها الباكية، قبل طلــوع الــروح ألا تخرج جنازتها من بيت أبنها، مما ألب النفوس القروية ضده باعتباره ظالمًا بشكل من الأشكال لأمه، هل هنــاك أم فــي العالم كله يمكن أن تكون ظالمة وجائرة؟ أبدًا، وهكذا خرجت جنازتها من بيت بنت زوجها إعلانًا صريحًا لعــدم الرضــا ودعاء واضحًا على ابنها وزوجته بدخول النار، بالطبع لــو كان ثمة تأمين مادي لهذه الأم – مع أني أعلم أن صديقنا لم يتأخر في حدود المتاح – لكانت المسألة قــد خرجــت مــن عواطفها المصرية المخنوقــة للهــواء الطلــق، كيــف؟؟ لا أعرف، الذي يمكن أن تفسره لنا هي صاحبة الاقتراح: ماجدة الجندي..

فإذا تحرك هذا التأمين إلى الزوجة – قبل أن تصبح أرمل مثل أم صديقي – وأمي أنا أيضا – فإن الأبواب تنفتح على الرياح والعواصف، فالزوجة لن تدفع التأمين – بالطبع يدفعه صاحب العمل أي ندفعه نحن الأزواج، يعني زوجتي تأكل وتشرب وتتهادى في الملابس الجديدة، ثم بين الحين والحين تذهب إلى أمها، أو إلى حديقة الحيوانات أو إلى سيدنا الحسين، وتتكلم في التليفون (٦٨٠ جنيهًا في آخر ستة شهور) فإذا أضفت إلى ذلك عنصر (الخنصرة) بصفته القاسم المشترك لجميع سيدات العالم – (والخنصرة تعني الاحتفاظ بمبالغ صغيرة من وراء المصاريف اليومية، تظل تتراكم حتى تصبح ثروة) كل هذا على حسابك دون أن يقع من المسائل مصاريف العلاج وموائد الأقارب والمعارف، فإن الأمر يصبح كارثة إزاء ما يعينه كل ذلك – بما فيه التأمين المشار إليه على أكتاف الزوج – ولذلك فإن الأمر يدعو واحدًا – مثلي – لإعلان تشكيل اجتماعي تحت شعار: جماعة حماية الزوج، وبالذات مشروع ماجدة الجندي، وأفكارها، وأطالب أي مذيعة تليفزيونية – ولو غير لامعة – أن تدعوني لتوضيح أفكاري..

٣- أم محمد

وما كان لنا أن نخوض في مسائل محرجة بعد أن فندنا حادثة إلهام شاهين، وأفكار ماجدة الجندي، إلا بالتوغل في مسالة أم محمد، أي أمي أنا، بارك الله لنا فيها والتي أرهقت إرهاقًا لا حدود له لكي تكون لنا - أنا وأخي - هذه الحياة التي بارك الله لنا فيها أيضًا، ذلك أنها - هذه الأم- وقعت تحت سطوة جلافة الأقارب المعاصرين في قريتنا، بالتحديد: زوج أختي الكبرى الذي تولى زراعة القراريط التي تتجاوز الفدان- بعد رحيل أبي، (على فكرة رحل أبي في يوم إعلان جمال عبد الناصر نفسه للميثاق في ٢١ مايو ١٩٦٢)، ومن ١٩٦٢ إلى ١٩٦٨ ذاقت أمي المرار على يد صاحبنا، كان يندد بها كلما طلبت نقودًا من أسوان - حيث كنت أعمل - فإنه يتوقف تمامًا عن الاستجابة لمطالبها الصغيرة، وكانت أمي تخفى عني وعن أخي ما يحدث حتى تسرب غلينا، وبمجرد زواجي: أحضرت أمي من القرية لتعيش معنا في العاصمة، لقد أكرمها الله بزوجتي - ثم بزوجة أخي - البعيدتين عن الاستحواذ وإثارة المشاكل، إنهما من القاهرة وليستا قريبتين لنا، ومع ذلك قدمتا من العناية لأمي ما لا

طاقة لغيرنا به، دعني أعترف بأن الرجل هو الذي يستطيع – إن استطاع – أن يحدد زاوية التعامل مع الأم، إن رضاء الأم أرخص بمراحل من إغضابها، والناتج المتوتر العصبي من الإغضاب يفوق بمراجل آلام السرطان، ماذا تريد الأم من بيت ابنها؟ الابتسام أولا، ثم المأكل والمشرب، والرعاية، ومسائل (طفولية) أخرى، انظر لزوجة أخي وهي تقول لأمي: لن نأكل ملوخية إلا من بين يديك. وأم محمد يا سادة سيدة تجاوزت الثمانين وتقلصت حواسها الخمس، فتفرح أمي وتظل جالسة تفرك الملوخية أو تقرطفها إن كانت خضراء، وتجهز الثوم والفلفل الأسود – وكأن كل ذلك يحتاج إلى خبرة عميقة، واحدة منهما تشترى حاجات عيالها فتقوم بشراء شال جميل لأمي، أحسب جميع أنواع مصروفات أمي في عام، سيكون مؤلمًا أن تعرف أنني أدخن سجاير بضعفها، الابتسام والمخاطبة وإشراك الأم فهيا يبدو أنه شئون المنزل، وأهمية أن تكون في الصورة عند التصرف، أقول لها عندي ثروة وأريد أن أحميها بالصدقة، وعليها أن تختار وتحدد المستحقين، فينشط ذهنها ويتسلل إلى ألأوكار المحتاجين، فتأمرني بأن أدفع لبيت فلان وبيت فلانة، قم تأمرني – في

غضب جاد – ألا أدفع لبيت فلان، (كفاية عليه الحشيش– أستغفر الله)، دعك من التزامي بتنفيذ أوامرها بالحرف، لأن هذا ليس مهمًا قدر أهمية أن هذه الطاقة المكبوتة من الأمومة تحتاج إلى مجال تنفيث، تقوم – بعد تأدية الصلاة – إلى أحد أولادنا وتمسكه من دماغة ضاغطة: هل حللت الواجب؟، أو لإحدى بناتي جالسة أمام التليفزيون: قومي يا بنت شوفي مصالحك، لاحظ أن كل ذلك لا يؤثر تأثيرًا ذا شأن في برامج بيوتنا: المأكل والمشرب والنزهة والسفر إلى الأقارب أو المصاريف، لكن أم محمد – أمي – تجد دائمًا (الهامش) المناسب الذي تتحقق فيه، والذي يعني أنها تحيا وتتنفس وتصلي وتصوم، وتنتمي إلى تكوين عائلي.

نعم هناك أمهات يفسدن كل ذلك، وأعني أن حسن المعاملة ليس في زوجاتنا فقط، بل الأساس في الأم ذاتها، فهناك أقارب أكثر مالا وراحة لكن أمهم فشلت في معايشة ثلاثة بيوت متوالية، وأنا نفسي أكرهها عمي، ذلك أنها تأتي من أصلاب صعايدة معتقدة أنها سيدة العالمين، وزوجات أبنائها لسن خدمًا أو رقيقًا، كما أنها تنتقدهن لأنهن يضعن

الأحمر في الشفايف والأخضر في العيون، بعد ذلك عاشت وحدها في بيت معزول حتى راحت لحالها.

وبعد: فإن العائلة المصرية – يا سيادتي – العائلة كلها، ليس لأفرادها حاجة إلى التأمين المادي، في حاجة إلى أخلاق، أخلاق راقية.. على الأقل لكي لا أتحمل كل تبعات تأمين زوجتي، الحالية.. وربنا يستر، قل يا باسط، حتى تذوق زوجتي البرتقال الصيفي أو تشارك في حصار الخليفة عثمان.

مؤلفات محمد مستجاب

(١)	ديروط الشريف	قصص	الطبعة الأولى ١٩٨٤ الطبعة التاسعة ١٩٩٦
(٢)	القصص الأخرى	قصص	الطبعة الأولى ١٩٨٦
(٣)	قيام وانهيار آل مستجاب	قصص	الطبعة الأولى نوفمبر ١٩٩٥ الطبعة الثانية فبراير ١٩٩٦ الطبعة الثالثة مارس ١٩٩٦
(٤)	**من التاريخ السري لنعمان عبد الحافظ**	**رواية**	الطبعة الأولى ١٩٨٣ الطبعة التاسعة ١٩٩٦

ترجمت الرواية ومختارات من المجموعات القصصية إلى الهولندية ١٩٨٩ واليابانية ١٩٩١، والفرنسية ١٩٩٧.

(٥) حرق الدم الجزء الأول ١٩٨٩

(٦) حرق الدم الجزء الثاني ١٩٩٧

(٧) بوابة جبر الخاطر ١٩٩٦

(٨) زهر الفول ١٩٩٨

(٩) الحزن يميل للممازحة. الكتاب الذهبي. روز اليوسف ١٩٩٨.

(١٠) جبر الخواطر – الجزء الثاني – الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٩.

(١١) قصص قصيرة حمقاء. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مكتبة الأسرة ١٩٩٩.

(١٢) ريش الغراب. منشورات واحة العربي. مجلة العربي. الكويت ١٩٩٩.

(١٣) أبو رجل مسلوخة. مركز الحضارة العربية ٢٠٠٠.